خلف أسوار الحرملك

عائشة عبد العزيز الحشر


الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-87-055-1



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

الإهداء

إلى خالد

زوجي الحبيب

آمنت بي "إنسانة"

وقلت لي: إن لم تقولي ما يجب فقولي ما يمكنك قوله.

مقدمة

أحاول في هذا الكتاب أن أسجل ما حدث ويحدث داخل المجتمع النسائي، وأن أتلمس ضمن ما أكتبه الأسباب التي جعلته بالصورة التي هو عليها مضيفة بين صفحاته بعض المواقف التي مررت بها في مجال تعليم البنات والذي قضيت فيه عشرين عاماً حتى الآن.. وما دمنا لا نزال نناقش قضية المرأة بينما هي قضية محسومة في الوعي الإنساني خارج مجتمعنا عفا عليها الزمن فإني أحاول أن أكون موضوعية إلى أقصى درجة أستطيعها. ولعلي بما أكتبه أكون قد أضأت بعض الأماكن التي وبفعل الأسوار الشاهقة ظلت معتمة وستظل كذلك إلى أن يرى الناس أن للمرأة حق في الحياة لا يقل عن حق الرجل فيها.

أستطيع قبل أن يصل الكتاب إلى أيدي الناس تصور ردود الفعل المتباينة فدائماً في مجتمعنا هناك عدد لا بأس به ممن يرون أن أي مطالبة للمرأة بحقها في أي شيء خروج عن الدين. وكأن الدين هو الظالم للمرأة والعياذ بالله، وهم فقط ينفذون ما أتاهم من الله. إنها جرأة رهيبة وعجيبة. جرأة على الله تعالى أن يظن بعض البشر أنه يظلم الناس أو أحد من الناس. وجرأة في البحث عن تبريرات لذلك الظلم وكأنهم يتلمسون الأعذار ويبررون المواقف التي زعموا أنها وفق ما أمر به الله تعالى. وسيرددون كما يفعلون دائماً: الإسلام كرّم المرأة.

نعم كرّم الإسلام النساء، ووضع القوانين التي تحميهن وتحافظ على إنسانيتهن، وأوصى الرجل بالمرأة لأنها في مجتمعات عديدة لا تزال ومنذ تلك العصور الغابرة إلى الآن إما عند أب أو مع زوج أو

تتـــنقل بيـــنهما. و لم تكن المرأة ذات يوم ومنذ ما قبل الإسلام وإلى ســـنوات لا أدري عـــددها ستأتي، لم تكن في بلادنا وفي مساحات أخرى واسعة من الكرة الأرضية مستقلة في حياتها أبداً. إذاً.. الإسلام لـــيس هو المتهم.. ليس هو المتهم.. وليست القضية في هذا الكتاب عن تكريم الإسلام للمرأة. فكلنا كمسلمين متفقون على أن الإسلام كرّمها. وإنما القضية هي مخالفة مجتمعنا للإسلام مخالفة فجة وواضحة مـــن حـــيث اعتقد البعض بأنه يطبق الإسلام كما جاء، ومن حيث زعمـــوا أن ما يفعلونه بالنساء هو ما أمر به الله تعالى. وسوف أُورد بعـــض الأدلة من الآيات والأحاديث الصحيحة وليس الكثير منها. لتذكّر بعض القراء بالموقف الحقيقي للدين من كل ما يحدث. مع أن القرآن وكتب الحديث تظل تزخر بالنصوص التي تؤكد موقف ديننا الحنيف من النساء.

وبرغم ما يتضمنه الكتاب من وصف للعلاقة بين الرجل والمرأة في مواقـــف مخـــتلفة إلا أن جلّ ما تناولته ينصب على وضع النساء القائم. وأرى أن وجود عدد من السعوديات اللواتي استطعن الشذوذ عـــن القاعـــدة والخـــروج عن المألوف فتفوقن في مجال من المجالات وتـــناولهن الإعـــلام ليثبت من خلالهن تغيّر وضع المرأة أقول – هن الـــشذوذ الذي يؤكد القاعدة – حيث إن للعامة أعرافهم وقوانينهم الاجتماعـــية وتفكيرهـــم الخاص الذي لا ينطبق على من استطاعت الوصـــول إلى شـــهرة معينة أو تفوق ما في مجال من المجالات. وإذا درسنا أحوال أولئك النسوة اللواتي تحدين الصعاب وتجاوزن المعوقات ونـــبغن في مجـــال معين فسنجد أن معظمهن من عائلات تختلف في تعاملها مع المرأة عن المألوف. ولا تخضع لكل ما تعارف عليه الناس في بلادنـــا بخصوص النساء. أضيف إلى هذا وجود بعض التفاوت في التعامل. إذ إن ما تراه قبيلة من القبائل عيباً. قد يكون في عرف قبيلة

أخـــرى مقبولاً أو ربما مستحباً. وهذا ما يجعلني أتناول ما هو سائد بـــشكل أكثر وأتجنب الخوض في عادات خاصة جداً بفئة قليلة من الـــناس. فـــإذا قلنا مثلاً إن بعض النساء لا زالت تخفي وجهها عن زوجها ببرقعها داخل منـــزل الزوجية إلى اليوم - وهذا يحدث فعلاً عـــند بعـــض القبائل - أقول: هذا شأن خاص بفئة معينة ولا ينطبق علـــى الأغلبـــية.. وكما أني قلت إن المتميزات جداً غير معنيات بما سأكتبه هنا، فإن ذوات العادات الخاصة جداً مستثنيات مما سأكتب أيضاً.

من أكتب عنهن موجودات في أطراف المدن الكبيرة وفي قلب المدن الصغيرة. وموجودات في القرى الكثيرة حول تلك المدن. إنهن في المجـــتمع الذي يشكل التعصب واللاتسامح الصفة الأساسية فيه. وتشكل النظرة الدونية للمرأة والارتياب منها أو في أحسن الأحوال الخوف عليها أمراً طبيعياً.

ولأن التنمـــية (بكل مستوياتها) لا تزال بيد الرجل فإني أرى أن معـــرفته بعـــالم المـــرأة ضرورة قصوى. إذ إن الكتابة بشكل موضـــوعي يسلط الضوء أكثر على هذا الجانب المخفي عن أعين المـــسؤولين والمهتمين بالمواطنات كاهتمامهم بالمواطنين، ويساعد علـــى معـــرفة قدرات النساء على بناء المجتمع الذي يتضمن المرأة والـــرجل معاً إن كنا على يقين أنها مواطنة مثله لها ذات الحقوق على أرض وطنها.

عـــندما بدأت أكتب في هذه الصفحات فكرت في المجتمع بعد عـــشرين ســـنة مـــن الآن وتساءلت حول رأي من سيقع بين يديه الكتاب بعد مرور كل هذه السنوات، هل سيرى أننا كمجتمع كنا متخلفين جداً لا نحفل كثيراً بحقوق المرأة، بل لا نسمح لها بالتحدث حول حقوقها بشكل واضح وصادق وعميق؟ أم سيظل يرى ما يراه

أهلـــه الآن؟ وبمعـــنى آخر. هل سنكون بعد عشرين عاماً قد قطعنا أشواطاً في الإنصاف وترك الظلم أم سنكون كما نحن الآن نبرر الظلم ونجزم بحق الظالم فيما يفعل؟

التنبؤ بالمستقبل ربما يكون من أصعب ما يقوم به الإنسان في شرقنا كله. فالأمور لا تسير بشكل طردي دائماً وفقاً لمقدماتها. إذ مـــن الممكن أن تحدث ردة اجتماعية في بعض القيم الإنسانية مما يعـــني تبدل الأوضاع إلى الأسوأ مع ما يرافق هذا التبدل من ثقة لدى المجتمع بأن هذا التبدل هو الأفضل للجميع. وهذا ليس خيالاً ابتدعه الآن. فالقارئ الكريم سيرى ضمن صفحات الكتاب كيف أن النـــساء في منطقة الجنوب تحديداً – وهي الأرض التي تربيت وتعلمـــت فيها – كن مواطنات ذوات حقوق تقترب من حقوق الـــرجل. وكـــيف أصبحن مضطهدات وأسيرات الآن مع تأكيد الغالبـــية العظمى من العامة والنخبة في بعض التيارات الدينية بأن حـــريتهن السابقة كانت بسبب الجهل بتعاليم الدين الحنيف. وأن استلاب إنسانيتهن الحاصلة الآن هي الكرامة عينها. وبرغم تناولي للمجـــتمع بـــشكل عام إلا أن بعض المواضيع تركزت على أرض الجنوب كوني منها ولا أزال فيها.

عائشة

2006/2/28

مواقف قديمة تتجدد

يقال أن قيس بن عاصم وأد اثنتي عشرة بنتاً من بناته ولم يرى أحد في كافة مجتمعه أن له الحق في قتل قيسٍ أو سجنه أو حتى منعه بالقوة فهو حر لأنه ذكر ويملك الأنثى! هل لا زال الذكر يملك الأنثى؟

لم يكن الوأد منتشراً في الجاهلية عند الجميع وإلا لكان الإنسان قد فني تماماً في جزيرة العرب. لكن الوأد للمولود – ذكر أو أنثى – كـــان يحـــدث بـــين حين وآخر. ووأد البنات تحيداً كان موجوداً. لأسباب غير الفاقة والجوع.

الوأد وحتى قبل العصر الجاهلي لم يكن مستنكراً. إذ كان عند مجتمعات بدائية حلاً وحيداً أمام المرأة من عناء العناية بالصغار. وذكر كـــتاب قـــصة الحضارة لوول ديورنت تفاصيل عن الوأد في الماضي البعيد للإنسان.

وإذا كانت المرأة تئد طفلها أو طفلتها خوفاً من الفقر أو رغبة في إخفـــاء جـــريمة الـــزنا، أو للتخلص من عناء الإرضاع والعناية بالـــصغار، فإن الرجل يئد طفلته خوفاً من العار الذي قد تأتي به إذا صارت شابة.

فكـــيف كـــان الإنسان – رجلاً كان أو امرأة – متوحشاً للحد الذي يكون فيه قادراً على وأد ابنته!؟.. وهل في وسع الرجال الآن وأد بـــناقم؟ أو حتى تصور ذلك؟ هل يتصور أحد الآن أن باستطاعة رجل إزهاق روح طفلته؟ ربما يحدث هذا دون أن يرى الرجل الوائد أنه وأد.. ودون أن يستنكر المجتمع عمله هذا. تماماً كالجاهلي الذي يدفن طفلةً في

التـــراب دون أن يرف له جفن.. أو تدمع له عين ثم لا يرى الناس بأساً في عمله هذا ربما من باب (هي ابنته وله الحق فيما يفعله بها).

وبرغم وجود التفسيرات الكثيرة لدوافع ومبررات وأد البنات، وأنـــه كـــان مقتـــصراً على بعض القبائل دون غيرها يظل الوأد من الأعمـــال البشعة التي لا تقبلها الإنسانية الآن برغم أنه عمل مقبول فيما مضى ولا تقلل من بشاعتها أي دوافع، اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

الوأد كان عملاً مبرراً في المجتمع الجاهلي لأن الإنسان إذا اعتاد أمراً وألفه فإن الألفة تحول حتى الجرائم مهما كانت بشاعتها إلى أمر مألوف واعتيادي بين الناس.

كان الوأد غير مربك.. غير مفزع.. وغير مستغرب.. ولم يكن الـــوأد عملاً لا إنسانياً في ذلك الحين. فكلمة إنساني أو اللاإنساني لم تعـــرف بعد. ولم يرتق المجتمع للوصول إلى معانيها. ولم يكن الوأد وحـــشياً.. لم يكن مخالفاً لأي قانون أو نظام أو حقوق. لذا واصل القرآن الكريم حديثه عن الأنثى في عدة مواضع إلى أن ربّى في الرجل مـــشاعر إيجابية تجاه ابنته تحد من قدرته على حفر التراب وصغيرته تنظـــر إليه وربما تعاونه في ذلك، وتحد من قدرة الرجل على إنـــزالها في ذلـــك القبر وهي لا تدري ماذا يحل بها. وربما استشعرت الخطر فتـــشبثت بـــوالدها وأخفت وجهها في صدره طلباً للحماية.. ربما اقتـــربت من ضلوعه لتنصت إلى قلبه لعلها تطمئن. فأي قلب حوت تلـــك الضلوع؟ وأي أبوة في أعماق ذلك الرجل وأي إنسانيةٍ لديه؟ أي قـــوة في تلـــك الأكف التي تحملها وتنـــزلها في حفرتها ثم تضع عليها أكواماً من التراب إلى أن تموت تحته؟ وينفض الأب ما في ثيابه ولحيـــته مـــن غبار علق به أثناء الحفر وعلق به بعد ما أثارته أقدامها وأكفها الصغيرة وهي تصرخ وتستنجد وتقاوم دفنها حية.

هـــل المجتمع هو ذات المجتمع؟ وهل الرجل هو الرجل في كل مكان وكل زمان؟ هل لا زال قادراً على إيذاء صغيراته إلى هذا الحد وبهـــذه القسوة، وإن اختلفت الطرق. هل يتشابه الرجال منذ ذلك الحـــين إلى الـــيوم فيـــئد الجاهلـــي جـــسدها ويئد العصري عقلها وشخصيتها؟ ثم لا يستنكر مجتمع الجاهلية ولا مجتمع اليوم هذا الوأد أو ذاك؟

لقـــد خاطـــبهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْـــلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (سورة الأنعام، 151) لكن الإملاق لَـــيس الـــسبب الوحيد للقتل.. فقد تكون **العفة هوساً** لدى الرجل ويصل الهوس بصاحبه إلى حد قتل من لا ذنب لها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير، 8 – 9). فهل لا زالـــت **العفـــة هوساً** في مجتمعنا إلى اليوم كما كانت في الجاهلية بحيث تجعل الرجل يتصور ما لا يوجد وما لم يحدث. ثم يخطط بقسوة للحيلولة دون حدوثه. ولكن اختلفت طرق التخطيط والعنف بسبب هذا الهوس؟ هل لا زالت المرأة لا شيء سوى جالبة للعار والفضيحة ولهـــذا يجـــب دفنها في حفرة أو خلف سور منـــزل لا تغادره إلا للضرورة؟

لقد ناقش القرآن الكريم نظرتهم الدونية للمرأة وسخطهم من وجـــودها إذ قـــال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُـــسْوَدًّا وَهُـــوَ كَظِـــيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْـــسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل، 59).

إذاً وحـــسب الـــنص القرآني الكريم، إن أقل ما يحدث هو أن الرجل يكره قدوم الأنثى ويخجل من ولادتها، ويتساءل عن ما يجب فعله. هل يبقيها أم يقتلها.

هـــل لا زال بيننا اليوم من يكره أن تلد زوجته الإناث؟ ثم إذا جـــاءت الأنثـــى أصر على أن مكانها المنـــزل وخروجها ليس إلا لضرورة وبحارس من محارمها؟. مثله مثل الجاهلي الذي ذكر القرآن الكريم أنه يريد أن يدس الأنثى في التراب؟ نعم بيننا من لم يتعلم من كـــتاب الله هذا الدرس. ولا يريد أن يتعلم. بيننا من يتزوج بأخرى طمعـــاً في إنجاب الذكور ثم لا يرى المجتمع في هذا الأمر أي حرج، وكأن الله في كتابه العزيز لم يقل شيئاً عمن يكره قدوم الإناث.

الـــرجل في مجتمعنا يتجاوز ما يقوله الله تعالى في هذا الشأن ويبرر بكل اقتدار تجاوزه لما قاله الله. فانـــزعاجه من قدوم الإناث ورغبـــته في إنجاب الذكر مبرر كاف ليتزوج ويطلق وكأنه لم يقرأ الآية السابقة. و لم يقرأ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (سورة الشورى، 49).

ثم لا يـــرى المجتمع بإناثه وذكوره بأساً في ذلك التجاوز وذلك التبرير.

وكمـــا تـــزايدت كراهية الأنثى بتأثير الثقافات الوثنية القديمة والديانـــة الـــيهودية[1] وما فيها ضد النساء وحالة الغزو التي كانت الـــسائدة في المجـــتمع الجاهلـــي، وجملـــة من الظروف الاقتصادية والاجتماعـــية المخـــتلفة والتي ظهرت نتيجة لها عادة الوأد خوفاً من العار الذي سيحدث إن سَبَت القبائل الأخرى البنات، تزايدت الآن حالة الحصار خوفاً من تعدي أي رجل على أي امرأة.

وعـــوض عن تشريع الأنظمة التي تحمي المرأة من المضايقات أو التحرش، ومعاقبة الجاني في حال حدوث مضايقة للنساء، نضع المجني

---

(1) سيأتي تفصيل أثر الثقافات المختلفة على الفقه الإسلامي في الصفحات القادمة.

علــيه وهي المرأة في السجن ونعطي الجاني وهو المتحرش من الذكور مــساحات أرحــب وحقوق أكثر. وعوض عن أن نربي في الرجال الآداب الــتي حثّ عليها الإسلام والتي ابتعدوا عنها كثيراً فيما يخص الــتعامل مــع المــرأة، نضع النساء ضمن مستعمرات خاصة تحاط بالأســوار العالــية وبالنصوص المنتقاة والفتاوى المتشددة والعقاب الــصارم من قبل المجتمع وأعرافه ومؤسساته الرسمية للرافضات منهن الــبقاء خلف تلك الأسوار أو المتسائلات عن معنى بعض النصوص. فظــل السؤال عن معنى النص والإجابة عليه حكراً للرجال، وبقيت النــساء في حالة تلقي دون أي مناقشة، إلا فيما ندر. بل لقد سمعت مــن بعضهن أن علي إثم إن سألت عن مقاصد الشريعة في أمر ما أو الحكمــة من تشريع معين. إلى هذه الدرجة أغلقن عقولهن. وطالبنني بالاستسلام أيضاً.

العــار المــتوقع من المرأة وما يترتب على هذا العار من خوف علــيها موقف عام يجتاح الجميع. وبالتالي فهي – في نظر المجتمع – ليست أهل للثقة من قبل أهلها لتتصرف في أمرها. وليست أهل للثقة في عين نفسها أيضاً[2].

ولكن ماذا كان موقف والد فاطمة رضي الله عنها من وجودها كله، حين كانت طفلة وحين غدت شابة؟ هل وأدها محمد – مع أن الــوأد ليس بخطيئة في ذلك الحين حتى أن قيس بن عاصم وأد اثنتي عشرة بنتاً من بناته و لم يرى أحد أن له الحق في قتله أو سجنه أو حتى منعه بالقوة –؟ هل خجل محمد صلى الله عليه وسلم من ترديد اسمها على الأقل؟ هل أمرها بالصمت وعدم الحركة وهي طفلة ثم الخنوع

(2) أؤكد دائماً على أني لا أعني القلة من المتميزات اللواتي أثبتن جدارتهن في مجالاتهن المختلفة وطالبن بحقوقهن وأدركن قيمتهن الإنسانية.

وهـــي شابة عندما أُعلن أن زوجها سيقدم على الزواج من أخرى؟ حاشا لله أن يفعل هذا رسول الله هذا صلى الله عليه وسلم. لم يكن زوجها أي رجل، لقد كان ذاته الذي نام في فراش محمد افتداءً له من القـــتل. إنه الوحيد الذي قرر أن تنغرس سيوف القرشيين في صدره نيابةً عن ابن عمه رسول الله. فهل جامل محمد صلى الله عليه وسلم علياً عندما أراد أن يتزوج علي امرأة أخرى على فاطمة برغم ما بين الرجلين من مواقف ونسب وقرابة وعلاقة وصحبة حقيقية ورغبة في الافـــتداءِ بالـــروح. إن المجاملة في موقف كهذا هي الأكثر منطقية. ولكـــن مـــاذا حدث؟ لقد كسر محمدٌ صلى الله عليه وسلم القاعدة وشذّ عن المألوف وأعلن أمام الملأ حبه لابنته وحرصه على مشاعرها. هل قال هذا لعلي فقط؟ بمعنى أن يجلس وحده مع علي رضي الله عنه معاتـــباً أو رافضاً؟ لا.. الحب عند رسول الله ليس سراً، وخوفه على مـــشاعر ابنته أمر يفخر به ولا يخفيه. لذا أعلن وهو على المنبر وقال أمـــام الناس جميعاً: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالـــب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها» رواه البخاري في باب ذبّ الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف.

إذاً رســـول الله لم يكـــتف بالرفض أمام علي وحده.. أو على الأقل يبدي انـــزعاجه، أو يصبر ويصبّر ابنته لأن علياً يريد أن يتزوج بأخرى. بل وقف على المنبر ليعلن رفضه ويردده ثلاث مرات ثم يعلن أن طلاقهـــا من زوجها علي رضي الله عنه هو الخيار الوحيد لزواج زوجهـــا من أخرى. هل هذه سنة يا رسول الله؟ إن السنة هي فيما يقول يفعل صلى الله عليه وسلم. حتى في استخدام السواك وهو مجرد أداة لتنظـــيف الفم ويمكن أن يستبدل بفرشاة الأسنان لكن الحرص

علـــى اتـــباع السنة جعل كثيرين يمشون وفي أفواههم مساويك من الأراك حرصـــاً على اكتساب الأجر بتقليد الرسول، فلماذا لم يتّبعه القوم في سنته تلك ويرفض الواحد منهم أن يتزوج الرجل على ابنته إلا إذا كان زوجها سيطلقها؟

وقد قال كثيرون بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض أن يتزوج علي رضي الله عنه امرأة أخرى مع ابنته لأن الرسول الكريم لا يـــريد أن تجتمع ابنته مع ابنة آل المغيرة تحديداً. وأقول: لو كان الأمر كما يُصور لاكتفى رسول الله بالرفض ولما قال: «فإنما هي بضعة مني يـــريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها» فهذه الجملة توضح لنا أن رفض رســـول الله صلى الله عليه وسلم ليس بسبب موقف آل المغيرة، بل بـــسبب حـــبه لابنته ومكانتها في قلبه. هو يقول أن ما سيؤلمها هي ويجرحها هي سيؤلمه ويجرحه مثلها لأنها ابنته. ولن تتألم فاطمة رضي الله عـــنها إذا تزوج علي رضي الله عنه ابنة آل المغيرة، وتتلقى الأمر بفرح وسرور إذا تزوج ابنة عائلة أخرى.

وروى الـــبخاري عـــن عائشة أنها قالت: (ما رأيت أحداً من الـــناس كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم كلاماً، ولا حديثاً ولا جلـــسة من فاطمة، قالت: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآها أقـــبلت رحّـــب بها ثم قبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانـــه، وكانـــت إذا أتاها النبي صلى الله عليه وسلم رحّبت به ثم قامـــت إليه فقبلته) هكذا كان يعاملها صلى الله عليه وسلم ويخاف على مشاعرها.

الخـــوف مـــن العار، والحفاظ على العفة لم تسيطرا على قلبه وعقله صلى الله عليه وسلم مع أنها كانت من أبرز ما يفكر به الرجل تجـــاه المرأة في المجتمع الجاهلي - ولا زالت حتى اليوم في مجتمعنا -. والتـــنازل أو التساهل في مشاعره تجاه ابنته لم يحدث استجابة لما بينه

وبـــين علـــي رضي الله عنه من قرابة ونسب ومواقف لا يؤديها إلا الأبطال الذين يستحقون التكريم والتمجيد. فهل يكون تكريم محمد لابن عمه البطل سبباً في الأذى لفاطمة وجرح لمشاعرها؟ إنه رسول الله. فلماذا لم يقتدي أحد بمحمد في هذا الجانب تحديداً؟ لماذا لم تبرز هذه الصورة و لم نسمع بها من على منبر في خطبة جمعة أو في كتيب ومطوية مما يوزع باستمرار؟

إن مناقشة موضوع اضطهاد النساء بأي صورة سيجعل كل من يقـــول ما لديه ويخالف ما ألفه الناس ذا أهداف خفية ونوايا سيئة في نظر البعض حتى وإن استشهد بكتاب الله وسنة رسوله، ويظل متهماً بالمؤامـــرة على المرأة. أو داعياً للانحلال والرذيلة. وكأن الإنسان في هذا الوطن ينام ويصحو في رذيلة إلا إذا وقفوا على حراسته ومراقبته. ولكـــن ها نحن أمام خيارين: أحدهما موقف القرآن الكريم من المرأة وموقف رسول الله من كافة نسائه والموقف الثاني هو موقف التراث الذي يملأ ثقافتنا المكتوبة والشفهية[1].

لقـــد حمـــل التـــراث إلينا صفات عديدة للمرأة تنـــزع عنها إنـــسانيتها وتبقيها ضمن ممتلكات الرجل. تحولها إلى شيء من أشيائه وعليه أن يحافظ على ما يملك. وليس لها أن تفعل شيئاً في هذه الدنيا فيما عدا خدمته وخدمة الأطفال. فإن خرجت بعض النسوة للعمل خـــارج المنـــــزل فيكون خروجها بشرط أن لا يؤثر على خدمتها لـــزوجها وبيـــتها وأطفالها. ويا للعجب.. خلق الله النساء ليبقين في منازل الرجال رهن إشاراتهم، فهن في النهار لخدمة الرجل وفي الليل

---

(1) يقول د. عبد الكريم بكار في كتابه رؤى ثقافية ص 13 (يصرف الإنسان ما بين 50% إلى 80% من ساعات يقظته في الاتصال بالآخرين. ويمضي نحواً من 45% منه في الاستماع. وفي الثقافة الشفهية تكون الأذن هي البوابة الأساسية للمعلومات الواردة إلى الدماغ).

لفراشــــه - أحقـــاً سخرها الله من أجله، تماماً كما سخر للإنسان مخلـــوقاته الأخرى!! أسخر المرأة للرجل؟ وكأن الرجل هو الإنسان. أما المرأة فمن ضمن ما سخر الله للإنسان؟

الـــرجل مؤمن بقناعاته حتى يومنا هذا وإلى أيام ستأتي لا أدري عددها. واستسلمت النساء أو أغلبهن منذ أزمنة بعيدة لهذا الرأي.

المـــرأة في نظـــر الرجل الآن وفي تراثه القديم الذي يحافظ عليه ليـــست إنسانة كاملة الأهلية في كل مراحلها العمرية. ولا فرق بين الطفلـــة والبالغة. لا فرق بين الأم والبنت. لا فرق بين من تجاوزت الأربعـــين ومن لم تتجاوز الأربع سنوات. ذات الأربع عشرة ربيعاً تخفـــي وجههـــا وذات السبعين أو الثمانين تخفي وجهها في مجتمعنا وبهـــذا فـــإن مـــسألة غطاء الوجه التي هي من المسائل الخلافية قد أصـــبحت قطعـــية. لـــيس هذا وحسب. بل تعدتها إلى القواعد من النـــساء. وإذا ذهبنا إلى المستشفيات الحكومية ورأينا النساء العجائز اللواتي أشرفن على الموت.. هذه عجوز لا تستطيع المشي لكبر سنها تجلس على عربة يدفعها ابنها أو حفيدها تغطي وجهها بشكل كامل. وتلـــك ممـــددة على السرير تعاني ما تعانيه من أمراض الشيخوخة. وتغطي وجهها أيضاً. حتى عند طبيب الأسنان بعضهن إن اضطرت إلى مـــراجعة طبـــيب وليس طبيبة كشفت من وجهها ما بين الذقن والأنف فقط وأبقت الباقي تحت الغطاء[1]. مع أنها بين يدي طبيب. وكـــان يجـــب أن يكون الطبيب طبيباً بغض النظر عن نوع الجنس. ولكـــن للأســـف لا نـــستطيع كمجتمع أن نرى الأستاذ والطبيب والمهندس.. إلخ لا نستطيع أن نراهم إلا من خلال كونهم ذكوراً أو إناثـــاً. وصلنا إلى الحد الذي صرنا فيه غير قادرين كمجتمع على أن

---

(1) هذه حالة نادرة لكنها حدثت، كشاهد على الخوف غير الطبيعي على المرأة.

ننظـــر إلى الطبيبة على أنها إنسانة محترفة في مجال ما وحسب. بغض النظـــر عن كونها ذكر أو أنثى. ولا نرى الطبيب كإنسان محترف في مجال وحسب بل نراه ذكر، ونخشى على نسائنا منه لذا فمهما كانت الحالـــة فإنـــه لا يستقبل امرأة إلا ومعها محرمها. إنها درة مكنونة.. جوهرة مصونة.. يخبؤها وليها – الرجل – في صندوق للمجوهرات. إنها فاكهة أو حلوى يجب أن يغطيها.. وإلا تلوثت. حمامة مكسورة الجناح لا تطير ولا حول لها ولا قوة، أو ربما هي عود ثقاب.. يحرص على أن لا يشتعل.. أو أنها وردة يخاف عليها أن تُقطف.. وقد تكون أي شيء آخر يحبُ الرجلُ أن تكون عليه عدا أن تكون إنساناً مثله تشاركه الحياة بالمعنى الفعلي للمشاركة. ولا يستنكر أحد من العامة تلـــك الأوضاع وكأنهم يطبقون مقولة: (الأخطاء الكبرى المألوفة لا يـــراها الناس. والأخطاء الصغيرة المفاجئة تثير أوسع الاهتمامات إذا وصلت إليه)[2].

ابـــتلعت الكثيراتُ الكثيرات الكثيرات الطعمَ، وألفن الأخطاء الكبرى في حقهن، وصدقن ما يقال لهن وما يقال عنهن، ولم أرَ من تثور لإنسانيتها وترفض كل تلك الألقاب عنها إلا فيما ندر. فصرن فخـــورات بكونهن جواهراً ودرراً تُخبأ عن الأعين سعيدات بانتزاع إنسانيتهن عنهن، راضيات باتهامهن بالجهل أو صغر العقل، متباهيات بقلة الخبرة وعدم المعرفة. بل ويرددن كثيراً أنهن ضعيفات. عاطفيات، مغلوبات على أمرهن، يرددنها بنوع من الماسوشية المحزنة، متصورات أن أي نقـــض لـــتلك الصور سيبعدهن عن الأنوثة إذ إن الأنوثة في ظـــنهن أو كمـــا صـــورتها التقاليد لهن هي الضعف والخوف وغلبة العاطفـــة وتـــراجع العقل وقلة الخبرة. فاستجبن لهذه التربية وصرن

---

(2) أ. د. عبد الكريم بكار خطوة نحو التفكير القويم.

مستلذذات بهذا الخنوع. أما الرجولة فقد أكد المجتمع على أنها في جلافة الطبع وعلو الصوت وعبوس الوجه وإصدار الأوامر والقدرة على التسلط. واستجاب كثير من الذكور لهذه التربية وصارت لديهم مستويات من السادية تتفاوت من شخص لآخر.

ولا يُستغرب موقف النساء الراضخات للتمييز ضدهن إذا ارتضين ووافقن على هذا التمييز بعد كل هذه التعبئة طوال هذه القرون، ما يكون غريباً هو أن يقاومن الاستعباد ولو باللسان كأضعف الإيمان.

كان بعض العبيد أنفسهم أول من رفض تحرير العبيد. وذلك لما لدى الإنسان بشكل عام من خوف من التغيير وتوجس من القادم ولما يشعر به من تآلف مع وضعه الذي اعتاد عليه. إضافة إلى أن الظلم شيء والإحساس بالظلم شيء آخر. فليس كل مظلوم يدرك أنه مظلوم ليطالب برفع الظلم عنه. يضاف إلى هذا وجود شيء من استعذاب العذاب والتلذذ بالخنوع وهذا بالطبع ما تفرزه تربية القمع والاستبداد.

ومن هنا أقول: أن تكون النساء مظلومات فهذا كثير ومنتشر في العالم كله شرقه وغربه، شماله وجنوبه، ويتفاوت الأمر في تزايده أو نقصه وفي قبوله ورفضه. في الصمت عليه أو مقاومته. لكن أن تكون المرأة ذاتها مدركة لما يحدث لها من ظلم رافضةً له، راغبة في تعامل إنساني أفضل مما هي عليه. فهذا لا يحدث في مجتمعنا دائماً، وإن كان يحدث في بعض الأحيان.

في الثمانينات الميلادية كان الحديث عن ظلم النساء يكاد يوصل صاحبه إلى الاتهام بالردة وآثر الناس حينها الصمت على الكلام في الوسائل الإعلامية. وعندما انفرج الأمر قليلاً وبدأ طرح موضوع المرأة في المجتمع لم يكن الحديث يتجاوز مشكلة العنوسة وظلم الولي

لهـــا المتمثل في عدم تزويجها. تناولته بعض الجرائد وبرامج التلفزيون و لم ينتج عن تناول الموضوع والإقرار بوجود كثير من الأولياء الظلمة أن تقـــرر أن يكـــون للفتاة حق تزويج نفسها بنفسها إن هي بلغت الرشـــد لأن المجتمع لن يراها راشدة مهما كان عمرها ومهما حملت مـــن الشهادات. انتقل الأمر إلى معالجة غلاء المهور من قبل الشيوخ والأئمة في التلفزيون والإذاعة عن طريق خطبة أو حوار تلفزيوني أو إذاعـــي. وجـــاءت معالجـــة هذين الأمرين بكثير من الإلغاء للمرأة كإنسان فقد تقرر في بعض القبائل وضع تسعيرة معينة للبكر وتسعيرة أقل بمقدار النصف تقريباً للثيب. تُدفع من قبل الخاطب للرجل الذي يسمى وليها أثناء عقد القرآن وقالوا أن هذا هو المهر.

في تلك الأعوام لم يتجاوز الانفراج طرح بعض القضايا البسيطة ليـــناقش الناس مشكلة هنا وأخرى هناك دون محاولة تعديل الصورة المقلـــوبة. وحـــتى اللـــواتي انطلقن في الحياة العملية في ذلك الوقت ووجدن مجالاً للأعمال التجارية وغيرها. كانت مطالبهن بشأن وضع المـــرأة وحقوقها لمجرد حل مشكلاتهن التي يواجهنها أثناء استخراج التراخيص الخاصة بأعمالهن أو الموافقة على سفرهن وما شابه ذلك. أي أنهن لم يتناولن الوضع النسائي القائم بمجمله ويبحثن عن أسباب التمييز ضد النساء ويحددن مجالات التمييز[1]. ولا لوم عليهن في ذلك لأن التـــشدد في ذلك الوقت سيجعل من تقول بظلم المرأة والتعسف في التعامل معها امرأة ساقطة. أما الصورة المقلوبة التي أرى أن علينا الـــسعي لجعلها معتدلة فأعني بها أن كل تلك الممارسات ضد النساء نـــتجت بـــسبب الانـــتقاص من مكانة المرأة الإنسانية والاجتماعية والوطنية والحط من قدرها والإساءة إلى كرامتها. فإذا أصبحت المرأة

(1) انطلقت الآن كثير من المثقفات الجادات وكتبن بوعي عميق ورائع عن وضع المرأة.

مواطنة في وطنها لا تحتاج إلى وسطاء بينها وبين الوطن، كالرجل على أرضه وبين ذويه. وإذا رأينا كيف عاملها الإسلام باحترام وطبقنا هذا التعامل في حياتنا اليومية فستذهب تلك المشكلات وغيرها مما لم يطرح وظل غارقاً كجبال الثلج التي تختفي في المحيط ولا تطل على العالم إلا بجزء يسير منها.

هناك من ترى الظلم إنصافاً وعدلاً. وأخريات يرين أنه مقدر من الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن عليهن الاستسلام ولا شيء آخر. متناسيات أو جاهلات بأن الله تعالى حرّم الظلم على نفسه وأنه جلّت قدرته لا يظلم عبيده، وقد أرسل الرسل لما فيه خير البشر كلهم و لم يرسل الرسل لخير الذكر دون الأنثى.

وكلنا كمسلمين متفقون على أن الله قادر على كل شيء. وكل شيء هذه مطلقة، فإذا قلنا مثلاً أن الله قادر على أن يطلع علينا الشمس الآن من مغربها فالله فعلاً يقدر على هذا وهو على كل شيء قدير. لكن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، و لم تطلع أياماً من الغرب وأياماً من الشرق مع يقيننا التام بأن الله لا يعجزه أي أمر على الإطلاق، ومن ذلك أمر شروق الشمس من الغرب اليوم أو غداً فلماذا لم يفعل ذلك سبحانه منذ الأزل وحتى الآن برغم مرور ملايين السنين والشمس تشرق وتغرب بذات الكيفية؟ السبب هو أن الله تعالى سنّ قوانيناً سيّر بها الكون كله أي أنه خلق النظام الذي يحفظ لكل ما في هذا الوجود مسيرته، إنها سنن الكون ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب، 62).

والإيمان بما قدره الله على الناس يعرف الجميع أنه لا يتعارض مع ما يسعى إليه الرجل من رزق أو رفعه ومكانة اجتماعية أو علم أو شهادات أو مال أو مركز مرموق. وهذا حق، فمن سنن الله أن جبل الإنسان على البحث عن الأفضل في سائر أموره. لهذا لا

نـــستغرب أن يبحث رجل عن وظيفة أفضل من وظيفته أو أن يجمع المال ليصبح ذا ثروة طائلة أو أن يسافر لكي يصبح أكثر علماً وثقافة كل هذا معتاد وطبيعي. بل ومطلوب من الرجلِ أن يفعله.

فلمـــاذا إذاً يتعارض في ظن بعضهن وبعضهم ما قدره الله على النـــساء مـــع ما تريده المرأة من مكانة أو علم أو مال أو حتى تعامل لائق بها كإنسانة كرّمها الله قبل أن تطلب تكريم زوج أو أب أو أخ أو نظـــام اجتماعي لا يراها قادرة على العيش دون موافقة ولي الأمر أو دعمه. كيف اختلف الأمر لكونها أنثى فظنت ذلّها مقدراً يجب أن تستسلم له مع أن سعي الرجل إلى ما يزيد من مكانته واحترامه أمر جائز لا يتعارض مع ما يقدره الله من مكانة أو رزق أو علم للرجل؟

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به - هل في وسع الرجال الآن وأد بـــناهم دون أدنى شـــعور بتأنيب الضمير؟ وأطرح سؤالاً آخر يوضـــح سؤالي السابق.. هل الوأد يكون بإزهاق الروح فقط؟ وماذا عن إزهاق العقل والشخصية؟ أليس مساوياً لإزهاق الروح؟ ماذا عن سلب إنسانية الإنسان، ماذا عن إهدار كرامته؟ ماذا بقي من إنسان نـــزعت عنه إنسانيته وأهدرت كرامته؟ ماذا عن تلقينه المستمر عبر مـــراحله العمرية كلها بأنه أقل شأناً من غيره، أقل مكانة، أقل عقلاً وأقـــل ذكاء. أكثر رعونة وجبناً. والتأكيد عليه بأن كرامته لا تحفظ وعـــزته لا تكون إلا إذا بقي ثابتاً لا يغادر مكانه ولا يتصرف بذاته، بـــل يكـــون في كـــل أمـــره طالباً للإذن والسماح راجياً الموافقة، ومسترشداً بعقل من هو أعلى مقاماً وأذكى عقلاً.

إن التنـــشئة وفـــق مـــا سلف للولد أو البنت لا شك ستخلق شخصية أقل في توازنها وقوتها على أحسن الأحوال، وهذه الشخصية ســـوف تظن الذل رفعة والظلم إنصافاً، شخصية توافق على الإهانة وتستعذب الهوان.

لماذا تدنت مكانة المرأة؟

الشاعر الهندي الكبير (طاغور) يقول: (إن الله حين أراد أن يخلق حواء من آدم لم يخلقها من عظام رجليه حتى لا يدوسها، ولا من عظام رأسه حتى لا تدوسه، وإنما خلقها من أحد أضلاعه لتكون مساوية له قريبة إلى قلبه).

كانت المرأة في مجتمعنا قبل ما يزيد على خمسين عاماً من الآن إنساناً منتجاً. أي أنها وإن كانت مكبّلة بالعادات والتقاليد فإنها تظل أفضل حالاً مما صارت إليه فيما بعد. لقد تحولت إلى كائن يعتمد في حياته كلها على ما يراه ويقره الرجل. ولا تستطيع المرأة تجاوز قرارات "وليها" مهما كانت تعسفية وظالمة. فلماذا هي بهذا الوضع المتدني؟

تلتقي كثير من الثقافات في أساطيرها المختلفة. وتكاد تتشابه في مسألة خلق المرأة من ضلع الرجل. ففي التوراة أن الله أوقع سباتاً على آدم – أي أن آدم نام – فسحب الله ضلعه الأيسر وصنع منه حواء. فلما استيقظ آدم وجد إلى جواره امرأة.

وفي قصة الخلق الهندية، برغم **وثنية الديانات الهندية**، نجد أنَّ الإله تواشترى حينما فكّر في أن يخلق المرأة، وجد أن مواد الخلق قد انتهت كلها أثناء خلق الرجل. ولم يبق لدى هذا الإله من العناصر الصلبة شيء ليصنع منه المرأة فأخذ ضلعاً من الرجل وبدأ يصوغ المرأة ويشكلها على هيئة الإنسان.

أما كتاب الله العزيز فلم يذكر أضلع آدم على الإطلاق. بل

جاء في كثير من الآيات أن الله خلق الزوجين من نفس واحدة. يقول الله تعـــالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء، 1).

كما ويؤكد القرآن الكريم على أن البشر كلهم خلقهم الله من ذات المادة وبذات الكيفية والمراحل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (سورة فاطر، 11).

ولـــو كانت الكيفية التي أشارت إليها الإسرائيليات في قصة الخلـــق صحيحة والتي تقول بأن آدم ينقص ضلع من ضلوعه لأن ذلـــك الضلع صار حواء فكيف لم يتناولها القرآن وهي بكل هذه الأهمية؟

ومعلـــوم أن الـــزوجية دائماً تكون في وجود أنثى وذكر في الأحـــياء التي خلقها الله على الأرض. والزوج من كل شيء يعني وجـــود اثـــنين من الشيء ذاته على ذات القدر من التساوي في خصائصهما.

وكمـــا رفض سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) كثيراً من الـــروايات لأنـــه يـــرى أنها مشوبة بالإسرائيليات حتى وإن كتبها المفسرون في كتبهم، فقد أورد تعليقاً في كتابه في سياق تفسير سورة الأعـــراف عـــن مسألة خلق آدم وحواء رفض فيه قبول القول بخلق حواء من ضلع آدم فقال: (ينظر الله – سبحانه – بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة – إلى آدم وزوجه.. وهنا فقط نعرف أن له زوجاً مـــن جنـــسه، لا ندري كيف جاءت. فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد علـــيها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من

جنسه، فصارا زوجين اثنين; والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الـــزوجية): ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.. فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة.

لـــدى الإنسان على مرّ الأزمنة فضول شديد في معرفة أصل الخلـــق وبداياته وكيفيته. لهذا دارت حول مسألة الخلق الأساطير وفق ما يتخيله العقل البدائي للإنسان في الماضي وقبل أن يرسل الله محمـــد صـــلى الله عليه وسلم هادياً للبشرية. وعندما جاء القرآن الكريم أعطى الإجابة العميقة التي تجعل الفرد البسيط يفهم معناها. وأيضاً تجعل العلم في عصرنا الحاضر يدرك مدلولاتها فتتفتح الآفاق العلمـــية للـــبحث في مجـــالات أصل الإنسان وتاريخه(1) وتكون الأساطير خارج دوائر البحث العلمي المجرد. وهذا في حدّ ذاته هو الإعجـــاز الذي تميز به القرآن الكريم. فقد فسره الأقدمون حسب معـــارفهم البسيطة قبل أن تصل العلوم الحديثة إلى ما وصلت إليه. والآن يفـــسره العلماء فيجدون فيه دلالات وإشارات إلى أمور لم تخطر على بال المفسرين الأوائل لأن المعارف لم تكن قد بلغت ما بلغته اليوم.

وإذا كانـــت الـــثقافات القديمة حتى الوثنية منها قد تداخلت أســـاطيرها وبرزت قصة الخلق بين تلك الأساطير لتقول بأن حواء مـــن ضـــلع آدم، فإن بعضهم رأى أن يستدل بهذا القول لتحسين مكانـــة المـــرأة ولو بشكل بسيط. أي أن يستغل القصة ذاتها والتي وردت للتقلـــيل من شأن المرأة والحطّ من قدرها فيجعل في معناها شيء يدل على إعلاء مكانة المرأة.

---

(1) يمكن قراءة الفصول الخاصة بنشأة الإنسان وتطوره وعدم تعارض ذلك مع نص القرآن الكريم "وليس مع التفاسير" في كتاب الدكتور محمد شحرور (الكتاب والقرآن).

وطاغــور من أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا من هذا القول وســيلة للدفاع عنها والرفع من شأنها. بعكس آخرين رأوا أنه دلالة على اعوجاجها واستحالة إصلاحها. وكذلك كان الشيخ محيــي الدين بن عربي مع الذين أجادوا تأويل سبب كون المرأة مــن ضلع الرجل – في عدد من الثقافات المختلفة – وأشاد بها فقــال في الفــتوحات المكية – (أنَّ الله خلق آدم على صورته ونفــخ فــيه من روحه فأعطاه صورة الكمال، فجعله كاملاً جامعــاً. ولبقاء النوع في الدار الدنيا، سبق في علم الحق إيجاد الــتوالد والتناسل. فاستخرج من ضلع آدم حواء، وكانت من الــضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو على ولدها وزوجها. فكــان بخــروج المرأة منه نقص في الزوج، وكماله لا يتم إلا بعودة ما فقده. أي المرأة التي هي منه وعلى صورته، تماماً كما كــان آدم مــنه وعلــى صورته. وعمَّر الله موضع خروجها بالاشــتياق إلــيها، فحنَّ إليها حنينه إلى نفسه لأنَّها جزء منه، وحــنَّت إلــيه لأنَّه موطنها الذي صدرت عنه). وليس بغريب علــى ابــن العربي هذا الموقف الداعم للمرأة فقد خصص في الفتوحات المكية أيضاً باباً بعنوان (في إمامة المرأة) وقد كان مع من قالوا بجواز إمامتها للرجل في الصلاة.

وبرغم هذا التبرير الجميل أرى أنه يبقى تبريراً. أي أنها مجرد محاولــة لتحسين الوضع المزري من هكذا قول عن المرأة. وعلينا كمــسلمين أن نــستند إلى القــرآن الكريم في مسألة الخلق التي وضــحها في عــدة مواضع. ولو كانت المرأة من أحد الضلوع لذكرت الآيات الكريمة ذلك صراحة وبكل وضوح ضمن النص القــرآني. إذ من المستحيل في عقل كل مسلم أن تتناول الآيات القرآنية مسألة الخلق بكيفية غير الكيفية التي حدثت بها فعلاً.

ونلاحـــظ منذ بدايات انتقال الإنسان إلى العصر الصناعي وإلى يومـــنا الحاضر أن الرجل إنسان له ذات مستقلة وأنه قائم بذاته على شؤونه. أما المرأة فلا زالت موضوعاً يتطلب البحث والمعالجة في بقع كثيرة من العالم. وفي مجتمعنا بشكل خاص لا زال أمرها يتطلب سنّ الأنظمـــة والفتاوى الشرعية الخاصة. والتأكد دائماً من سيرها وفق تلك الأنظمة والفتاوى.

وإذا كانـــت المرأة قد تجاوزت في الدول المتقدمة هذه الدونية وقطعت شوطاً في مجال الاعتراف بها كإنسانة كاملة الأهلية فإنها في الشرق لا تزال ذات مكانة أدنى من مكانة الرجل بكثير. إنها في نظر الكثيرين وفي نظر نفسها (فريسة) يسهل الإيقاع بها، يسهل استدراجها إلى الخطيـــئة لـــذا يخافـــون أن تنـــزلق خلف من يغريها بأي شيء، ويقومون بالكثير من الجهد من أجل الحفاظ عليها. هكذا يراها الخائفون عليها أو منها، لا فرق. وعلى هذا الأساس يتعاملون معها.

ولا يخفى على من يقرأ كتب التاريخ تحديداً أن اليهود هم من ضمن الذين صدّروا لجزيرة العرب احتقار المرأة والنظر إليها على أنها أسّ كل بلاء في هذا الكون إذ ساهمت الديانة اليهودية بدور مهم في تراجع مكانة المرأة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً منذ أزمنة بعيدة بعد أن كانـــت ذات سيادة ومكانة عالية تفوق سيادة الرجل. وأوصلتها ســـيادتها تلك في المجتمعات الموغلة في القدم إلى أن **صارت إلهةً تُعبد** عند أمم سبقت اليهودية.

لم تكن عشتار أو إفروديت أو فينوس وإيزيس أو حتى الأصنام التي عند الكعبة مثل **اللات والعزى ومناة** لم تكون سوى أسماء نساء عـــبدها الـــناس في الماضي السحيق ثم نحتوا لهن تماثيل ليستمروا في تقديسهن من خلال تلك التماثيل.

يقول وول ديورنت في قصة الحضارة (وليست أهمية عشتار لدينا

مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين، وعلى أنها النموذج الذي صـــاغ اليونان على مثاله آلهتهم أفرديتي والرومان فينوس، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية، فقد كانت هي دمتر وأفرتيتي معاً – أي أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب وحسب، بـــل كانـــت فوق هذه الإلهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة الولود، والموحـــية الخفـــية بخـــصب الأرض، والعنصر الخلاب في كل مكان، ويستحيل علينا، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظار هذه الأيام، أن نجد بينها كثيراً من التناسق؛ فقد كانت مثلاً إلهة الحرب والحب)[1].

ويرى بعض المفسرين أن اللات والعزى ومناة هي أسماء رجال وليـــست من أسماء النساء اللواتي عبدهن العرب كدليل على تأثرهم بثقافات من حولهم من الأمم. متجاهلين أسماء المعبودات في الثقافات الأخـــرى الموجـــودة شمال الجزيرة العربية كالإغريق والرومان ومن قبلهم الكنعانيين. معتمدين في قولهم بذكورية تلك الآلهة على ما كان علـــى أرض الواقع في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام الذي بدأ فـــيه تفسير القرآن الكريم من انحطاط لقدر المرأة وسيادة الرجل. أي أن القـــول بذكورية اللات والعزى ومناة مخالفاً لما تقدمه الميثولوجيا الإغريقية والكنعانية من قبلها.

ويعـــود تاريخ تأليه النساء عند الإنسان البدائي إلى ما في العهد الأمومـــي من مكانة للمرأة تطورت عبر الزمن لتصل حد التقديس والعبادة[2]. ونعلم جميعنا أن الإنسان في أزمنة سحيقة عبد آلةً كثيرة

(1) قصة الحضارة، التراث الشرقي، الشرق الأدنى، بابل، آلهة بابل.

(2) لست بصدد الكتابة بشكل مفصل في التاريخ، ولا بصدد دراسة المتغيرات في أدوار الرجال والنساء. أنا فقط أشير إلى بعض الملامح التي كانت في المجتمعات القديمة وأثرت بشكل كبير في ثقافتنا المتعصبة ضد المرأة والتي ترى أن التمييز العنصري ضدها يعد أمراً طبيعياً. بل يرون أنه هو الأصل وما سواه دخيل على المجتمع الإسلامي.

منها الأشجار والأنهار والنار والأصنام التي كان هو يصنعها ليعبدها وعبد قوى الطبيعة، والشمس وعدد من الكواكب والنجوم كما عبد الفأر والبقرة.

ولا تزال عبادة البقرة وعبادة الفئران موجودة إلى الآن في الهند. وللفأر معابد خاصة مبنية على طراز حديث تجري الفئران على أرض المعبد الرخامية ويقدم لها عبّادها الطعام والشراب وينظفون المعبد بكل تقديس واحترام. وإذا دخلوا معبدهم خلعوا أحذيتهم احتراماً وتقديساً.

ويقول الباحثون في هذا المجال إن الإنسان في الماضي كان يخاف من قوى الطبيعة ولا يدرك لها تفسيراً. ففي الأرض تحدث الزلازل والبراكين أو يشتعل حريق في الغابات بسبب البرق أو تفيض الأنهار أو يخاف الناس من حيوان مفترس يهاجمهم وغيرها من الأحداث التي يمر بها الإنسان البدائي ولا يدري كيف يقاومها ولا يدرك أسبابها فيحاول أن يستعطفها لعلها ترضى عنه ويتجه إلى تقديم القرابين لها لعلها تهدأ. ومع الزمن يتحول هذا الاسترضاء إلى تقديس وعبادة. وبمرور الوقت وتعاقب الأجيال تلو الأجيال ينسى أن سبب عبادته لها هو الرغبة في استرضائها بسبب ما كان يحدث. ويتوارث الإنسان ما كان أجداده يفعلون تجاه معبوداتهم وأوثانهم فيعتنق ما يعتنقون بإخلاص شديد ويدافع عن فكرهم بكل ما أوتي من قوة وهذا ما يجعل تركهم للوثنية واتباع الأنبياء والرسل يأخذ وقتاً وجهداً من كل رسول.

وأغرب ما قد يتساءل عنه الإنسان هو عبادة الفأر التي لا تزال قائمة حتى اليوم وإن كانت بشكل محدود جداً. وكيف يمكن لأي عاقل أن يقدس فأراً ويبني له معبداً فخماً يمتلئ بالفئران، ويقدم لها الطعام والشراب وينظف المكان الذي هي فيه. السبب في حدوث

هذا النوع الغريب من العبادات هو أن الفئران هاجمت مزارعهم فيما مضى من الزمان وجعلتهم يخسرون المحصول الذي يعتمدون عليه في حياهم و لم يكن لديهم وسيلة لمقاومة الفئران التي دمرت تلك المزارع لهــذا توســلوا إلــيها لتتــرك لهم ما تنتجه أراضيهم التي تعبوا في استصلاحها وزراعتها وهذا التوسل والتضرع يصبح مع الوقت عبادة والعبادة تتطلب وجود معابد، وهكذا تنتقل هذه الموروثات من جيل إلى جيل إلى أن يمر الزمان فلا يعلم الناس لماذا قدّس أجدادهم شيئاً ما وعبدوه لكن المقدس – مهما كان حقيراً وتافهاً – يبقى مقدساً عند الناس. والمقدس لا يؤكل لحمه. فيبقى مقدساً. وقد يذهب التقديس ويبقــى التحــريم. ودون أن يــسأل الإنسان أو يبحث يظل مؤمناً بمقدساته أو بما حُرِّم عليه.

الأشياء المقدسة لا تخضع للعقل والمنطق. بل يتعلق بها أصحابها بإيمــان كامل يصعب على الآخرين زعزعته حتى وإن بدا غير مقبولٍ لــدى من استخدم عقله وذات المعنى يصلح لأي تعصب وانغلاق في كــل شيء. إذ إن الإصلاح أصعب ما يكون مع من ظنّ نفسه بلا خلل ولا خطأ.

ولأن الإنــسان مــرّ في تاريخه بعصور أربعة هي عصر الصيد وعــصر الرعــي ثم العصر الزراعي ثم الصناعي. فقد كان في بدائيته القديمة يصيد ويأكل ما يصطاد في الغابات. وعندما انتقل إلى العصر الزراعي كانت المرأة هي التي ابتكرت الزراعة في تلك الأزمنة البعيدة جداً. إذ رأت أنه بدلاً من أن تذهب بعيداً عن كهفها وصغارها لتأتي ببعض الثمار للطعام، وضعت بعض البذور في الأرض ورواها المطر. وتوالت الخبرة في هذا الجانب إلى أن تحول الناس إلى الزراعة كمصدر مــن مــصادر رزقهــم. وهي التي استأنست الحيوانات المنــزلية ثم استفادت من لبن تلك الحيوانات لكي ترضع أطفالها وهذا يساعدها

في إشباع الصغار ويخفف عنها عناء إرضاعهم. ولأن الأم هي مركز العائلة في العصر الأمومي إذ إن الأبناء يعيشون في كنف أمهاتهم وليس في كنف آبائهم صارت المرأة في عين الرجل تشبه الأرض التي تنبت الزرع وذلك بأن تنجب الأطفال وترعاهم. لقد أعجب الرجل بالمرأة لقدرتها على ما لا يقدر هو عليه، وهي القدرة على الحمل والولادة. وأذهلت المرأة الرجل لأن الجنين يتكون داخلها ثم يخرج منها منها ولهذا عمد إلى تقديس المرأة ثم تأليهها.

ولأن الناس تنتقي آلهتها حسب ما يحدث لها من مواقف عبر السنين أو حسب ما تستنتجه أو تفسره عقولهم البسيطة فإن الله عزّ وجل كان يرسل الرسل والأنبياء ليتم تصحيح ما هم عليه من شرك ولتعليمهم التوحيد. وقد أخبرنا الله في كتابه العزيز عن بعض أؤلئك الرسل وليس كلهم. ومن هنا نجد أن اليهود قوم عرفوا توحيد الله عبر الرسل الذين أرسلهم الله إليهم. ولهذا رفضوا عبادة غير الله بعد أن كانت المرأة من ضمن ما كان يُعبد قبل اليهودية وفي بداياتها أيضاً. ثم بالغوا في الرفض لها إلى أن جعلوها بعد ذلك في مرتبة دون الرجل بمسافات. إذ لم تر الديانة اليهودية – فيما بعد[1] – في المرأة غير أداة للإنجاب والمتعة الجسدية، فترتب على ذلك تجريدها من حقوقها الإنسانية والاجتماعية. ولا زالت بقايا هذا التجريد مستمرة حتى يومنا هذا ضمن كتبهم المقدسة وإن كانوا لا يعملون بها. ومن يعود إلى الدراسات التي عن الكتب اليهودية بدءاً من التوراة إلى التلمود والأسفار وتعاليم حاخاماتهم، سيجد ما لا حصر له من

---

(1) لا تعلو أو تهبط مكانة المرأة في مجتمع ما فجأة، ولا بقرار محدد. لكن التغيير يحدث عبر الزمان وبسبب عوامل عديدة تتداخل فيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والحروب والفهم الخاطئ للأديان وما كتبته هنا بهذا الشأن مختصر جداً لكي لا أذهب بالموضوع إلى عمق التاريخ.

التشريعات ضمن نصوصهم التي تحط من قدر المرأة وتدني مكانتها، ويقابلـــها في ذات النصوص اليهودية مبالغة في تقديس الرجل وإعلاء شأنه. فالمرأة عندهم مخلوقة من ضلع أعوج وليست إلا لخدمة الرجل فقـــط وهي نجسة. كما إنها شيء يملكه الرجل ويمكن أن يشتريه أو يبـــيعه متى شاء وفق حاجاته الجنسية أو الاقتصادية. وعدا ذلك فلا دور للمـــرأة، ومن هنا نرى أن المرأة في مجتمعات مختلفة شيء يحافظ عليه الرجل ويحميه لأنها من ممتلكاته. ولا شك أدرك اليهود في العالم كله الآن فداحة ما فعله أجدادهم القدماء في تلك التشريعات فتخلوا عـــن أفكارهم التي ضد النساء وانشغلوا بالتنمية الحقيقة للإنسان في مختلف جوانب حياته. وهذا ما يجعلهم قادرين على كسب الجولات تلو الجولات في مجالات وفي بقاع كثيرة من أرض الله ليست ضمن موضوعنا الآن.

أما الإغريق فبرغم كل علومهم التي وصلوا إليها في تلك الأيام وحضارتهم وفلاسفتهم ظل التعليم محرماً على المرأة وظلت المرأة تابعة للـــرجل. وعندما حاول أفلاطون أن يساوي بين الرجال والنساء في مجال التعليم رفض المفكرون والفلاسفة. وقد عُرف أرسطو باحتقاره للمرأة ونظرته الدونية لها.

ومعلوم أن غطاء الوجه كان واجباً دينياً عند الإغريق. والنساء في بلاد الشام كلها كن ممنوعات من كشف الوجه قبل الإسلام لأن تلك البلاد لم تكن عربية قبل فتحها وكانت خاضعة لحكم الإغريق.

كـــذلك فـــإن الديانات الفارسية القديمة، الزرادشتية والمانوية والمـــزدكية اعتبرت المرأة كائناً نجساً، فأوجبوا عليها وضع حجاب يغطي وجهها ليفصل بينها وبين النار المقدسة لئلا تدنس أنفاسها هذه الـــنار. أي أن غطاء وجه المرأة في الماضي وحسب الديانات الوثنية كـــان واجباً دينياً على النساء. والآشوريون كانوا من أقدم الشعوب

الدينية التي أخضعت النساء للحجاب. كما وتضمنت شريعة حمورابي بنوداً عديدة تخص النساء ومنها أن المرأة كانت تتبع زوجها من دون أي اســـتقلال حتى أن الزوجة إن لم تطع زوجها في أي أمر أمرها به يمكـــن للزوج أن يخرجها من بيته أو يتزوج عليها. إذاً طاعة الزوج وتـــسيده علـــى المرأة في عصرنا الحاضر ليست إلا امتداد لتشريعات حمورابي[1].

ولا ننـــسى أن المـــرأة في الثقافات الهندية القديمة أيضاً شيء يملكـــه الرجل إلى الحدّ الذي يجعلهم يدفنونها معه حية لكي تخدمه إذا عاد إلى الحياة من جديد. إلى هذا الحدّ صار وضع النساء. وأد هـــنا وهـــي صغيرة ووأد هناك وهي متزوجة. الفرق أنهم في الهند أبقـــوها حية فقط لتخدم الرجل فلما مات وجب عليها أن تموت أيضاً. بمعنى أن روحها له. روحها ملكه هو، وقد مات لذا فسوف تدفن معه.

جـــاء الرســـل بتعالـــيم من عند الله تعالى ليصححوا للناس عقائدهم وليخبروهم أن الله هو الإله الواحد الأحد، ومن خلال ما جـــاء بـــه الأنبـــياء عليهم السلام. عرف الناس أن الله هو المعبود وليـــست المـــرأة أو أي شيء آخر. ولكي يتمكن اليهود من إلغاء فكـــرة تأليه المرأة إذ إن في تراثهم هم أيضاً بقايا من تقديس النساء ومـــن بينهن الإلهة "إيستر" والتي أفردوا لها سفراً خاصاً هو السفر الـــسابع عشر من أسفار التوراة. انطلقوا في التقليل من شأن المرأة فـــيما بعـــد للتأكـــيد على عدم عبادتها. يضاف إلى هذا كثير من الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتداخلة التي قلبت الموقف رأساً

---

(1) وول ديورنت – قصة الحضارة – التراث الشرقي – الشرق الأدنى – بابل – أخلاق البابليين.

على عقب. ويتدرج الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن تمّ تحقيرها واستبعادها من مجمل شؤون الحياة وهذا لم يحدث فجأة بل ضمن مراحل طويلة يمــر فـــيها الإنسان بدول وحضارات تتطور وتنهار وتظهر خلالها فلسفات وأفكار مختلفة.

إذاً فهـــذا الانحطـــاط في مكانة المرأة سببه ما كانت عليه المرأة نفـــسها من مكانة في العهد المسمى بالحقبة الأمومية. وتلقف سكان جزيـــرة العرب الثقافات المختلفة ومنها الثقافة اليهودية التي سيطرت على العقول حتى يومنا هذا. فتغلغلت الإسرائيليات في الثقافة العربية وســبب ذلك هو تناسبها مع الثقافة الجاهلية في جزيرة العرب والتي تتـــناقض في تعاملـــها مع المرأة. ففي حين توأد المرأة الجاهلية وتسبى ويـــرثها الـــرجل كما يرث أي متاع فإنها أيضاً تنظم الشعر وتسافر وتتحرك وحدها وتتصرف بكثير من الحرية.

انتشرت الثقافة المعادية للمرأة وتوغلت في ذهنية الرجل والمرأة معاً عبر العصور جيلاً بعد جيل. وزاد الأمر سوءاً ما كان يحدث من غـــزوات تـــسبى فيها المرأة وتكون جارية في القبيلة التي انتصرت في الغزو. وهذا ما يجعل الرجل الذي تُسبى ابنته أو زوجته يشعر بالمهانة والذل ويفضل أن يتخلص منها بالموت قبل أن يتم اختطافها وجعلها جارية في قبيلة أخرى.

ثم ظهـــر الإســـلام ليقاوم كل ذلك الاضطهاد الذي تعاني منه النساء ويرفض قهر المرأة تحت أي مسمى. فشرّع قوانين جديدة تلغي طـــرائق الـــزواج التي اعتاد عليها الناس في جاهليتهم والتي لا مجال لحصرها الآن. وأوقف وأد الصغيرات وابتدع الإرث للنساء فقد كنّ بـــلا ميراث. وأفسح المجال لمحاورتهن والأخذ برأيهن وبقولهن حتى في أمـــور الدين إذ إن عائشة رضي الله عنها تخبر الناس بما يقره الرسول صـــلى الله عليه وسلم وما يفعله وتروي عنه هي وغيرها من أمهات

المؤمنين والصحابيات رضوان الله عليهن جميعاً. ولأن الرسول الكريم ليس نبياً وحسب، بل كان إمام الأمة وقائدها الروحي العسكري الأعلى فقد كان هو المقصود عند حدوث أي موقف. لهذا فإن من تطالب بحقها تراجعه صلى الله عليه وسلم. لذا طالت النساء بحقوقهن وراجعنه صلى الله عليه وسلم وتساءلن أمامه عن كل شيء. وها هي أم سلمة رضي الله عنها تسأل رسول الله بكل ثقة وجرأة، دون أن يملأها الخوف أو التردد، سؤالاً غير اعتيادي إذ إن سؤالها يتصل برسالة محمد وربّ محمد والكتاب الذي نزل على محمد. ولم تكون له صلى الله عليه وسلم ردة فعل غاضبة أو حتى معاتبة. لقد جاءته رضي الله عنها وقالت: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَات وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَات وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَات وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَات وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَات وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَات وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَات وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، 35).

بهذه البساطة والتلقائية تطلع أم سلمة رسول الله على ما تراه حقاً لها ولبنات جنسها فيستجيب لها الله وتنزل الآيات التي تعد بمغفرة وأجراً عظيماً من الله للرجال والنساء بالتساوي كل حسب عمله وليس حسب جنسه.

ولنتخيل أن امرأة الآن طالبت بأي حقٍ من حقوقها الحياتية، ولنقارن ردود فعل القوم مع ردة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. مع استحالة المقارنة، لأن أم سلمة رضي الله عنها كانت تطالب بالمساواة مع الرجال في ذكر القرآن للمسلمين نساء ورجالاً. مع يقينها كناطقة بالعربية التي نزل بها القرآن أن اللغة في خطابها

للذكــور تــشمل المــؤنث والمذكر. وفي خطابها للإناث لا تشمل الذكــور. إلا في حال ذكر "الرجال" وغيرها من الألفاظ الدالة على تخــصيص الذكــر بأمر معين. فمثلاً في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (سورة النساء، 103). الآية تشير لفظاً إلى المؤمنين وليس إلى المؤمنات، ولا يعني هذا أن تسقط الصلاة عن المؤمنات برغم عدم ذكرهن في النص.

ومثال آخر: إذا دخل شخص على نساء ورجال وقال: السلام عليكم جاز للنساء والرجال أن يقولوا: وعليك السلام. أما لو دخل علــى الــرجال والنساء وهم معاً وقال: السلام عليكن لوجب على الرجال الصمت ولوجب على النساء فقط الردّ عليه.

وعلى هذا الأساس تفهم التكاليف في كتاب الله. وعلى هذا الأســاس لا تسقط الصلاة ولا الزكاة ولا صوم رمضان ولا الحج عن النساء. وبما أنها لا تسقط عن النساء برغم الخطاب الذكوري في اللغــة فإن هذا يقودنا إلى رفض الانتقاء ورفض توزيع الأدوار الــتي جــاءت حسب العادات وليست حسب خطاب القرآن لمن آمن به.

وهــذا مــثال آخر. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النــساء، 10). لنفــرض أن امرأة أكلت مال يتيم بطريقة ما، فهل يــشملها التهديد في الآية والذي نصّ على أن الذين يأكلون أموال اليتامــى سيصلون سعيراً؟ أم أنها ستنجو من العقاب على اعتبار أن الــنص لم يقــل اللواتي يأكلن مال اليتيم بل قال الذين يأكلون مال اليتيم؟

المرأة كالرجل في خطاب القرآن للمسلمين عامة. ومع ذلك أم سلمة تطلب تخصيص بعض الآيات للنساء.

عاد الناس إلى جاهليتهم وظلت بقايا النظرة الدونية متوارثة عبر الأجيال إلى يومنا هذا برغم التدين الشديد الظاهر على المجتمع. لكنه تدين انتقائي يختار المجتمع فيه من الدين ما يراه مناسباً لأهوائه ويُغفِل تطبيق ما يلزمه بما لا يريد الالتزام به. أو يقومون بتأويل آيات الله حسب ما يرونه مناسباً لهم لا كما يتناسب وعدل الله وسماحة الدين ويسره. وظل الناس حتى يومنا هذا يستميتون في الدفاع عن عادات مقيتة قاومها الإسلام وأدخلتها الديانات الوثنية التي كانت قبل الإسلام في بلاد فارس والرومان وكذلك الديانة اليهودية المحرفة.

اجترار التراث[1]

لا تدع إلى القوة التي تساند السود أو البيض ولكن ادع إلى قوة العقل.

كتب النعمان بن أبي الثناء كتاباً بعنوان – الإصابة في منع النساء من الكتابة – وقال فيه: (أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئاً أضر منه بهن فإنهن لما كنّ مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل نشر الفساد، وأما فأول ما تقدر المرأة على تأليف بها فإنه يكون رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمر وبيتاً من الشعر إلى عزب وشيئاً آخر إلى رجل آخر فمثل النساء والكتب والكتابة كمثل شرير سفيه تهدي إليه سيفاً أو سكير تعطيه زجاجة خمر فاللبيب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى فهو أصلح لهن وأنفع)[2].

هذا الرجل يرى أن النساء مجبولات على الغدر وهذا يعني أن الغدر ضمن تكوينهن الذي خلقهن الله به، فكما أن للإنسان رأس وعينان وفم ولديه مشاعر معينة منها الحب والخوف فإن المرأة تزيد على الرجل بما لديها من طبيعة الغدر التي لا تفارقها مهما كانت تربيتها أو ثقافتها أو دينها، لأنها جبلت على ذلك. ولهذا فالكاتب

(1) التراث هو الجانب الفكري من أفهام العلماء والفقهاء والمفسرين والكتاب المحدثين والقدماء وشروحهم للنصوص الشرعية. أما ما بين دفتي المصحف فهو كتاب الله الكريم الموحى من عند الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

(2) المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغذامي، ص 111.

يـــرى أن تعلـــيمها القراءة والكتابة لن يعود عليها بنفع إذ إنها فقط سوف تخون زوجها بكتابة الرسائل لرجالٍ آخرين.

والـــنعمان بـــن الثناء ليس غريباً فيما ذهب إليه من منع تعليم المـــرأة، إذ لم يكـــن تعليمها أمراً مستحباً ولا ضرورياً. وقد يكون ممنوعاً في بعض الأوقات.

وكلنا يعلم عن الرفض والمقاومة التي كانت ضد تعليم المرأة في بدايات الدولة السعودية إذ إن تعليم المرأة دخل بقرار الحكومة دون رضـــا كـــثير من الرجال الذين مانعوا تعاليمها ككل شيء يأتي في بداياته إلى الناس.

نعود إلى كاتب النص السابق إذ إنه ليس هو الوحيد الذي رأى في النـــساء هذا الرأي بل هناك من جرّدها تماماً من إنسانيتها ورآها مخلـــوقة من أجل إشباع رغبات الزوج الجنسية فقط وما عدا ذلك ليـــست شـــيء[1]، ولم تخلـــق في الأرض كإنسانة مكلفة بعمارتها، وحاملـــة للأمانـــة التي حملها الرجل، إنها فقط لمتعته. ولننظر ماذا في كـــثير من كتب الفقه. ومنها هذا النص عن الرجل الميت: (فإن لم يكـــن له - أي للميت - مال فكفنه ومؤونة تجهيزه على من تلزمه نفقـــته؛ لأن ذلك يلزمه حال الحياة فكذا بعد الموت، **إلا الزوج لا يلـــزمه كفـــن امرأته ولو غنياً لأن الكسوة وجبت عليه بالزوجية والتمكن من الاستمتاع وقد انقطع ذلك بالموت)**[2].

وفق ما ورد في النص السابق ليس على الرجل أن يشتري كفن زوجته إذا ماتت حتى لو كان غنياً. لماذا؟ لأنه كان يشتري لها الثياب

---

(1) لا زالت هذه النظرة موجودة حتى الآن في المجتمع ويدلل عليها ما يقول به البعض عن بيت المرأة وضرورة ملازمتها له وخدمتها لزوجها وبيتها.

(2) الروض المربع للشيخ منصور البهوتي، ص 115.

والطعـــام أثناء حياتها مقابل أن يستمتع بها، أما إذا ماتت فلن يتمكن من ممارسة الجنس معها لهذا ليس عليه دفع قيمة الكفن. أي.. كيف يدفع ثمن شيء لن يعود عليه بفائدة حتى وإن كان هذا الشيء كفن لزوجته. فأي إنسانية لديه ولدى من مثله؟ هل قال الإسلام بهذا؟ أم أنـــه رأيٌ لبشر. مجرد بشر يخطئ ويصيب. وماذا عن باقي الأخطاء الـــتي عمّت المجتمع ولبست لباس الدين؟ حسب رؤية الكاتب، ليس بـــين الـــزوجة وزوجها حب أو مودة ورحمة، ليست شريكة حياة، ليست شيء على الإطلاق. إنها لمتعته فقط، يحتاج منها جسدها تماماً كمـــا يحتاج السرير للنوم والكرسي للجلوس. أما مشاعر السرير أو الكرســـي فلم يفكر بها لأنه لا يقر بوجودها أصلاً، والمرأة كذلك. فإذا لم يعد قادراً على الاستمتاع بجسدها بسبب موتها فلماذا يصرف درهمـــاً لا يعود عليه بمتعة؟ ويُفهم من هذا أن استمتاعه بها لا يقابله استمتاعها به فليس لها حق فيه، وكيف يكون لها حق وهي لا شيء؟ إنه يدفع لها ثمن الطعام والشراب والكسوة وهي حية لأنه يريد بقاءها ليعاشرها في الفراش. وهذا يعني أمرين: الأول هو أن علاقته الجسدية بها هي كل ما يربطه بها. والثاني هو أن علاقته الجسدية بها قائمة من طرفه هو دون أي اعتبار لرغبتها أو عدم رغبتها، أي حسب شهواته فقط. أما وقد ماتت فليس عليه ثمن كفنها.

كـــنت قد سمعت بعض النسوة يتندرن بهذه القصة إذ يقال (أن رجلاً ماتت زوجته فكان يمشي في جنازتها ويبكي بكاءً شديداً جعل من حوله يحزنون عليه فقال له أحدهم: توقف يا صديقي عن البكاء وغـــداً بإذن الله سنذهب سوياً ونخطب لك ابنة فلان الفلاني فبكى الرجل من جديد وقال: وماذا أفعل الليلة.. هذه الليلة).

أقـــول كنت أسمع النساء يروين هذه القصة فأراها مبالغة تظلم الـــرجل و لم أتصور أن هناك من لا يتأثر بخبر الموت حتى وإن كان

الميت غريباً عنه فكيف بمن مات من أهل الدار. وعندما فتشت أنواعاً من الكتب وجدت نصوصاً نقلت لكم منها ما أستدل به على نظرة البعض للمرأة ومكانتها عندهم. وتلك الكتب شاهد على مكانتها في المجتمع الذي لا زال يطبعها ويدرسها بل ويتناولها بكثير من الاحترام والتبجيل. هذا الرأي في الكتاب لم يستلهمه المؤلف من المريخ أو من سكان كواكب خارج مجموعتنا الشمسية. لقد تربّى وتعلم ضمن التراث العربي الذي وضع المرأة دون الرجل ورحّب بمثل هذه الأقاويل حولها.

ما الذي جعل الدين في عقول البعض يصبح بهذه الصورة؟ والمفاهيم التي يقال إنها تمثل الإسلام كيف تمّ تحريفها لتخرج بعض الكتب وتصور لنا علاقة الرجل بزوجته علاقة جسد فقط؟ جسد ولا غير. وهل يطيق الأسوياء من الرجال هذه العلاقة؟ هل يستطيع الرجل الطبيعي السوي نفسياً أن يكون مع زوجته وتكون هي معه قالباً بلا قلب. يراها حين يريد إفراغ شهواته ثم لا يأبه بما تشعر به حينها؟ ولا يكون بينهما أي شيء آخر إلا ما يأمرها به لخدمته؟ لا شك أن هذا لا ينطبق على الرجال ولكن ينطبق على الشواذ منهم أما ذوو الطبائع السوية فنفوسهم تسمو بهم عن هذه البهيمية. إن التعامل الكريم واللباقة واللطف صفات يتوجب على المسلم التعامل بها مع كل الناس.. كلهم.. فما بالنا برفيقة الدرب!

وقد نظلم الحيوان إذا ألصقنا هذا التصرف بالبهائم، إذ إن الطيور وبعض الحيوانات لا ترى العلاقة بين الذكر والأنثى كما يراها صاحب الكتاب السابق ومؤيدوه لأن العلاقة تقوم على رغبة مشتركة بين الطرفين، وهناك أنواع من الطيور إذا مات شريكها تبقى وفيّة له ولا ترتبط بغيره حتى تلحق به وتموت، فهل يعقل أن تتفوق المخلوقات التي سخرها الله للإنسان في حسها الإنساني على

بعـــض بني البشر؟ إن تفضيل الله للإنسان على كثير من خلقه يعني عـــدم انحداره إلى المستوى البهيمي الذي يصل إليه بعضهم في تعامله مـــع النـــساء، متجرداً من الأخلاق والقيم الإنسانية ناهيك عن قيم الدين الحنيف الذي جاء رسوله ليتمم مكارم الأخلاق.

فـــإذا تابعـــنا القراءة وجدنا هذا النص الذي يمثل رأياً فقهياً في علاقـــة الـــرجل بزوجته يقول (وله منعها – أي منع زوجته – من الخـــروج من منـــزله ولو لزيارة أبويها أو عيادتهما أو حضور جنازة أحدهما)[1].

مـــثل هـــذه النـــصوص توضح عقلية المجتمع الذي كان فيه الكاتـــب، وكـــيف ينظر ذلك المجتمع للمرأة. فالزوج رجل ولهذا صـــارت له كل هذه الحقوق التي حولته إلى سجان وحولت المرأة إلى أســـيرة يمـــرض أحد أبويها أو كلاهما فلا تخرج من بيتها. بل يموت أي قريب لها حتى وإن كان أحد الأبوين فلا تخرج أيضاً إلا إذا وافق زوجها.

أمـــا الطـــلاق فتزخر كتب الفقه بالحديث عنه وكلها تقر أن للرجل حق تطليق زوجته متى شاء بدون علمها أو بعلمها. لا فرق. بـــل وله حق في توكيل من يطلقها عنه لو كان مسافراً أو غائباً. أما هي فتلعنها الملائكة الليل كله لو نام زوجها وهو غاضب.

مـــا أستغربه كثيراً هو أن الفقهاء اتفقوا على أن عقد الزواج لا يـــصح إلا بموافقة المرأة وأن موافقتها تلك يستدل عليها بصمتها إن كانـــت بكـــراً لأنهـــا ربما ستخجل من الموافقة الصريحة. أما الثيب فتستأمر. أي يطلب أمرها بالزواج، وتُسمع موافقتها بشكل واضح. فـــإذا كان العقد لا يتم إلا بموافقتها فكيف يتم فسخ هذا العقد دون

---

(1) الروض المربع، ص 333.

علمهـــا ودون موافقتها؟ ألا يستحق الأمر بعض التأمل من الفقهاء ورجال الدين؟ كيف تبرم العقود بموافقة طرفين ثم تفسخ دون موافقة أحدهما أو علمه؟ وكيف لا تستطيع تطليق نفسها إن أرادت ورفض الرجل؟ ولا تستطيع تزويج نفسها إلا أن وافق الرجل؟ إنها غير كاملة الأهلية منذ الولادة وحتى الممات.

والجملة التالية لنفس الكاتب في نفس الكتاب ص 377 (ولا يلزم الـــزوج لـــزوجته دواء وأجـــرة طبيب إذا مرضت، لأن ذلك ليس لحاجتها الضرورية المعتادة، وكذلك يلزم ثمن طبيب وحناء وخضاب ونحوه من أراد منها تزيناً أو قطع رائحة كريهة) يعني لا تدفع ثمن أي شيء إلا إذا كان لك ومن أجلك أما من أجل زوجتك فلا. حتى إذا مرضـــت لا تدفـــع ثمن الدواء لكن إذا كنت تريد أن تراها متزينة، حينها فقط يمكنك أن تدفع ثمن الزينة.

هل يمكن لمن يملك الحد الأدنى من إنسانيته أن يقبل بهذا القول. الإسلام يحث على الاعتناء بالجار وهو جار فقط وليس من الأقرباء، وأوصى جبريل عليه السلام رسول الأمة صلى الله عليه وسلم بالجار حـــتى ظنّ الرسول أنه سيكون من ضمن الورثة. إلى هذا الحدّ يربي الدين في قلب المسلم حب الخير للناس وهم أغراب وليسوا من أهل الدار فما بالكم بالزوجة. ودعونا نتصور أن عائشة رضي الله عنها – تلك الحميراء التي يسابقها رسول الله فيسبقها مرة وتسبقه أخرى – تـــصوروا لو أنها مرضت واحتاجت إلى دواء، هل سيتردد من جاء ليـــتمم مكارم الأخلاق في دفع أجرة الطبيب أو ثمن الدواء إن كان مستطيعاً؟

وابن كثير على ما له من مكانة بين المفسرين يحط كثيراً من قدر المـــرأة إذا تـــناول بعض الآيات بالشرح والتفسير. ففي تفسير قوله تعـــالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُـــوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: (السفهاء **هم النساء**

والأطفال)[1]. هكذا فهم الآية. وهكذا فسرها. وهذا يعني أن الرجل حتى وإن كان فاسقاً مقامراً مرابياً مصنّعاً للخمر أو متاجراً به أو شارباً لـــه أو حتى وإن كان لواطاً فاجراً أو مجرماً يشعل الحروب ويقتل الناس فإنه يخرج من دائرة السفهاء. والمرأة حتى وإن كانت صوامة قوامة ودود ولـــود طاهـــرة عفـــيفة. صادقة أمينة حافظة لكتاب الله محافظة على فرائضها. أو كانت متفوقة أو مثقفة أو عالمة فإنها تبقى سفيهة!

وفي كتاب بعنوان "نحو مجتمع أفضل وإعداد جيل مهذب" من تأليف عبد السلام هاشم حافظ والكتاب عبارة عن مقالات للكاتب نـــشرت في عدد من الصحف السعودية قال: (المرأة يجب أن تتعلم ولكـــن في حـــدود.. أجل يجب أن تتعلم في نطاق العلوم التهذيبية المـــستمدة مـــن كتب الدين.. ولا تتجاوزها إلا لتزيد ثقافة عامة.. لتـــصبح أكثر قابلية لمهامها كسيدة مصلحة منتجة في بيت أبويها أو زوجهـــا أو المدرســـة.. مجالاتها المشروعة وميادينها التي منها تتحرك وإلى قـــواعدها تعـــود وإلا فإنها إذا تجاوزتها فإنها تطفر طفرتها ولن يصلح العطار ما أفسدت هي)[2].

وفي ذات الكتاب كتب المؤلف نقلاً عن غيره (التهذيب الديني ضـــروري جداً في مدارس البنات لأنه أقوى ضمان لسعادة الزوجين **وينبغـــي أن يكـــون تعلـــيم المرأة دينياً لا عقلياً** لأن ضعف المرأة وتزعزعها في آرائها وحاجاتها المستمرة إلى سند تستند إليه وشعورها بالحاجة إلى من يساعدها كل ذلك يستلزم تثقيفها ثقافة دينية منظمة) نحو مجتمع أفضل/عبد السلام هاشم حافظ، ص 46.

---

(1) تفسير ابن كثير، الجزء الأول، ص 410.

(2) كتاب نحو مجتمع أفضل، ص26. ونشرت هذه المقالة في جريدة المدينة المنورة في 16 و1377/10/23هـ.

وقد عاد المؤلف ليكرر عبارة (أن يكون تعليمها دينياً لا عقلياً) في ثلاثـــة مواضع من ذات الكتاب على الأقل. والكتاب مليء برؤية الكاتب للمرأة. وهي رؤية تكشف عن واقع النساء في المجتمع ونظرة الرجال لهن.

أعود إلى أول النصوص التي نقلتها هنا. وأقول هو أولاً منشور في صحيفة سعودية يمكن أن تعكس رأي المجتمع في الشأن النسوي في ذلك الوقت.

وثانـــياً: يرى الكاتب أن على القائمين على تأسيس تعليم المرأة أن يكـــون تعليمها دينياً فقط وأن لا تتعلم المرأة علماً عقلياً. وأظنه يرمـــي إلى جعل جميع المواد مواداً دينية فقط بحيث لا تفقه شيئاً في الجغرافيا مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الكيمياء أو اللغة العربية أو الإنجليزية... إلخ. وهذا فيما أعلم كان رأياً سائداً فيما مضى. إذ إن تعليم الفتاة أمور الدين لتعرف كيف تصلي وكيف تستسلم لزوجها في خـــضوع تام وتخدمه في تفان وإخلاص هو كل ما كان يراد من التعليم في بداياته عندما وافقوا على دخوله على مضض.

أمـــا ملاحظتي الثالثة فهي تأكيد الكاتب أن مجالها البيت. وهي إما في بيت أبويها أو زوجها. ولا مجالات أخرى يمكن أن تكون فيها وإلا فإن العطار لن يتمكن من إصلاح ما سوف تفسده بخروجها من أحد المنـــزلين المسموح لها بالعيش فيهما.

نلاحـــظ أخيراً رأيه في المرأة كإنسانة. فهي **مزعزعة** وضعيفة ولديها حاجة مستمرة إلى سند وأي تعليم غير الدين سيؤدي إلى أن تطفـــر طفرتها حسب قوله. ولقد تأملت كثيراً عبارة – تطفر طفرتها – هـــذه. وتابعت قراءة الكتاب فأدركت أن الكاتب يرى أن على الـــرجل أن يحـــد مـــن حركة المرأة ومن تعليمها وإلا فإنها ستفسَد وتُفسِد. أي أنه يرى كغالبية أهل وقته وكثير من رجال هذا الوقت

أن المـــرأة لا أمانة لها وستسارع إلى الخيانة ما لم يقف ببابها حارس يحمـــي عفتها. و لم يتحدث الكاتب عن عفة الرجل وكأن الزنا ليس محرماً على الرجال أيضاً.

ويقـــول في موضـــع آخر من ذات الكتاب في مقال له بعنوان – حطموا أصناف المودة[1] (من أخطر التقاليد الدخيلة في بلادنا تفنن المرأة في الأزيـــاء وأصباغ الجمال وكان طبيعياً أن تركب هذه المرأة المتفرنجة رأســـها وتساير جهالتها إزاء تسامح أولي أمرها. بل إهمالهم وتجاهلهم للواقـــع المـــريب بوجه أصح. كأنما الرجل شيئاً مهملاً. وهذا أصدق وصف لموقفه السلبي هنا. بعد أن غدا يتنازل عن مكانته الخطيرة كقيم وراع ومـــسؤول عـــن رعيـــته... إلى أن يقول في منتصف المقال – وأصـــبحت علبة الزينة تحتوي على أصابع الحمرة والمناكير وزجاجات الروج والماكياج بعد أن كانت مقتصرة على العطور والبودرة والكحل. وهكـــذا اختفـــى الحـــسن واختفت معه نضارة المحيا الطبيعية وأمواج وعقـــائص الـــشعر المسترسل البديع... ويختم مقاله بقوله – يا قوم إن مسؤولية هذا العمل التي تتهدد تقاليدنا ومجتمعنا واقعة على هذا الرجل القيّم على أسرته ولسنا في حاجة إلى إزجاء النصح وتكرار ما هو واضح كالنهار.. ونرجو أن ينتبه أولياء الأمر وأن يوجد الرجل الذي له كلمة في كـــل محيط مع التوعية الإسلامية ليحطم أصنام المودة التي غيرت من طبائع نسائنا وهي تعبث في الهيكل الناعم وحيويته وأوضاعه)[2].

من الواضح أن كاتب النص السابق يحب شعر المرأة مسترسلاً مموجاً. لذا فقد أراد أن تلتزم كل النساء بذات التسريحة التي يحب أن يراها على زوجته أو ابنته. ونشر مقاله هذا خوفاً من تبدل الأحوال

(1) المودة يقصد بها الموضة.. وقد بدأ في تلك الآونة انتشار أدوات الزينة بعد أن كانت النساء لا تجد إلا الكحل والديرمة والقليلات منهن لديها بودرة للخدين.

(2) نحو مجتمع أفضل، عبد السلام هاشم حافظ، ص 75.

وانتشار التسريحات المختلفة. فهل له الحق في فرض ما يحب حتى على أقرب قريباته ناهيك عن أن يطالب بأن يهب الرجال لمقاومة كل ما ذكـــر في مقالته وليست سوى عطور ومساحيق للزينة وأساليب في تمـــشيط الشعر؟ أم هكذا هو حال الرجال، فكلما حدث شيء ولو كان شكلياً وغير ذي قيمة تنادوا وتكتلوا لمنعه قدر استطاعتهم؟ وهل لا زالت النساء تعاني من مثل هذه الدعوات. أجيبكم بـــ نعم. نعم، فكـــل أساليب المنع والقمع في مدارس البنات وكلياتهن جاءت من هذه النظرة ومن هذا التنادي وهذا التصايح من قبل الرجال المتعصبين ضـــد المـــرأة. ولا زال ممنوعاً إلى اليوم في مدارس تعليم البنات قص الـــشعر بطريقة معينة. وكأن طول الشعر وقصره سيجعل من الطالبة طالبةً نجيبة وسيساعد على أن تنمو شخصيتها بشكل سليم.

هل كنا لنتصور أن هناك من يرى أن على الرجال أن يهبوا من أجـــل منع فلانة من قص شعرها أو إطالته؟ ولكم أن تتخيلوا وجود ضـــوابط لقـــص الشعر مكتوبة ومعمول بها رسمياً في مدارس تعليم البنات[1].

وإذا عكـــسنا الأمر. وتصورنا أن سيدة كتبت مقالاً تنادي فيه المجتمع للوقوف والتعاضد لمنع الرجال من إطالة اللحى. فهل ستنشر الجـــرائد التي "يشرف على كل ما فيها رجال" مقالها الرافض لإطالة اللحـــية. وإذا نـــشرت الجريدة مقالها ذلك فهل سيأخذ الناس رأيها مأخـــذ الجـــد أم ســـتكون مجالاً للتندر والسخرية؟ وإذا نظرنا إلى الموضـــوع بروية وتعقل وبموضوعية تامة. ألا نعتبرها قد تدخلت في خصوصيات الآخرين؟ أي أنها تدخلت فيما لا يعنيها.

---

(1) الضوابط يتضمنها كتاب (قواعد تنظيم السلوك والمواظبة لطالبات مراحل التعليم العام) الصادر من الإدارة العامة لتوجيه وإرشاد الطالبات، تعد صبغات الشعر الغريبة مخالفة سلوكية من الدرجة الثالثة، ص 25.

ولا أستغرب هذا الوضع للنساء. فقد كان استعباد الناس موجوداً وكثير من البيوت بها مملوك أو مملوكة على الأقل وكانت كتب الفقه تزخر بأبواب الرق فتفصل المسائل في كل ما يتعلق بفقه الجواري والعبيد ولم يقل أحد الآن أن تحرير الرق عطل النص وتطبيق النص وألغى أبواب الفقه التي اشتغل بها الفقهاء فيما مضى.

ونعلم أن الإسلام فتح أبواباً عديدة ليساعد على تخليص الأرقاء من العبودية. فهل عمل بها المسلمون ليساهموا في إنهاء الرق في بلاد المسلمين؟ المسلمون لم يحرروا عبيدهم إلا بقرارات حكومية ألزمتهم بذلك. إذاً وبرغم كل ما أتى به الإسلام من وصايا من أجل إعتاق المملوكين لم تتحقق الحرية لهم إلا حين ألزمهم النظام بذلك.

وهكذا ظلت النظرة للمرأة دون مراجعة حقيقية برغم ما يحدث من تجاوزات لتعاليم الدين الحنيف في حقوق النساء. أليس طلب العلم فريضة على المسلمين؟ ألا يمتلئ القرآن الكريم بالآيات التي تؤكد على التفكر والتعقل والتدبر؟ وهذا يعني استخدام العقل. ومع هذا ألم يقاوم - كثير من - الرجال تعليم المرأة في بداياته. وإذا كان تحرير العبيد عند غير المسلمين تطلب هذه الثورة العالمية على الظلم وتطلب وجود قياديين يؤمنون بحقوق الإنسان لمجرد إنه إنسان كرّمه الله تعالى بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى كالدين أو العرق أو اللون أو الجنس. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (سورة الإسراء، 70).

فالإنسان مكرّم من ربّ لمجرد إنه إنسان. ولا شك بأن كل انتهاك لهذا التكريم يكون مخالفة لما أمر به الله الناس كافة من أجل سعادتهم. أقول إن كان العالم كله عند غير المسلمين قد تطلب وجود قرارات تلزمهم بعدم استعباد الناس فإن المسلمين كانوا في غنىً عن

تلك القرارات لأن دينهم يدلهم على الصواب. ومع وجود هذا الدين وتلــك التعالــيم عن كرامة الإنسان وحقوقه ووجود أبواب كثيرة لإعــتاق المملوك ظل الرق منتشراً وله أسواق يباع فيها الناس كما تباع البهائم. ولم ينتهِ الرق إلا عندما ألزمنا العالم المتمدن بإنهائه تماماً[1]. ولولا ذلك لكنا إلى الآن نبيع الناس ونشتريهم ولكنا نبرر موقفنا بأن الــدين أتاح لنا هذا التصرف. فهل سننتظر إلزامنا من العالم المتمدن أيــضاً لنحترم النساء ونرفض التمييز ضدهن ونؤمن بأن الله كرمهن لمجــرد كــونهن من نسل آدم لأنه كرّم بني آدم بصفة عامة. ثم كرّم المسلمة بصفة خاصة بأن جعل لها حقوقاً لا يجوز لأحد استلابها تحت أي مــسمى ولا بأية حجة. هل سننتظر المتمدنين ليفرضوا علينا احترام نسائنا ثم نقول حينها إن ديننا كان يأمرنا بعدم ظلمهن، تماماً كما فعلنا في مــسألة العبــيد. هذا ما سيحدث. فالكون كله يسير في اتجاه ونحن نــسير في الاتجاه الآخر فإما أن نبقى خارج العالم وهذا ما لا نستطيعه علــى الإطلاق. وإما أن نكون معهم وفق ما يتقرر من حقوق للإنسان واحترام لكرامته. والإنسان تعني الأنثى والذكر - لا فرق -.

وإذا قلبــنا أكثــر في الكتب - حديثها وقديمها - والمطويات والندوات والمحاضرات وتابعنا بعض الفضائيات وقرأنا في مواقع تدعي أنها إسلامية على شبكة الإنترنت واطلعنا على الموقف في كل هذا من النــساء أدركنا الأثر الذي تركته تلك الكتب والفضائيات والمواقع والأشرطة في نفوس دارسيها ومتابعيها. ودارسوها لهم تأثيرهم البالغ على الناس بشكل عام إذ إنهم بعد تخرجهم لا شك سيكونون خطباء وأئمــة ومدرســين وأزواجــاً وآباء وإخوة. يتشربون تلك التعاليم ويــصدقون أنها هي الدين الحنيف ويتربون على النظر للمرأة بدونية.

(1) يمكن الاستزادة بالقراءة حول تاريخ الرئيس الأميركي إبراهام لنكولن.

وفي أحـــسن الأحـــوال النظر إليها بشفقة على اعتبار أنها أقل مكانة وأضعف شخصية. فهل خلا الإسلام من الحب والخير إلى هذا الحد؟ وهـــل يرضـــى مسلم أن يكون الإسلام متهماً بالعنصرية ضد المرأة والظلم لها؟

وإذا كانت المرأة في نظر الرجل في الماضي شيطاناً يجب أن يعوذ بالله منه فإن من ينعتها بأي شيء آخر سيكون أفضل من ذلك الذي قال إنها شيطان مهما كان النعت الآخر مهيناً لها. وفي كتب التراث أن شاعراً قال:

إن النـــساء شياطين خلقن لنا نعـــوذ بالله من شر الشياطين

لا شـــك أن بيتاً كهذا يسيء جداً لكل من تسمعه لهذا ردت إحداهن عليه وقالت:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شمّ الرياحين

لم تصر المرأة على إنها إنسانة. بل ارتضت أن تكون شيئاً آخر وهـــو نـــبات الريحان. ليس هذا وحسب. بل إن نبات الريحان هذا بطبيعة الحال لم يخلق لذاته ليستمتع بحياته كالبشر لكنه خلق من أجل البشر. وبهذا كان التشبيه، أي هي ترى أنها خلقت للرجل. ليستمتع بهـــا. هو بشر.. هو إنسان. أما هي فشيء من أجله. هكذا صورت مكانتها عندما انبرت للدفاع عن نفسها. لم تدرك إنها إنسانة لكثرة ما قالوا لها إنها وردة وريحانة. وهذا على كل حال خيار أفضل بكثير من أن تكون شيطانة أو حية أو عقربة. لهذا قالت عن نفسها ريحانة يشتهي الرجل شمّها أما لو أنها ظلت ساكتة ولم ترد على الشاعر فهي شيطان يستعيذ بالله منه.

لا شـــك أن في التراث الكثير من الخير والحق والصواب. وفيه أيضاً أخطاء لا تحصى ومواقف لا تعد كلها من أفعال البشر وليست

منـــــزله. وحاشـــا لله أن يكـــون الظلم منـــزلاً والتمييز العنصري منـــزلاً والاستعباد منـــزلاً والقهر منـــزلاً.

كـــل ما ليس منـــزل من صنع البشر. ومهما كانت مكانتهم يبقون بشراً ولهم أخطاؤهم. لكننا كمجتمع يأبى تنقيح ما لديه صرنا نجتر تراثنا لأننا اعتدنا أن ننظر للماضي بعين التبجيل. فبجلنا كل ما فـــيه من تراث وأخطاء ورجال. كل ما في الماضي مقدس لا يناقش ولا ينـــتقد وأي محاولة لإعادة تنقيحه أو اعتباره غير مناسب لتطور حـــياة الـــيوم يعد خروجاً عن الدين ذاته في نظر كثيرين. فأصبحنا كمجتمع غير قادرين على استبدال الخطأ الذي في التراث بالصواب والـــناس ليسوا كلهم على قدر من العلم ليتمكنوا من تجاوز ما يقدم لهـــم علـــى أنـــه صواب وليبحثوا عن تفسيرات جديدة للنصوص الإســـلامية تجعل حياتهم أكثر يسراً وسعادة. إذ إن الدين لا يشقي أحداً وليس عسيراً على أحد إلا إذا جعله الإنسان كذلك.

انغلقـــنا علـــى ذواتنا. ورفضنا التعرف على الرؤى الأخرى. تقوقعـــنا علـــى ما لدينا. والمجتمع المغلق على ذاته دائم التوجس من خطر قادم.. دائم التشكك في نوايا المجتمعات الأخرى التي لا همّ لها – كمـــا يـــزعم – إلا سحقه وذلك بالسطو على خصوصيته التي تشكلت من عادات يحرص على الحفاظ عليها والاستماتة في الدفاع عـــنها بغـــض النظر عن كون هذه العادات جيدة أو غير جيدة. إنها تمـــثله.. بل يكاد يكون لا أحد بدونها. وانطلاقاً من هذه القناعة التي مؤداها أن هناك مؤامرة كبرى يخطط لها الجميع لاغتياله، انكفأ على نفـــسه وتقوقـــع عليها وصار يقاوم كل جديد سواء كان مادياً أو معنوياً. ولا فرق إن كان الجديد من إنتاج الغرب المتآمر عليه حسب ما تصوره له مخاوفه أو كان فكراً من عقول ناقدة لأبناء ذات المجتمع أو حتى مطلباً من مطالب التقدم الحضاري لبناء الأمم. مؤكداً أن أي

قـــادم يـــستهدف الهدم لا البناء ووفقاً لثقافة مجتمعنا.. المتأثرة بالبيئة الصحراوية التي اعتادت على أحادية الرأي... توهم أنه مجتمع مثالي متمسك بالحق.. مالك للحقيقة. ولأن الحقيقة دائماً بحوزته كما يرى فإن كل ما يخالف ما لديه باطل بالضرورة. وعلى الجميع أن يتصدوا للمختلف بكل وسيلة.

وللمجـــتمع المغلق سلطة رهيبة، يستطيع بها وبضغط عاداته أن يجـــبر أعـــضاءه على اعتناق ثقافته التي تعج بالأساطير والخرافات. يـــستطيع المجتمع المغلق بسلطته على أعضائه أن يفرض على الناس ما لا تـــستطيع فرضـــه قوانين الدولة. والإنسان في مجتمعاتنا – أنثى أو ذكـــر – يـــولد ليعـــيش ويموت على طريقة المجتمع وكما يريد له. فالإنسان في مجتمعنا يتحرك وفق ما يراه المجتمع مناسباً وليس حسب مـــا يريده كفرد. وفي اعتقادي أنه لا شيء يقهر الإنسان ويحد من إرادته أكثر من إرادة وسلطة المجتمع المنغلق. فالجميع يخضع لقراراته. وحتى الدين المنـــزل من عند الله بأصدق ما فيه من نصوص قرآنية تمّ تأويلها وفق تقاليد وأعراف المجتمع.

وإذا كانت العادات والبيئة قد شكلت للإنسان هذه النظرة. فقد جاء التعليم والإعلام ليرسخ مفهوم الخصوصية وأهمية الحفاظ علـــيها بكـــل ما تحويه ويساهم في ترسيخ مكانة المرأة الأدنى في المجـــتمع من الرجل. ثم يعمل التعليم على توسيع الهوة بينهما أكثر وأكثر.

ودون فـــرز أو مـــراجعة أو مقارنة صارت كلمة خصوصية ذات قداسة معينة. ومن هنا صار واجباً على الجميع – من منطلق القـــول بالخـــصوصية – أن يـــتوحدوا في معتقداتهم.. ليس هذا وحـــسب.. بـــل وحتى في رؤاهم وأحلامهم مع ترديد عبارة أن الاختلاف ممكن ومشروع.

وبرغم أن هذا الاختلاف الذي قالوا بمشروعيته لا يتعدى بعض المسائل الفقهية الخلافية - كغطاء وجه المرأة الخلافي في الأصل - ظل هـذا القـول لا يـتجاوز الحناجر. أي أننا كمجتمع نردد معاً أن الاختلاف لا يفسد للود قضية. أما على أرض الواقع فإن الاختلاف في أمـور ثانـوية أو خلافـية في أصـلها. وحتى التي سكت عنها الـشارع.. ودخلت ضمن معنى الحديث الشريف (أنتم أعلم بأمور دنـياكم) تجعـل من يقوم بها يدفع ثمناً غالياً جداً معنوياً أو مادياً أو الثمـنين معاً. ودفع الثمن هذا هو ما يتجنبه الناس عادةً، لأنه يطال الـسمعة ويزلـزل المكانـة الاجتماعية للأفراد والعوائل. وقد يهدد وظائف المعلمات أو أي عاملة في أي قطاع حكومي أو حتى أهلي. والنتيجة هي وجود قوالب محددة سلفاً تقولب أعضاء المجتمع وتعطي نـسخاً مـتطابقة في الـتفكير ونمط الحياة. ومن هنا رأينا كيف أن مجتمعـنا يـريد أن يصبح الناس كلهم مؤمنين بما لديه بل ويحبون ما يحب ويكرهون ما يكره.

إن الاسـتمرار في اسـترجاع الماضـي والتأكيد على أن كل الصلاح في اجتراره وعدم نقد محتواه يعني تعطيل العقل الناقد والعقل المنـتج المبـتدع. إن هـذا التعطيل يؤدي بالضرورة إلى الجمود بل والتـراجع في المجـتمع بأكملـه. لأن كل ما لا ينمو سيضمحل بالتأكيد. وكل ما لا يتقدم سيتأخر. لكن المجتمع يخاف من التجديد والتغيير باعتبار أن الابتداع بدعة والبدعة ضلالة.

مجرد أسئلة

مما قال ابن تيمية رحمه الله: إن إن صريح المعقول لا يعارض صحيح المنقول.

لم تكـــن صلاة التراويح في المساجد بهذا الشأن في عهد رسول الله و لم يأمـــر بإقامتها كل ليلة صلى الله عليه وسلم. لكن عمر بن الخطـــاب ابتدع إحياءها في المساجد في رمضان. فهل يجوز أن نقول عـــنها ضلالة؟. لم يكن الناس قد درسوا علم النحو ولا العروض في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا فإن دراستهما بدعة. ويمكن أن نرى ونلاحظ كم البدع التي في حياتنا. إنها تفوق تصورنا.

موقـــف آخـــر يسجله التاريخ لعمر أيضاً رضي الله عنه إذ إنه رفـــض تقـــسيم أرض في ريف العراق بعد فتحها اقتداء برسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم الذي قسّم أرض خيبر بعد فتحها. وهو هنا يخالـــف ســـنة ســـنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم. عندما قال للـــصحابة رضـــوان الله عليهم: إن قسّمتها بينكم فما يبقى لمن جاء بعدكم من المسلمين؟[1].

أمـــا أقوى المواقف التي اتخذها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهـــو ما فعله بشأن حدّ السرقة وقطع يد السارق. لقد أوقف الحدّ عندما وجد أن الجوع يجتاح الناس، لعلمه أن الحدود لحفظ الحقوق وليست تعسفية ظالمة[2].

---

(1) نقد العقل المسلم، عبد الحليم أبو شقة، ص 70.

(2) موسوعة فقه عمر بن الخطاب، د. محمد رواس قلعه جي.

إذاً عمـــر رضي الله عنه ربط الأحداث بواقعها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حدثت فيه وظروفها التي أحاطت بها ولم يـــتجمد عـــند نص معين يرى أن عليه تنفيذه حتى وإن تبدلت الأحوال وتغيرت دواعي التطبيق وستختلف نتائجه بالضرورة، وليس هـــذا حال عمر مع السنّة وحسب، بل مع الحدود أيضاً. لقد ابتدع رضي الله عنه في مواقفه كثيراً. ففي المثال الأول ابتدع شيئاً لم يكن موجـــوداً بـــصفته الحالية، وفي المثال الثاني ألغى شيئاً كان قد قام به الرســـول صلى الله عليه وسلم. وفي الثالث أوقف ما كان معمولاً به ومنصوصاً عليه في كتاب الله وهو حدّ السرقة.

فإذا كان صحابي جليل، كعمر رضي الله عنه شخصياً. وبمقام عمر كخليفة للمسلمين يتعامل مع أمورٍ جليلة كالصلاة وحدّ السرقة وتقـــسيم الأرض المفتوحة على المسلمين بطريقة مغايرة لما كان عليه رســـول الله صلى الله عليه وسلم برغم قرب العهد بالرسول وتشابه زمانـــيهما تـــشابهاً كبيراً. فمن باب أولى أن ينظر فقهاء زماننا هذا والذي يبتعد بما يقارب ألفاً وأربعمائة عام عن زمن الرسالة وتختلف ظـــروفه الاجتماعـــية والاقتصادية والسياسية والفكرية والبيئية عن الظروف التي كانت في ذلك العصر اختلافاً كاملاً. من باب أولى أن ينظـــروا إلى أمور أبسط وأقل شأناً من هذه بكثير. وبعضها ليست حـــتى مـــن الدين أصلاً بل هي من أمور الحياة، لكنها ألبست لباس الـــدين وتمّ تـــضخيم صـــورها في أعين الناس. ومجرد الحديث عنها ونقدها يعد ضلالة. والضلالة ترمي بصاحبها في النار. فكيف لو فكّر شخص بتغييرها؟

وتـــضخيم النص وإبرازه للناس هو أود طرحه هنا. فقد أورد كثيرون نصاً ثم جعلوه يبرز بشكل جلي وواضح. وتمّ السكوت عن غـــيره الذي يتعارض معه. ليجعلوا رأياً يرجح على رأي. أو وبعبارة

أكثـــر دقـــة، ليغيبوا رأياً ويظهروا آخر. ليس إظهاراً وحسب، بل وبـــصورة لا تقبل المناقشة أو التفكير. ومن ذلك حديث: «لعن الله النامصة والمتنمصة».

كلنا يعلم أن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وقد خطر بـــبالي منذ أن كنت ابنة الثانية عشرة عاماً سؤالاً لم يحرص أحد على أن يعطـــيني إجابـــته. ولكني أؤمن حتى وإن لم أجد الإجابة **أن صريح المعقول لن يعارض صحيح المنقول.** لأن هذا الدين من عند الله تعالى.

وســـؤالي القـــديم يقول: إذا قتل رجل رجلاً قتل خطأ أو قتل عمد. فهل في القرآن الكريم أو السنّة النبوية نصاً واحداً يقول بطرد القاتـــل وإبعاده من رحمة الله؟ على أن القتل - والكل يعلم هذا - إزهـــاق للروح التي هي من عند الله بدون وجه حق. ومع هذا يبقى القاتل ضمن رحمة الله ما دام من عباده الذين يؤمنون به ولا يشركون بـــه أحـــداً. فكـــيف تطرد من رحمة الله امرأة نـــزعت شعرة من حاجبيها ولا يطرد القاتل؟

القتل جريمة.. والنمص نـــزع شعر.. ويا للمقارنة.. القاتل لا يُلعن.. والنامصة ملعونة.

النص يقول بلعن النامصة تحديداً.. ماذا لو نمص رجل شيء من شـــعر وجهه لأي سبب كان؟ هل ينطبق عليه النص حينها.. بالطبع لا، فاللعن للنامصة فقط.

هـــل يرى الفقهاء بأن عقوبة النمص تتناسب والجرم المقترف؟ هـــذا في حال التسليم لهم بأن النمص جرم. (وهذا ما لا أستطيعه أنا على الأقل).

إذا فعل الإنسان معصية، كأن يشرب الخمر أو يلعب القمار أو يمارس الزنا. فهل هو بهذه الأعمال كلها أو بعضها يكون مطروداً من

رحمة الله؟ إن المسلم لا يُلعن بحسب النصوص الصحيحة إذا فعل هذه المعاصـــي ويبقـــى تحت رحمة ربّ رحيم قال في كتابه العزيز: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، 53).

إن الله يغفـــر الذنـــوب جمـــيعاً. ثم يأتي بعدها (إنه هو الغفور الرحيم). فإذا كان المسلم قد أسرف، لم يذنب وحسب، بل أسرف في الذنوب فعليه أن لا يقنط من رحمة الله بحسب نص القرآن الكريم لأن الله يغفر الذنوب جميعاً. وهذا يعني أن المسلم إذا شرب الخمر أو قـــتل أو زنى أو عقّ والديه أو فعل ما فعل من الذنوب والمعاصي فإنه يبقى تحت رحمة الله، ولا يطرد منها برغم كل ذلك الإسراف. فهل يمكـــن – عقلاً – أن تطرد من رحمة الله امرأة انتزعت من حاجبيها خمس شعيرات أو أقل أو أكثر؟ لماذا؟ وكيف؟ هل كونها امرأة سبب كـــاف للـــبحث لها عن ذنب لتطرد به من رحمة الله؟ البحث عن ذنـــب.. ماذا إذا لم تقترف الذنوب؟ ستطرد.. ستطرد ولو لم تفعل شيئاً سوى التخفيف من كثافة حاجبيها!

إن تبرير وجود نص اللعن للواتي يهذبن شكل حواجبهن يقول بأن سبب اللعن هو تغييرهن لخلق الله. لا بأس.. لماذا هذا النوع من التغـــيير فقـــط هو الممنوع. وليس منعاً كباقي الممنوعات. بل منعاً شديداً جداً إلى حدّ أن من تخالفه تذهب إلى النار فوراً فهي مطرودة مـــن رحمة الله. إن هناك الكثير من الأساليب لتغيير الخلقة إذا كانت مـــثل هذه الأمور تدخل في مجال تغييرها. فلماذا النمص بالذات هو الـــذي يتطلب أقصى أنواع العذاب – وهل بعد الطرد من رحمة الله عذاب أشد؟

نـــأتي إلى أنواع وأنواع من تغيير الخلقة. والتي يقال أنها سبب اللعـــن. أليس تخضيب اللحى بالحناء وغير الحناء تغيير لخلق الله؟ ألم

يخلق الله شعر اللحية أسود ثم يجعله بمرور العمر أبيض فيعمد الرجل إلى صبغه بالحناء ليغير اللون الذي جعلها الله عليه؟ فلماذا حينها لم يلعن الرجل ما دام مغيراً للون الذي خلقه الله؟ بل هو مطلوب أن يغير لون البياض في لحيته حسب نصوص الأحاديث. كيف يلعن الحديث المرأة إذا نمصت لأنها غيرت خلق الله ويطلب حديث آخر من الرجل أن يغير خلق الله بتخضيب لحيته البيضاء وتغيير لونها بالحناء؟ وفي البخاري في كتاب اللباس باب الخضاب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم». أليس في هذا النص أمر بتغيير ما فعله الله بالشعر الأسود حين جعله أبيض بقدرته. وكذلك حلق اللحية. أليست السنّة في إعفائها. فإذا حلقها الرجل خالف السنّة. وهو بحلقه للحيته يزيل ما يقارب المئة ألف شعرة وليست خمس شعرات. ولم نسمع أنه سيطرد من رحمة الله إذا فعل هذا. فغاية الأمر أنه خالف السنّة، أو أتى مكروهاً، أو على أعلى تقدير وحسب الآراء المتشددة جداً، قد فعل حراماً. لكنه ليس ملعوناً على كل حال. فلماذا لا يلعن مع أن تغييره لخلقة الله أشد بكثير من تغيير المرأة لحاجبيها.

عندما يزيل الرجل مئة ألف شعرة من وجهه لا يقول أحد بأنه غيّر خلقة الله ولا يطرد من الرحمة. وتزيل المرأة خمس أو عشر شعرات فتطرد من رحمة الله!! على أني لا أرى أن الواجب هو لعن الرجل الحليق. لا.. فشعر وجهه على وجهه ولا يحق لي أن أملي ما أراه مناسباً له. لكني أقارن لمجرد المقارنة لعل المقارنة برغم التفاوت الكبير بين كمية الشعر المزال من ذقن الرجل وحاجبي المرأة توضح الصورة.

ثم لماذا يصل الأمر في الحاجبين تحديداً إلى مستوى الطرد والإبعاد من رحمة الله بينما يحث الدين ذاته على إزالة الشعر من

الجـــسد في مواضع أخرى. أليست الإزالة تغيير لما خلق الله في كل الحـــالات؟ أم أن باقي مناطق الجسم ليست هي أيضاً من خلق الله؟ كيف وجب انتزاع الشعر من مكان وتمّ فهم نـــزعه من مكان آخر علـــى أنه تغيير لخلقة الخالق؟ وعلى فرض.. على فرض وجود ضرر مـــن نـــزع شعر الحاجبين، مع أن هذا غير صحيح. فهل يعني ذلك لعن كل من فعل أمراً يؤدي إلى الإضرار بجسده؟ الخمر يؤذي الجسد قطعـــاً ولـــيس فرضاً و لم يلعن شاربه. اللحم وهو لحم إذا أكثر منه الإنسان أدى إلى داءِ النقرس. فهل يُلعن من يكثر من أكل اللحم لأنه يضر بجسده؟

لم أستنتج بعد ما الفائدة المرجوة من وضع نص اللعن للنامصات ضمن هذا الإطار الضخم جداً. فالإسلام ليس ديناً تعسفياً ولا ملغياً للعقول. ولكن بعض الفقهاء أراد أن يعطي النساء مزيداً من الشعور بالدونـــية مـــا دام يورد اللعن ثم يضخمه إلى هذا الحجم دون إيراد للنصوص التي تدل على استحباب التزين للنساء. وبهذا فالنساء آثمات مهمـــا تعبدن لله ومهما ابتعدن عن المعاصي. هن آثمات وسيبقين في النار مطرودات من رحمة الله حتى لو لم يفعلن في حياتهن شيئاً سوى نـــــزع بعـــض من شعيرات الحواجب ابتغاءً للتجمل. إن أبسط ما يطمحـــن إليه وهو تجميل شكل حواجبهن فقط يؤدي إلى إحراقهن في الـــنار إلى أبد الآبدين فهن مطرودات من الرحمة الإلهية فماذا لو اقتـــرفن ذنباً أكبر!!. أما الرجل فحتى وإن اقترف المعاصي كلها فإنه يظل يرجو رحمة ربه!!

كـــثيرة هي الأشياء التي تدهشني في مجتمعنا. لكن أمر الحاجبين هذا هو أكثرها غرابة. إن أمر الحاجبين وتهذيبهما صدرت به تعاميم عديدة ولوائح وأنظمة تجعله من أولويات العمل في المؤسسة التعليمية التربوية بل من أهم الأولويات. وانشغلت به العديدات انشغالاً فاق

تـــصور المتـــصورين. أقيمت من أجل الحواجب محاضرات وندوات وطُــبعت كتيبات وحُســـم على الموظفات درجات في تقييم أدائهن الوظيفي. لقد صار المجتمع كله يرى ما يرى من المشكلات والهموم فلا يكترث. ثم يسمع عن حاجبين مهذبين فتثور ثائرته.

أيعقل أن تكون المعلمة ذات أداء ممتاز فلا يُنظر إلى أدائها ولكن إلى حاجبـــيها؟ إن في التعاميم التي تصل إلى المدارس أمر بالحسم من درجـــات تقيـــيم الأداء الوظيفي للمعلمات إذا كانت بعض الشعر حواجبهن قد تمت إزالته.

مـــتى يعمـــل الأئمة على درء تعارض العقل مع النقل بدلاً من تضخيم النقل وإلغاء العقل؟

وكـــنت قد سمعت الشيخ علي الطنطاوي رحمة الله في أحاديثه التي كان يبثها التلفزيون السعودي والتي أتمنى أن يعود التلفزيون لبثها مـــن جديد يقول: النمص هو انتزاع الشعر. والحديث لم يحدد أي شـــعر هـــو المقصود والمسلمة عليها أن تزيل شعر بعض المناطق في جسدها وبالتالي فليس من المعقول أن يطالبها بأمر ثم يلعنها إن فعلته.

لم يتناول الناس، ولا الأئمة والخطباء حديث القزع الموجود في الـــبخاري إذ يقول: (عن نافع مولى عبد الله أنه سمع ابن عمر رضي الله عـــنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن القـــزع. قـــال: قلت: وما القزع؟ فأشار لنا عبيد الله قال: إذا حلق الـــصبي وترك ها هنا شعره وها هنا، فأشار لنا عبيد الله إلى ناصيته وجانبي رأسه). إذاً قص شعر الصبي الذكر بالقصات التي تخفف من الجانـــبين وتبقي ما بأعلى الرأس منهي عنها. لكن الكثيرين يعمدون إليها دون تردد أو حتى علم بوجود النهي. ليس لمثل هذا الحديث أي أثر في الحياة العامة. ولم يركز المحدثون والخطباء على مثل هذا الأمر

بـــرغم انتشاره. لا شك لو أنه ينهى المرأة لما بقي في طيات الكتب. ولتردد بين الناس وانتشر انتشار النار في الهشيم.

ونأتي على حديث في صحيح مسلم في باب غلظ تحريم النميمة يقـــول: (عـــن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة نمّام». وفي الـــبخاري عنوان "باب النميمة من الكبائر" أورد فيه الأحاديث التي تدل على أنها كبيرة.

لا يـــدخل الجـــنة نمام حديث لا يتداوله الناس ولا يعلنه الذين يعلمـــون الناس. مع أنه حديث يربي الإنسان على الأخلاق الحميدة والتهذيب العالي. أي أنه يهتم بالمخبر لا بالمظهر. ومع هذا لم يترسب في ذهـــن أحد غلظ تحريم النميمة، بعكس شكل الحاجبين اللذين لم يبق طفل ولا كبير إلا وأدلى بدلوه فيهما.

وفي صـــحيح مسلم في باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجـــنة حديث (عن المعرور بن سويد قال: سمعت أبا ذر يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنـــه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»).

إذاً.. المؤمن بربّه الموحد له يدخل الجنة حتى وإن جاء بما يوازي البحـــر ذنوباً، لأن الله لديه ما يوازيها مغفرة وأكثر أضعافاً مضاعفة. وبهذه المغفرة التي وسعت كل شيء يدخل المؤمن جنة الله. فكيف لم يحاول العلماء والفقهاء والأئمة درء هذا التعارض بين هذا النص وبين نص النمص؟ وأيهما أولى بالنشر بين الناس. حديث الرحمة والمغفرة الـــتي وسعت كل شيء الذي يصور الإسلام دين رحمة ومغفرة؟ أم أحاديث الطرد والإبعاد من رحمة الله حتى وإن لم تقترف النساء ذنباً يذكر. ولكن تمّ تصوير نـــزع الشعر ذنباً.. وأي ذنب!

إذا كـــان كـــثير من الناس يرون أن تأمل نص حديث النمص ورفض التسليم لمعناه يؤدي إلى المعصية، إذا كان هذا هو رأي كثير مـــن رجـــال الدين في هذا الحديث فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عـــنها قـــد سبقتنا نحن - نساء اليوم - برفضها لحديث في صحيح مـــسلم نصه (المرأة والحمار والكلب يقطعون الصلاة) وفي صحيح مـــسلم أيـــضاً روايـــة أخرى لذات الحديث أضاف فيها "الكلب الأسود".

وأنـــا هنا أتناول النص كنص في حدّ ذاته مثبّت في صحيح مسلم في كتاب الصلاة، بغض النظر عن موقف الفقهاء منه وعدم أخذهم به.

نـــصُ حـــديث يُخرج الخنـــزير وسائر الدواب من دائرة قطع الصلاة ويبقي المرأة والًكلب والحمار. وفي رواية الكلب الأسود، أي أن الأبـــيض أو البني أطهر من المرأة أو أنها هي أنجس منه. وبحسب النص فإن الرجل الواقف للصلاة يعيد صلاته من جديد إذا مرّ أمامه كلـــب أو حمار أو أمه أو أخته أو زوجته أو ابنته. ولا يعيدها إن مرّ من بين يديه قط أو فأر أو خنـــزير.

هل يعقل أن يخرج مثل هذا القول من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لقد أغضب هذا النص أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولهـــذا أخبرتنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهي معترضـــة بينه وبين القبلة وعندما يسجد تكف ساقيها ليضع جبينه الطاهـــر صلى الله عليه وسلم مكان قدميها رضي الله عنها، وعندما يرفع من السجود تمدهما من جديد. ففي صحيح البخاري ومسلم إنها رضي الله عنها قالت: (كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجليَّ وإذا قام بسطتهما، قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح).

رسول الله صلى الله عليه وسلم لكي يسجد يضع كفه الطاهر علـــى رجليها لينبهها فتفسح لجبينه مكاناً للسجود فإذا عاد واقفاً في صلاته تمد رجليها لترتاح في نومها إلى أن يسجد من جديد. فكيف اتهمـــوا رســـول الله بأنه يضع النساء مع الكلاب والحمير من حيث النجاسة؟

وفي الـــبخاري عدد من الأحاديث التي تعترض فيها أم المؤمنين على مساواة النساء بالكلاب والحمير ومنها ما قالته رضي الله عنها: (**بئسما** عدلتمونا بالكلب والحمار، لقد رأيتني ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا مضطجعة بينه وبين القبلة فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فقبضتهما).

إن وجـــود نصين في صحيحي البخاري ومسلم أحدهما يقول بـــأن رســـول الله صلى الله عليه وسلم وضع النساء في صف بعض الحـــيوانات ونص آخر ينفيه بشدة يمدنا بالجرأة المطلوبة لكي نتساءل عـــن النصوص التي تلعن النساء لكونهن نساء حتى ولو لم يفعلن شيئاً سوى التزين بتهذيب الحاجبين.

ومن بعد إصرار السيدة عائشة رضي الله عنها على عدم صحة مـــا قـــيل نقـــلاً عن رسول الله وتكذيبها لمن قال بأنه جعل النساء والحمـــير والكـــلاب في دائرة واحدة أقول بأنها رضي الله عنها أول امـــرأة ذبّت عن كرامات النساء ورفضت امتهانهن بمثل هذه الألفاظ وأكـــدت للأمـــة الإسلامية بأن أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم تتـــناقض تمامـــاً مع ما قالوا أنه قاله. فمن أين جاءت تلك المساواة بالكلاب والحمير.

من وراء السور

إذا غنيت في الظلام فأنت تنكر قلقك لكنك برغم ذلك لن ترى بوضوح أكثر.

لم أعـــد أستغرب وجود أكاديميات يرفضن مشاركة النساء في الحـــياة ويـــوقعن على العرائض التي يطالبن فيها منع النساء من قيادة الـــسيارة. إذ حتى وإن كنّ أكاديميات وطبيبات ومعلمات فعقولهن أخـــذت كل ما فيها من المصدر الذي يقول بدونية المرأة. وحياتهن تسير وفق مجتمع الـــ "حريم" القائم في بلادنا حتى اليوم. لذا فإن من الصعب عليهن هدم قناعاتهن التي رضعنها منذ الطفولة والتي بتجذرها في أعمـــاقهن فقـــدن القدرة على استقبال أي رأي أو رؤية غير ما اعـــتدن علـــيه. لا ألومهن وإلا سأكون كمن يلوم الأعمى الذي لا يذهب خارج المدنية ليتأمل النجوم في ليالي الصيف.

يعلم كثيرون أن فكرة الحريم كنظام حياتي وما يتطلبه من نظام معماري يتم تصميم البيوت الصغيرة والكبيرة على أساسه ليتواءم مع نظـــرة المجـــتمع للمرأة بحيث يعزلها في مجتمع خاص بها قد وجد في المجـــتمع البيزنطي والفارسي قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت من الزمان كان مفروضاً على النساء أن يغطين وجوههن لأسباب دينية وثنية لا نـــزال ندافع عنها ونصر إنها إسلامية خالصة.

إن تلـــك المجتمعات بما لديها من عادات وتراث أثرت كثيراً في المجتمع العربي في نهايات الخلافة الأموية وعلى امتداد الخلافة العباسية. بعكس ما كان عليه المجتمع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين. هذا التحول في النظم الاجتماعية وتقاليدها بتأثير

الـــثقافات المختلفة أثر بشكل جذري على الفكر الفقهي في الإسلام وأنتج نظرة دونية للنساء الإسلام بريء منها كل البراءة.

المرأة إنسانة لها حق كأي مواطن على أرض وطنه. ولكن وبرغم كونها مواطنة لها حق على أرض وطنها فما أكثر الإساءات لها وإهانتها بشكل نظامي ورسمي عبر موظفين تخصصوا في متابعتها فلم يفرقوا بين عفـــيفة أو غير عفيفة. إذ إن كل من ارتدت السواد في ظنهم تستحق الكلمات النابية والتجريح والتلويح بالعصا، إن لم يكن التشهير وإساءة التعامل. ويظل ما يفعلونه قانونياً ولا حق لأحد في الاعتراض عليهم.

التنمـــية البشرية تجاوز مفهومها حدود إشباع الحاجات المادية الأساسية لدى الناس وصار يشمل كثير من الأشياء التي تحدد نوعية حـــياتهم وتوسع من مجالات اختياراتهم وتتيح لهم وجود العديد من الـــبدائل. فهـــل نحن في مجتمعنا نعي دور التنمية وعلاقتها بالمواطن ونتعامل مع المرأة انطلاقاً من كونها مواطنة فعلاً؟ الحق أننا لا نـــزال – نحن النساء – نحاول أن نثبت داخل مجتمعنا أننا لسنا أنصاف بشر. وأكـــاد أجـــزم أن كـــل الندوات والمحاضرات واللقاءات والفتاوى والـــبرامج الدينـــية الـــتي تتناول موضوعاً عن المرأة. مهما كان هذا الموضوع. لا تبدأ ولا تنتهي إلا وقد تضمنت التأكيد على أن ما ورد فـــيها جاء حسب الشريعة الإسلامية وكأن الرجل ليس مطالباً بأن يسير حياته هو أيضاً وفق الشريعة الإسلامية بل هو خارجها وفي حل مـــن تطبـــيقها. وعلى المرأة فقط الالتزام بتعاليم الشرع. ولم يمتلئ الـــسمع والبـــصر بالندوات والكتيبات والمطويات التي تخص الرجل وتـــتحدث عـــن سلوكه وعاداته والقواعد التي يجب أن يسيّر عليها حياته حسب تعاليم الشريعة الإسلامية.

لا زال يلـــح على رأسي سؤال الكاتبة "فرجينيا وولف" مخاطبة النساء: (هل تعلمن أنكن ربما كنتن أكثر المخلوقات موضوعاً للنقاش

في الكون؟) نعم.. نحن النساء موضوع للنقاش. ليس إلا.. حتى الآن. ولا أرى اقتراباً للوقت الذي ستكون فيه المرأة إنسانة بذاتها.

وإذا كانت المجتمعات المتقدمة قد انتقلت إلى الاهتمام بقضايا إنسانية مختلفة وعديدة كقضايا المستضعفين والمشردين والأقليات أو بحث سبل السلام.... إلخ بحيث لا يفرق الطرح بين المرأة والرجل فيما يناقشه المجتمع المتقدم فإننا لا نزال نمارس تمييزنا المشرعن[1] والنظامي وتمييزنا غير المشرعن وغير النظامي ضد المرأة في مجتمع خاص بها يعزلها عن ممارسة الحياة الحقيقية. ولها في مجتمعها الخاص منذ ولادتها وحتى مماتها ولي أمر يمارس حياتها عنها حتى وإن تجاوزت الأربعين أو الخمسين أو المئة، لا فرق. فيما عدا التنفس والأكل والشرب. ولعله كان سيأكل عنها ويشرب ويتنفس لولا استحالة هذا الأمر. ثم يتردد في كل اجتماع أو مقال أو شريط أو كتيب – المرأة عندنا مكرمة معززة!! ويتم تصوير سلب الحقوق كرامة. والإصرار على أن ممارسة الحياة نيابة عن النساء راحة لهن وحفاظ عليهن.

المرأة ضمن مجتمع الخاص بها، هذا المجتمع النسائي المعزول عن عالم الرجل والذي من جهة يكاد يكون مخفيّاً عنه تماماً، ومن جهة أخرى يفرض الرجل سيطرته الكاملة عليه ويرسم للمرأة حياتها بكل تفاصيلها. فهو ولي الأمر.. وهو المحرم. وهو المسؤول في التعليم. والقاضي في المحكمة الشرعية. والشيخ في القبيلة، وهو المستَقدَم ليقود سيارتها، وهو الحارس على مدرستها، وهو الذي وضع المنهج المدرسي أو وافق عليه وهو الذي أصدر التعاميم الخاصة بكيفية

---

(1) يتم إعطاء التمييز ضد المرأة صفة شرعية وصفة نظامية باستصدار فتوى واستصدار أنظمة. أما التمييز غير المشرعن وغير النظامي فهو ضمن الأعراف والتقاليد.

تعلـــيمها مع أنه لا يراها ولا يعلم بكثير مما يحدث لها.. وهو الذي صمم مدارس تعليم البنات أو استأجرها لهن وفق ما يظن أنه مناسب لهـــن وهو الذي يلقي الخطب والمحاضرات لها وعنها.. إلخ إذاً هو في أدوار عديدة يصوغ للمرأة من خلال أدواره تلك حياتها ويدعمه في ذلـــك أعـــراف المجتمع وتقاليده، فيسن وفق تلك الأعراف والتقاليد أنظمة للمرأة يوافق عليها الجميع ما عدا المرأة.

إن عـــزل المرأة ومنعها عن المشاركة في النهوض بمجتمعها من خـــلال التعلـــيم والعمـــل والثقافة والفكر وفي شتى مناحي الحياة وحـــصرها في أدوار تحدٍّ من فاعليتها وتحجم دورها يجعلها تعود إلى المجتمع بصورة أخرى قد لا تكون هي الأمثل. فالخروج إلى الأسواق بـــشكل متكرر دون حاجة، والتحول إلى الأساليب الاستهلاكية في أوسع صورها، أرى أنها محاولات للبحث عن معنى وقيمة لذاتها التي أضـــاعتها منها التقاليد حين منعتها من تحقيق تلك الذات في معترك الحياة الحقيقية بحيث تكون عضواً نافعاً وفعالاً.

لا أحـــد ينتقص من قيمة البيت ودور المرأة فيه. بشرط أن يكـــون بيتاً فعلاً وليس مكاناً تسجن فيه المرأة. ولا أحد يقلل من شأن تربية الأطفال. بشرط أن لا تكون تربيتهم ذريعة لحرمانها من تحقـــيق ذاتها ولإبعادها عن مجالات العمل والإنتاج والمساهمة في النهضة والتنمية بشكل فعلي. هذا مع العلم أن المرأة ليست في كل مراحل حياتها تهدهد طفلاً على حجرها. فالطفل يكبر وتظل هي وفـــق أنظمـــة المجتمع خلف الأسوار. إذاً تربية الطفل ليست إلا ذريعة لعزلها عن الحياة.

ولا تزال كلمة حريم هي الكلمة الأكثر استعمالاً عند الحديث عن النـــساء والـــشأن النسوي في أوساط العامة - ولكلمة حريم دلالاتها الخاصـــة فهي قادمة من عهد الجواري وتخصيص قسم لهن في البيوت.

فهـــل لا تزال النساء مجرد جوارٍ يملكهن الرجل الشرقي، يشتريهن من سوقٍ للنخاسة؟

يقـــول الرجل لصاحبه متذمراً: يا أخي كذا الـــ "حريم". وهو يقـــصد النساء. وتردد المرأة أمام صديقاتها مواسية لمن لديها مشكلة: الله يعـــين.. كلنا الـــ "حريم" نعاني. وأخرج من بيت صديقتي التي جمعـــت صديقاتها ذات مساء لأتجه إلى سيارتي فإذا بسائق هندي لا أعرفه يناديني – يا هورما.. يا هورما.. فلا ألتفت باعتبار أني سيدة.. وأن هورما هذه لا أعرف معناها.. فيقترب أكثر وهو يقول: هيه.. هيه.. يا هورما.. كلم مدام جوا فيه بيبي فيه مشكل في بيت.

وبـــرغم عدم ورود كلمة (حريم) بهذا المعنى في كتاب الله عزّ وجـــل علـــى الإطلاق. إذ إن القرآن استخدم كلمة نساء وواحدها امـــرأة عـــند الحديث عن الإناث في الجنس البشري. إلا أن الرجال اســـتخدموها، والنـــساء لم يرفضنها بل رددنها بالضبط كما نطقها الـــرجل. وبرغم خلو القرآن الكريم كما أسلفت وخلو لسان العرب من إطلاق (حريم) بمعنى (النساء) إلا أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أضـــاف: (والمرأة) إلى المعاني العديدة لكلمة حريم. وكأن لغة اليوم بحاجة إلى مزيد من المفردات التي تسجن النساء خلف الأسوار.

قلت (لغة اليوم) منعاً للإطلاق فيحتج عليّ من يجادل في كون اللغة تحيزت كثيراً للمذكر[1].

ولعل إطلاق نداء (الحريم) على ما فيه من مجانبة للذوق وعلى ما فيه من عدم التهذيب وقلة الاحترام يبقى هو الأقل إهانة للمرأة برغم أنه مهـــين جـــداً. لكن هناك من يناديها بـــ (يا هيه – أو يا هيش) أو (يا ولـــد) من باب التأكيد على إلغاء وجودها تماماً. وهذه مرحلة أبعد من

(1) يمكن الرجوع في هذا الشأن لكتاب الدكتور عبد الله الغذامي، المرأة واللغة.

إخفـــاء اســـم المرأة الذي تعارف عليه الذكور واتفقوا على الالتزام به فاستعاضـــوا عن أسماء النساء بكلمات مختلفة مثل (الأهل أو الجماعة أو العـــيال). ولكـــم أن تتخـــيلوا أن رجلاً يذهب بزوجته إلى المستشفى ويتـــصل به صديقه فيخبره أنه يتجه إلى المستشفى لأن (الأهل) يعانون آلام المخاض!! أو أن الجماعة لديهم حالة ولادة..

إن نداءها بـــ (يا ولد) إنكار لذاتها، وشطب لكل مفردة تدل علـــى كـــونها أنثى. وفي (يا ولد) هذه معنى آخر.. وهو أنها لم تبلغ مـــبالغ الـــرجال في أي شيء.. لذا لم يقل (يا رجل) فذلك يجعلها تتـــساوى معـــه، لأنه رجل. وكلمة رجل تطلق على كل ذكر من جـــنس البـــشر سواء عرف معنى الرجولة أم لم يعرفه. وتختلط لدى الـــرجال في مجتمعنا معنى الرجولة بمعنى الفحولة. فيظن كل فحل أنه رجل، حتى وإن لم يكن لديه من معاني الرجولة شيء على الإطلاق. ولا يملـــك إلا فحولته التي يماثله فيها كل الذكور التي خلقها الله في الطبـــيعة. إذ لا يخفى على أحد أن الذكر ذكر في الحشرات والحيوانات والإنسان. وأن الأنثى أنثى كذلك في الحشرات والحيوانات والإنسان.

ولأن الـــرجل يحمل لقب "رجل" خاف أن يمنح المرأة لقبه عند مـــناداتها فيجعلها في ذات الصف الذي هو فيه ويؤمن بأنه متقدم به عليها. و لم يشأ أن يقر بوجودها أمام غيره من الرجال ويذكر اسمها لذا اختار لمناداتها (يا ولد). إنه يرفع صوته بـــ (يا ولد) ثم يصدر أمراً مـــثل (هات الشاهي) وجملة (يا ولد هات الشاهي) لها معنيان الأول إلغاؤها كأنثى.. والثاني حضورها لخدمته.

إذاً.. ليست هنا كإنسانة.. لكن يجب أن تكون هنا لتلبية ندائه وتنفيذ أوامره. وقد يستعاض عن اسمها في أحسن الأحوال بقولهم (أم فـــلان) وفي مناداتها بهذا الشكل تأكيد على أن ما اتفق عليه المجتمع بـــشأن المهمة الحصرية للمرأة وهي الزواج الإنجاب وتلبية الحاجات

الأولـــية للعائلـــة داخل البيت هو المسموح لها فقط وبهذا تكتسب هويـــتها وتعـــرف حـــدودها. ثم إنها ليست – كما أسلفت – ذاتاً مستقلة على الإطلاق. إنها دائماً موجودة من أجل الرجل ومن خلال الـــرجل. فهي أم فلان، وليست فلانة بعينها. وهي زوجة فلان وابنة فـــلان وأخـــت فلان. ودائماً حولها كتيبة من الرجال يقومون عنها بأمور عدة كان يمكن أن تقوم بها كأي إنسان طبيعي.

إن العقلـــية الجاهلية المتحجرة التي تمجد الرجل وتقلل من شأن المـــرأة لم تستطع تحمل نظرة الإسلام للمرأة، تلك النظرة التي ساوت بيـــنها وبين الرجل حين جعلت النساء شقائق الرجال. وهذه العقلية الجاهلـــية هـــي ما جعل التمييز ضد المرأة يستمر كل هذه العصور ويرمـــي بتعالـــيم الدين الحنيف عرض الحائط ويصر على أن الإرث الرهيب القادم من حضارات مختلفة وديانات عديد تحتقر المرأة وتقلل مـــن شـــأنها هي الصواب وليس ما قاله الله في كتابه وما فعله محمد صلى الله عليه وسلم مع نسائه.

ينظر الرجل إلى المرأة على أنها ملكه الخاص الذي يخشى عليه من العـــيون. وتمادى الرجل، ثم تمادى فإذا به يعاملها على أنها ليست إلا له وليـــست بمعـــزل عنه. فإذا خرجت برفقته وهذا يحدث عند ضرورات فقـــط. فـــإن كانا في سوق مثلاً سبقها بما لا يقل عن عشر خطوات وظلـــت تحاول اللحاق به كي لا تضيع بين الناس وهي لا ترى طريقها إلا كمـــا يـــرى الأعشى في الظلام. فإذا شاهد الرجل أحداً يعرفه أدار رأســـه ليتأكد أنه لا ينظر إلى "الحرمة" التي خلفه. ثم سارع في خطواته أكثر لكي لا يعلم أحد أنه معها، رجل مع زوجته أو إحدى قريباته! يا للخجـــل.. يا للعار.. لو أنه وحده لألقى السلام على من عرف وربما علـــى مـــن لا يعرف لكنه لن يسلم على من تصادف وجوده في ذات المكان من أصدقائه أو معارفه وهي معه مهما كانت محجبة. وكلما زاد

حجابهـــا زاد خجله من وجودها. ومع أن السلام سنّة ومع أنه حريص علـــى الـــسنن لكنه هذه المرة سيتخلى عن حرصه السابق. وإن اضطر للسلام سلّم بإيماءة من رأسه ومشى بسرعة لكي لا يرى الآخر زوجته. والآخر الذي سلم عليه لم يكن ليكلمه ما دامت معه "حرمة" حتى ولو كـــان من أصدقائه المقربين. يا الله.. إن وجودها يخجل الرجل ويربكه ويحمله عناء المراقبة والحذر والقلق.

ويقولون معززة مكرمة، فأي كرامة لإنسانة يخجل أقرباؤها من كونها معهم أمام الآخرين؟

ويحـــق للقـــادم إلى بلادنا أن يتعجب من طريقتنا في التنـــزه والتـــرويح عـــن أنفسنا. فنحن من بين دول العالم كله لنا طريقتنا الخاصـــة في الترويح عن النفس ويحق لنا هنا أن نؤكد على أن لنا – خـــصوصية غريبة بعض الشيء – فإذا ملّت العائلة الجلوس الطويل داخـــل البـــيوت. الأطفال يصرخون. والمراهقون يحدثون الفوضى. والنـــساء غير قادرات على احتمال مزيد من الضغط لذا يقرر الأب والعـــم أو الخال وبعض الأقارب الموافقة على اصطحاب الجميع في رحلـــة برية. وأول ما يفكر فيه مقرروا الرحلة هو عدد السيارات. ليس ليتأكدوا أنها تكفي الجميع بل ليصنعوا بها سوراً حول النساء إذا جلـــسن أثناء الرحلة. ولنا أن نتصور أن من كنّ في منـــزل لن تقل مساحته عن ثلاثمائة متر مربع إذا كان صغيراً، وكنّ يتحركن فيه بلا عـــباءة يتركنه ويذهبن إلى البر ليجلسن بين السيارات في مساحة لا تـــزيد عن عشرة أمتار مربعة، متجمعات تلتصق الواحدة بالأخرى متلفلفات في عباءاتهن تتوسطهن المشروبات الساخنة والباردة وبعض الأطعمة. لا يتحركن إلا لمناولة الرجال في الجهة الأخرى من السور المصنوع بواسطة السيارات أدوات القهوة أو الشاي أو الطعام. فأي نـــزهة قمـــن بهـــا وأي تغيير حصلن عليه. وأي ترويض للجسد

وترويح عن النفس حققنه؟ وإذا كان مرض هشاشة العظام يهاجم النساء بشراسة ويفترسهن افتراساً. عدا الأمراض المصاحبة للسمنة التي لا تنتهي. وإذا كان كل هذا الوضع الصحي يتطلب الحركة والهواء والشمس فأين تجدها النساء؟ حتى فتح النوافذ في البيوت يكاد يكون ممنوعاً ما لم يكن السور عالياً حول البيت بحيث يضمن الرجال أن من يمشي في الشارع لن يلمح شبح امرأة من خلف الستائر داخل البيت.

حكت إحداهن فقالت: كنا في نزهة محاطات بالسيارات. ولأن عدد السيارات كثير فقد بقيت سيارة لأخي ليس لها مكان فظل ينظر أين يضعها ليسترنا بها. لكن نحن محاطات بالشجر من ناحية وبجزء من بقايا خيمة مربوط بين الشجرة والسيارة من ناحية أخرى وبسيارتين مما تبقى من الجهات. وظل أخي ينظر ويتأكد من سدّ كل المنافذ ويقترب ويبتعد ليتأكد أن لا أحد سيكتشف أن خلف هذه السيارات نساء فقلت له: بقيت هذه الناحية يا أخي.. هنا.. هنا.. - وأشارت بيدها إلى السماء.

والسيارات في بلادنا زجاجها مظلل بحيث لا يمكن لأحد أن يعلم ما إذا كان بداخلها أحد أم لا. وكلما صدر قرار بمنع التظليل، عاد الناس إليه من جديد. إذاً المسألة ليست مسألة حجاب، ولا غطاء للوجه. فالمرأة في السيارة محجبة تماماً، لقد أصبحت المسألة إلغاء للوجود. نفي.. دفن في تابوت يتحرك.

أما في مدارس البنين فمن الأسرار التي يحرص على أن يخفيها المراهق أسماء أخواته ووالدته وكل عماته وخالاته ومن لها صلة قرابة به، لأن معرفة أسمائهن تساوت والعار الذي يطأطئ له الرجل رأسه. هكذا يتربى الرجال في تقاليدنا. وتزايدت هذه السلوكيات إلى أن أصبحت شأناً عاماً محموداً بين الجميع يؤكدون على ضرورة المحافظة عليه لأنه من ضمن "خصوصيتنا" كسعوديين.

خصوصيتنا التي تعني ضمن ما تعنيه أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة السلطة التي تعني تحكّم وسيطرة وإلغاء عقل المرأة وإرادتها فلا يتم التعامل معها حتى من قبل بعض مؤسسات الدولة إلا بولي أو محرم مع أن المفترض أن تكون مواطنة مثلها مثل ذلك الولي الذي هو وسيطها في كل أمورها وهذا يعني أنها لا ترتقي إلى مستوى البشر والبشر هم الذكور فقط.

وتعطينا الثقافة الشفوية والمكتوبة تصوراً مفاده أن المجتمع كله ليس مكاناً طيباً مطمئناً يتعايش فيه أعضاؤه بسلام وتواد وتراحم. بل هو مكان الرجال فيه ذئاب مفترسة تتربص بالمرأة وتريد الانقضاض عليها إذا وجدت الفرصة المناسبة.

ونلاحظ أن كتابة بعض الشروط في عقود الزواج لا تحمي المرأة أيضاً. ففي العقد قد يضع – ولي أمرها – شرطاً بأن راتبها كموظفة لها. وأن لا يمنعها زوجها من التعليم أو من العمل. ولكن بعد الزواج تجد كثيرات أن الراتب في الحقيقة ليس لها بالمعنى الفعلي الذي تمت كتابته في العقد. وأن الرجل يستطيع أن يمنعها من العمل بممارسة أنواع مختلفة من الضغوط النفسية إذا شاء. وهذا يعني أنها تخضع لسلطانه فإن عملت أو تعلمت فلأنه وافق وإن امتنعت فلأنه رفض. وليس لها قرارات مستقلة بعيدة عن إرادته وهيمنته. وجاء خطاب التيارات إسلاموية لمجتمعنا مؤصلاً لهذه الهيمنة على المرأة بدعوى الخوف عليها تارة والخوف منها تارة أخرى وفي بعض المواقف نلاحظ الخوفين معاً.

وتحققت هذه الهيمنة أكثر وأكثر من خلال اجتزاء آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تمّ التأكيد على فهم واحد لها وأي فهم غير الذي انطلقوا منه يكون مجانباً للحق إضافة إلى إهمال الآيات والأحاديث الصحيحة التي تشير إلى علو مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي وإلى نصرة الدين لها ومنحه إياها كافة حقوقها. وبهذا كانت الهيمنة ومن

يعترض أو يناقش أو يتساءل عن ما يجاهدون لفرضه على الناس فإنه لا يدخل معهم هم في مواجهة بل مع الدين نفسه باعتبار أنهم الممثلون الحصريون للدين على الأرض.

وظل موضوع المرأة هو الموضوع الأساسي والأول على اللائحة عند الكثير - ولا أقول الجميع - و لم يتصد رموز تلك التيارات لمواضيع أخرى ككثير من المشكلات في المجتمع ومؤسساته المختلفة و لم يحاولوا التأكيد على القيم الإنسانية التي أكد عليها الدين ليرتقوا بالمجتمع من خلال ما يقدمونه باسم الدين. لم يسلطوا الأضواء على الفساد الإداري وبيروقراطية الأنظمة في بعض المؤسسات الحكومية. لم يعالجوا البطالة أو المخدرات أو الفقر - فيما عدا توزيع بعض الصدقات فليست هناك خطط لمعالجة الفقر لتحويل من يتلقى الصدقات إلى منتج فيما بعد - لم ينشغلوا بشيء كانشغالهم بموضوع المرأة. فتارة هي مستهدفة من الخارج عندما يقدم الغرب ضمن وسائل الإعلام ما يقدمه من برامج أياً كان موضوعها. فكلها ليست سوى استدراج للمسلمات حسب زعمهم. وتارة هي مستهدفة من داخل المجتمع ذاته، ففي نظرهم أن بعض أبنائه الذين ينادون بالإنصاف إنما فعلوا ذلك لانتماءاتهم الغربية أو الماسونية أو.. إلخ. ومثال على هذا عندما يناقش موضوع قيادتها للسيارة أو عندما تمّ دمج تعليم البنات بتعليم البنين - برغم أن الدمج لم يتعد حذف مسمى الرئاسة وإعلان الدمج إلى الآن على الأقل - وخوفاً عليها من كل هؤلاء المستهدفين - بكسر الدال - يجب أن ترتفع الأسوار ويُحكم الإغلاق وينوب ولي الأمر عنها في شؤون حياتها. هذا التوتر والانفعال الذي يحدث بسبب القيادة أو الدمج أو أي شأن من شؤون النساء ليسوا فيه مستندين على أدلة شرعية واضحة وثابتة من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم لكي يجزموا بحرمة

الـــدمج أو قيادة السيارة. ويستحيل أن يكون في دين نؤمن أنه من عـــند الله شيء كهذا. لكنهم يعتمدون على التراث الفقهي والثقافي للمجتمع والذي انطلق أساساً من تراكمات قبلية هي بطبيعتها تسعى لفرض هيمنتها على المجتمع كافة بغض النظر عن التفاوت المذهبي أو الفكري أو الطائفي أو البيئي داخل المجتمع الواحد.

في مجتمعـــنا تطالب المرأة بقيادة السيارة فيرفض من يرفض بدعوى ضـــعفها وقلة حيلتها والخوف عليها من أي شيء وكل شيء، وقد كان الـــرفض في الماضـــي يرتكز على مبررات دينية بشكل مكثف. فكانت الفـــتاوى تملأ الدنيا وتشغل الناس بتحريم قيادة المرأة. أما اليوم فإن رفض قـــيادة المـــرأة للسيارة صار يرتكز على أسباب اجتماعية وثقافية تخص عـــادات وتقالـــيد المجتمع السعودي. والمحزن - المحزن لي - أن المعنيين بالـــرفض يـــريدون لتلك العادات والتقاليد أن تبقى إلى الأبد برغم كل الـــتغيرات التي حدثت في المجتمع السعودي. إذاً.. كيف تخلى المعارضون لقـــيادة المرأة عن مبرراتهم الدينية وقد كانوا يعتمدون عليها لمنع القيادة؟ كيف تنازلوا عن كلمة "حرام"؟ لقد فعلوا ذلك لأنهم اكتشفوا أخيراً عدم صـــحة تلك المبررات. ولكن ماذا لو أن امرأة قالت في ذلك الحين الذي كانـــوا يلوحون فيه بالنصوص الشرعية لتحريم القيادة، ماذا لو أنها قالت: استدلالاتكم غير صحيحة وفتواكم خاطئة. ماذا كان سيحل بها.

إن المتحدث عن ضعف المرأة السعودية وقلة حيلتها لم يسمع أو سمـــع وتجاهـــل أن النـــساء في العالم قدن الطائرة وصعدن بالمكوك الفضائي إلى خارج أقطار السماوات والأرض وتخرجن من الكليات العـــسكرية. فهل هم بهذا يتصورون السعوديات من مادة أخرى غير التي خلق الله بها نساء الأرض ورجالها؟ أو أن لها خصائص تختلف بها عن باقي النساء في كل الدنيا. نعم.. يمكن أن يكون الحرمان الطويل مـــن الـــشمس والهـــواء النقـــي قد أضعف أجساد الكثيرات منهن

وشوهها، من الجاني عليهن بهذا؟ وإلى متى تستمر الجناية؟

ولأن المجتمع مغلق على ذاته – يستبدل المجتمع كلمة مغلق ويقول عن نفسه إنه مجتمع محافظ – فإنه يستقبل الأنظمة التي تحدّ من حرية المرأة والفتاوى التي تقيدها أكثر وتجبرها على انتهاج أسلوب معين في حياتها يخالف سائر نساء الكون بحماس عند ظهورها في البداية لكنها أشبه ما تكون بالشائعات التي تلقى الرواج لأن الجمهور يميل إلى تصديقها. ومع مرور الوقت تعود وتخبو بعد خضوعها لتجربة الزمن لتظهر أنظمة أخرى وفتاوى مشابهة جديدة.

أكاد لا أذكر في هذا الصدد عدد المحاضرات التي ألقاها أستاذ جامعي بعينه في كلية التربية للبنات عندما كنت طالبة – قبل أكثر من عشرين سنة من الآن – لكثرتها فما بالكم لو أضفنا عدد محاضرات غيره من الذين كانوا بذات الثقافة التي لا زالت حتى اليوم مهيمنة والتي تبتعد كثيراً عن العلم وترتكز على الدمج بين الخرافة والعادات التي تمّ إلباسها لباس الدين. ومن قال إني بالغت كثيراً إذا قلت – خرافة – فليتذكر معي جانباً واحداً فقط ويدع باقي الأمور. ليتذكر كم الكتيبات والمحاضرات والندوات والمطويات التي انتشرت بين الناس عن الحرب في أفغانستان بين – المسلمين والسوفيات[1] –. ويعلم العقلاء أن الخرافات لا تنتشر بين الناس إلا إذا انحسر العلم وتراجعت مكانته و لم يعد له مساحة في عقولهم.

أثناء تلك المحاضرات التي لا أذكر عددها لكثرتها، كم أكد لنا حينها ذلك الأستاذ الجامعي وغيره من المحاضرين أن رائحة دماء

(1) قلت بين السوفيات والمسلمين لأني لست بصدد الحديث عن الأطراف التي كانت في تلك الحرب ولا عن أسبابها ولاعن نتائجها. فقط أريد أن أستشهد بها كشاهد على قبول المجتمع بكافة أطيافه – يشذ عن القاعدة بعض الناس طبعاً – للخرافات التي كانت تروى بشكل متواصل.

"الشهداء" في أفغانستان أيام الحرب التي آمن الجميع أنها مقدسة كانت كـــرائحة المـــسك أو أزكى. وأن المؤمن هناك يرمي بحفنة تراب على الدبابة السوفياتية فتتفجر، أي أن حفنة التراب في يده تتحول إلى قنبلة. وأن نوراً يخرج من القبور ليلاً فيمتد إلى السماء وأنهم يحفرون القبر على مقاس الرجل وبعد أن يدفنوه يعودون لحفر القبر بعد عدة أيام من الدفن فيجدون القبر متسعاً جداً ورائحته زكية وقد نبتت الزهور في داخله – حيـــنها تـــساءلت ولماذا يعودون لحفر القبر من جديد بعد أن دفنوا فيه رجلاً مات في الحرب. ألم تشغلهم الحرب بويلاتها عن الذهاب والعودة لـــتأمل ما بداخل القبر؟ ولم يجبني أحد حتى اليوم – إلى آخر ما هنالك من خرافات لا يقر بها عاقل، ولكن أقر بها من يفترض أنهم ضمن تجمع للعلم والمعرفة داخل الكليات التربوية للبنات ومن قِبَل أساتذة جامعيين. كان يأتي الأستاذ منهم ليرويها لنا وجميع الطالبات الحاضرات في المدرج – أستطيع هنا أن أقول جميع لكثرة ما تساءلت ونهرني بقسوة عن كثرة الـــسؤال لكي لا أقترف المزيد من الآثام – كن مصدقات يعشن حالة ذهـــول ورهبة وإيمان عميق بأن أفغانستان هذه ينصرها الله دائماً لأن أهلـــها شديدو التدين. هذا عدا تلك المحاضرات التي عن النساء اللواتي هن أكثر أهل النار فتؤمن المتعلمات وغير المتعلمات أن إغضابها لزوجها – لمجـــرد أنه ذكر – ليلة واحدة كفيل بإدخالها النار. مهما كان تقاها شـــديداً ومهمـــا كان فجوره هو شديداً. يكفي أنه زوجها وأنه بات غاضباً لتشوى بذلك في جهنم الحامية. ويذهب هو إلى النعيم مع الحور العـــين. ضمن هذا الإطار كانت تأتي المحاضرات ولا زالت[1]. فإما أن

(1) في لقاء مع أحد رجال الدين في التلفزيون أكد لإحدى السائلات التي اشتكت من بذاءة زوجها العصبي أن احتمالها له سبب في دخولها الجنة. أي أن رجل الدين بدلاً من أن يؤكد للرجل أن الرسول أمر بالنساء خيراً وأن القرآن الكريم يلزمه بعشرتها بالمعروف وأن المودة والرحمة هي الأساس الذي يبنى عليه بيت الزوجية سكت عن أفعال الرجل وانهال على المرأة يعلمها كيف تطرق أبواب الجنة بالصمت إزاء أذى زوجها لها.

تزداد فيه عدد الصور وإما أن تنقص لكنها في النهاية لا تتوانى عن تناول النساء والنار والعذاب. ومن هنا إيمانهن بدونيتهن صار أكبر. وصارت أسئلتهن لتجنب الوقوع في الخطأ الذي سيرمي بهن الله في النار بسببه كثيرة وغريبة أو ساذجة وسخيفة. تساءلن حتى عن وجود (السستة أو السحاب) في ملابسهن هل هو حلال أو حرام - لبس الدبلة دليل الزواج - لبس العدسة الملونة - لبس الحذاء بالكعب العالي - أكل أكثر من سبع تمرات في اليوم أو أقل من ثلاث تمرات - أكل سبع حبات من حبة البركة في اليوم - استخدامات زيت حبة البركة - الحيض. عدد أيامه. لونه. غزارته.. وأسئلة من نوع إذا أراد زوجي أن أطيل شعري ولكن شعري لا يطول فهل عليّ إثم يا شيخ؟ وإذا قال زوجي أريد الفطور فلم أستطع لأني مريضة فهل علي ذنب يا شيخ وإذا لبست الحذاء ذا الكعب العالي فجعلني طويلة بزيادة سبعة سنتيمتر أو خمسة سنتيمترات فهل هذا تغيير لخلق الله يا شيخ؟... إلخ.

لم تكن محاضرة أو اثنتين. ولم يكن يوماً أو اثنين ولم يكن مكاناً أو اثنين. ولم يكن أستاذاً أو اثنين. كل شيء كان كثيراً ومستمراً لسنوات وسنوات. وإلى اليوم. وأذكر في تلك الأيام رواية ترددت في كثير من الأشرطة والكتيبات عن فتاة ماتت ودفنوها. وبعد أن عاد أخوها من المقبرة بحث عن محفظة نقوده فلم يجدها فتذكر أنه عندما كان منحنياً ينزل أخته في قبرها رأى محفظته وهي تسقط من جيبه - لم يلتقط المحفظة حين رآها تسقط - رجع مرة أخرى وحفر القبر من جديد ليسترجع المحفظة. إلى هنا والتكرار بذات الكيفية. وبعد ذلك تتغير الرواية فنجد من يقول في شريط: عندما فتح القبر رأى ثعباناً طويلاً وضخماً في قبرها. ورواية أخرى أنه رأى النار تخرج من القبر.. إلى ما لا نهاية من الروايات. وفي نهاية كل رواية يعدو الشاب إلى أمه ويسألها: رأيت كذا وكذا في القبر فماذا

كانت أختي تصنع. وتكتشف الأم سبب العذاب الذي وقع على ابنتها فتخبره مرة إنها كانت تهمل الصلاة ومرة أنها اكتشفتها تتحدث إلى رجل على الهاتف ومرة إنها كانت تخفف غطاء وجهها.. وتتعدد الأسباب التي ترويها الأم حسب رؤية الراوي ورغبته في التسويق لفكرة ما.

هذه الرواية المتداولة بأشكال مختلفة سمعتها قبل ما يزيد على خمس وعشرين سنة. ولا زلت أسمعها إلى الآن. ولا زالت تأخذ من سامعاتها وقارئاتها كل مأخذ.

ثم ماذا؟ أولئك الطالبات أصبحن أمهات فيما بعد. بعضهن صار ابنها الآن متجاوزاً العشرين من عمره. ولا يمكن أن تكون أي واحدة منهن قد قالت لولدها ذات صباح: هيا يا بني تمنطق بهذا الحزام الناسف وفجّر هنا أو هناك. بالتأكيد ليس هذا ما حدث. ولن يستيقظ الشاب الصغير ذات صباح فجأة ليجد في داخله ومن تلقاء نفسه رغبة جامحة في الانتحار بحزام ناسف أو سيارة مفخخة داخل مبنى أو خلف وزارة أو في مجمّع حكومي. لن يمشي في الشارع فيشعر أن لديه حب القتل والتدمير. ما يحدث هو أنه يتلقى ما يتلقاه من أساتذته. والأمهات المتزمتات يهيئن البيئة المناسبة للتطرف بغلوهن وجهلهن داخل المنازل ويؤكدن لأبنائهن على وجوب التصدر لإصلاح المجتمع الفاسد، متصورات أن كل ما لا يوافق عليه المحاضر في محاضراته القديمة عن المجتمع كله والنساء بشكل خاص فساداً.

مَن مِن أولئك النسوة ستقول عن نفسها إنها مغالية أو متزمتة أو متطرفة؟ كلهن مهما ابتعدن عن وسطية الدين يقلن بوسطيتهن وفهمهن للدين كما أنزل. المذهل أن أولئك المغالين الذين قدموا الغلو في محاضرات عديدة عادوا بعد ظهور موجة الإرهاب ليؤكدوا

موقفهم الرافض بشدة لكل تصرف إرهابي وكأن هؤلاء الشباب الصغار هبطوا علينا من السماء و لم يتربوا على أيديهم بيننا.

هل تغير حالنا الآن عن ما كنا عليه قبل عشرين سنة؟ ليس كثيراً فدائماً هناك صراع يحتدم بين التفكير الناقد وبين ما ألفه الناس، لأن العقل الناقد لا يطمئن إلى المألوف لمجرد أنه مألوف ولا يستريح إلى أمر لأن الناس أجمعوا على الأخذ به ولا يقدس الماضي لمجرد أن الزمن قد مرّ عليه فمرور الزمن على ما سلف ليس دليلاً على صحة أمر ما. إن العقل الناقد بحاجة إلى الاقتناع لأن الأمر مقنع لا لأنه محبب إلى المجتمع أو من ضمن عاداته أو مقدس عند الناس.

أما الفرد من العامة والبسطاء فينظر إلى معالجة أي خلل في المجتمع على أنه نقد له هو شخصياً. أي أنه هو من يُنتقد. فينبري للدفاع ويستميت في تأكيد صحة ما هو عليه داخل مجتمعه وتصبح القضية شخصية بينه وبين الناقد. هكذا يرى الأمور ولهذا لا يوافق على الاعتراف أولاً بوجود خلل ما لأن اعترافه يعني أنه هو شخصياً من سينتقد. ولكن وبرغم هذا التعصب ضد النقد وبمرور الزمان تبدأ المواقف المتعصبة بالتراخي. والأفكار المألوفة بالاختفاء التدريجي إلى أن يصبح العامة أنفسهم الذين اتخذوا موقفاً متشدداً في البداية مع القديم يدافعون من جديد عن شيء آخر كان جديداً في بداياته لكنه صار قديماً فتعصبوا له. ولو سألنا أي مواطن بسيط ما إذا كان موافقاً على أن تعمل ابنته معلمة على بعد مئة كيلومتر من منزله؟ هل يوافق إذا كان هذا هو الخيار الوحيد. سنرى أنه يوافق مع أن المجتمع يرفض خروج المرأة إلا مع محرم لها. وذات المجتمع كان يرفض عمل المرأة جملة وتفصيلاً ثم وافق على عملها في المجتمع النسائي فقط بعد أن كان قد رفض منذ البدايات تعليمها. ثم صار يوافق على أن تسكن بعيداً عن أسرها في القرى التي تعمل بها معلمة أو أن تخرج مع

سائق ليس بمحرم قبل الفجر لتصل إلى المناطق النائية التي تعمل فيها.

يستمر المجتمع في خلق تعصبه مرة تلو أخرى. أي أنه لم يستقبل أي جديـــد ذات مرة بتعقل - خصوصاً فيما يتعلق بالمرأة - لم ينظر إلى أي أمـــر بموضوعية وهدوء. فمن الذي يقوده في طريقة تفكيره هـــذه؟ لمـــاذا يـــرفض ويقاوم ثم ينسى مع الوقت ويستسلم. وبعد الاستسلام يتعامل مع الأشياء التي رفضها وكأنها من ضمن أساسيات حياته؟ وقد لا نستطيع حصر عدد الأفكار والأشياء التي قال المجتمع بحرمتها أو بعدم جوازها ثم عاد واستغفر ربه ووافق عليها بعد مرور الـــوقت. وهذا الوقت يطول ويقصر حسب مساحة القناعة بالتحريم في عقـــول الناس. ويعرف جيلي والجيل الذي سبقني أن كتب الفقه الـــتي درسناها كانت تؤكد على تحريم التصوير. ولا تزال بقايا ذلك التحـــريم ماثلة أمامنا في وضع خط يقطع رقبة كل صورة ترسمها أي طفلـــة في المرحلة الابتدائية. إذاً.. درسنا وحفظنا عن ظهر قلب أن الـــصور والتـــصوير ورسم ذوات الأرواح حرام. فالتلفزيون وجاء الفـــيديو.. ثم جـــاءت الكاميرات وأغرقت الأسواق بنوعيات ذات جـــودة عالية.. وانتقلنا إلى كاميرات الديجيتل وجاءت الأجهزة تلو الأجهزة إلى أن صار البلوتوث حتى مع المراهقين والأطفال.

كـــان التحـــريم في بداياته دليلاً على عدم القدرة على استقراء المـــستقبل القريب. أو عدم القدرة على متابعة الواقع المعاش على أقل تقديـــر؟ أم كانت محاولات مستميتة لغلق المجتمع وعزله وإبعاده عن كـــل ما يمت للتكنولوجيا بصلة؟ باعتبار أن وجود التكنولوجيا يغير ولو ببطء شديد بعض عادات الناس وبالتالي أفكارهم.

ربمـــا تكـــون الدراجة من أوائل ما رفضه الناس في الماضي. إذ كانت أول ما ظهرت تدعى بـــ (دابة بليس) ثم توالت الأشياء، تبقى محـــرمة علـــى المـــستوى الاجتماعي وأحياناً على مستوى المؤسسة

الدينـــية. ثم تطوى صفحة التحريم لتُفتح صفحة أخرى ضد فكرة أو منـــتج آخـــر. حتى لعب الأطفال وعرائس البنات الصغيرات مع أنها مجـــرد عرائس للصغيرات، وأفلام الكرتون ومسلسلات التلفزيون، لم تـــسلم من فتاوى التحريم وبعد عدة شهور أو سنوات ينسى الجميع حرمتها وتصبح حلالاً. وبسبب التحريم تظهر البدائل الغربية. فانتشر بـــيع العـــرائس التي بدون ملامح وكأنها أمساخ، أخبرني البائع أنها عروســـة إســـلامية. يـــا للعجب. هل نسمي هذا الأمر – أسلمة العرائس؟ لو أن الأمر يرتبط بالباعة والبسطاء من المشترين لما تناولت الموضوع هنا. لكن ما حدث جاء وفق رؤى تيارات بعينها تقول إن همها أن يعلو الإسلام وينتصر على أعدائه. فهل يتم تحرير القدس إذا حاربوا العرائس العادية وقاموا بنشر العرائس "الإسلامية".

يقـــبل الـــناس على مثل هذه الأشياء بفرح لأنها في ظنهم هي الحلال ولأنهم أخيراً عرفوا أن ما كانوا عليه حرام وابتعدوا عنه. ظهر الآن الفـــرح الإســـلامي بحيث يتحول الحفل إلى محاضرة تهدد بالنار والخلود فيها لمن فعلت كذا وكذا – ولا أدري كيف تكون المحاضرة فرحاً. وظهر "طلاء الأظافر الإسلامي" فهل انطلق من سمى نوعاً من طلاء الأظافر للأطفال بهذه التسمية من ذات الفكرة؟ فكرة أن إعلاء الإسلام تنطلق من أسلمة أدوات الزينة وأسلمة العرائس وما شابهها؟

علـــى أن للأســـلمة في مجالات التقنية والعلوم الحديثة المختلفة دلالـــة واضحة على الاعتراف بتفوق الآخر وتغلغل إحساس عميق بـــرفض هـــذا التفوق. وصاحب هذا الرفض عجز تماماً عن الإبداع والإتـــيان بما أتى به ذلك المتفوق. ولهذا ابتدع الأسلمة. وأسلمة أي منـــتج لا تعني إضافة مزيد من البحث والتطوير. بل تعني تغيير بعض الأسمـــاء والكلمات فيصبح المنتج متأسلماً. وكأن التقنية والعلوم قبل تلك التغييرات كانت كافرة ثم تمت أسلمتها.

إن العلـــوم الحديثة نسبياً كعلم النفس والأنثروبولوجيا مثلاً تناولت بالدراســـة والبحث مجتمعات عديد في مختلف القارات. والباحث فيها يتناسى عقائده وميوله الخاصة ويتسامى عليها ويرتبط بموضوع الدراسة في موضــــوعية وتجرد. والعلم المعاصر ليس مجنساً. والكتاب في أي علم لـــيس حكراًعلى لغة ولا دين ولا دولة. إنه علم عام يتعالى على الأطر الاجتماعي الضيقة. يتلقاه التلاميذ من الأساتذة فيضيفون جيلاً بعد جيل دون أن تتدخل الحدود السياسية أو الأيديولوجيات – التي سلبت العقول قدرتها على التجرد والموضوعية – في نـــزاة العالم الحقيقي. وليس هناك ثقافة نقية تماماً لجماعة ما منذ بدايات التاريخ البشري وإلى أن يرث الله الأرض ومـــن علـــيها. فالثقافات في حالة تأثر وتأثير مستمر – باستثناء وجـــود جماعات بدائية منعزلة تماماً –. وهذا يعني أن العلوم والمنجزات الإنـــسانية تنـــتقل في مشرق الأرض ومغربها وأن الثقافات والعلوم على اخـــتلافها في تداخل مستمر عبر التاريخ. وهذا يعني أن المعرفة والفكر ليـــست ذات هوية خاصة بها بل هي تراث إنساني للبشرية كلها نتجت عن عملية المثاقفة المستمرة والتلاقح المتواصل للحضارات عبر العصور.

وعـــندما أخـــذت أوروبـــا عن المسلمين الشيء الكثير من علـــومهم ومعارفهم ونتاج عقولهم وترجماتهم وحضاراتهم في وقت تفوقهم، لم يكن من المقبول أن تتم "أوروبا" تلك العلوم أي جعلها أوروبـــية. أو نـــصرنتها. لقد أخذوها دون تسميات تنـــزع عنها الاعتـــراف لأهـــل الفضل فيها. ثم أضافوا وأضافوا حتى جعلوا تلك المعارف والعلوم أضعاف ما كانت عليه آلاف المرات.

وإذا نظـــرنا إلى الـــيابان رأينا نهضتها الحديثة بسبب استفادتها من تراكمات الخبرات الإنسانية وليس بسبب العلم الياباني بمعزل عن العلوم الغربية. وهذا ينطبق على كل الشعوب التي بدأت في النهوض في العصر الحديث.

الرجال للمدح والـــ "حريم" للـــ "لدح"، مثل محلي.

عاش المجتمع في الجزيرة العربية قروناً عديدة وفق عادات وتقاليد تحدّ من حرية الإنسان الشخصية بشكل عام، ولكن كانت كل تلك التقالـــيد وإن هي قاسية في كثير من الأوقات بريئة من الشك الذي حـــوّل مجتمع كامل إلى التزمت والتشدد والتعسير بدلاً من التيسير. هذا الشك ولّد العديد من التدابير الاحترازية لحماية الناس بعضها من بعـــض. ومن تلك التدابير إنشاء مؤسسات يدخل ضمن مسؤولياتها الحدّ من الحرية الشخصية للفرد.

حرّم الله سبحان وتعالى الزنا ووضح عقوبة الزانية والزاني في كتابه العزيـــز وأمر المؤمنين والمؤمنات بغضّ البصر وحفظ الفرج. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّـــهَ خَـــبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ (سورة النور، 30 – 31). نلاحـــظ أن الله تعـــالى أمر الذكور أولاً قبل النساء بغضّ البـــصر. ونلاحـــظ أيضاً أن الآية تقرأ وتكتب مجتزأة عند بعض الدعاة والفقهـــاء فيـــبدأ من عند ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾ وكأن النص القرآني لم يبدأ بالتنبيه على الذكر بضرورة غضّ البصر.

وأمر كذلك بحفظ الفرج للرجال والنساء. وطالب المرأة أن لا تظهـــر زينـــتها إلا مـــا ظهر منها – وما ظهر منها هذه اختلف في تفسيرها المفسرون – على أن تفسير المفسرين على أهميته يبقى تفسيراً

لبـــشر. وكل بشر لن يكون إلا بشراً مهما علت مكانته. ويمكن أن يقبل الاختلاف بين المفسرين في فهم الآيات.

وكـــان يمكن أن لا يكون في الآية استثناء. كان يمكن أن تأمر الآية المؤمنات بأن لا يبدين زينتهن فقط. وتسكت إلى هنا فلا يكون فـــيها ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. فيصبح إبداء الزينة ممنوعاً على الإطلاق – كما يحدث الآن بارتداء بعض النساء العباءة السوداء الواسعة وغطاء الـــوجه الكثـــيف والجوارب السوداء وكفوف في اليدين سوداء فلا يظهـــر مـــنها شيء على الإطلاق – لكن الآية استثنت ما يظهر من الـــزينة. والزينة لن تظهر بمعزل عن المرأة. أي لن يظهر الخاتم مثلاً في صندوق المجوهرات ملقى على قارعة الطريق، بل ستظهر معه الكف التي هو زينة فيها بالضرورة. ولن يظهر كحل العين في شنطة يد المرأة كزينة بل في عينيها.

إن غـــض البصر للرجال لا يعني أن يبقى الرجل خلف الأسوار لكـــي يكون قادراً على تطبيق الآية التي تأمره بشكل صريح وواضح بهذا الأمر. ولم يجد الفقهاء حاجة إلى سدّ الذرائع في هذا الباب. لذا بقيت حياة الذكور طبيعية. وبحثوا في كيفية منع النساء من الحياة.

إن غـــضّ البـــصر الواردة في النص تعني أن ينشغل كل طرف بنفـــسه ومـــشاغله من الذكور والإناث. وأن لا يلاحق أحدٌ أحداً بنظراته المتطفلة. وهذه مدنية ورقي وآداب في التعامل وتهذيب سبقنا إلى تطبـــيقها كثير من الأمم وبقي مجتمعنا يعلن عن عدم قدرته على الالتـــزام بـــتلك الآداب التي جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً. وكـــنت أتمـــنى أن يصل كل الرجال في شرقنا[1] إلى فهم هذه الآية

(1) يلاحظ الذين سافروا خارج البلاد أن الناس في المجتمعات المتمدنة لا يطيلون النظر في من حولهم في الأسواق والأماكن العامة. بل يكادون لا ينظرون أصلاً إلى بعضهم من باب عدم التدخل في شؤون الآخرين وملاحقتهم بالنظرات.

والإحساس بجمالها وما تتضمنه من معان عميقة ترتقي بمن يلتزم بها وتشعره بذاته السامية الطاهرة. ولكن بدلاً من هذا، تفتقت أذهان بعضهم إلى أن إبعاد المرأة عن مجالات الحياة هو الحل الأمثل بدلاً من الجهد في تطبيق الآية الكريمة. وبهذا صار كثير من الرجال بدلاً من أن يتعلموا غضّ البصر والتأدب بما أمر به الله تعالى، يتلصصون ويبحثون عن الفرصة التي ينظرون فيها إلى امرأة. أي أن الرجل يظل متطلعاً إلى الفوز بنظرة من هنا أو هناك – أيضاً لا أتحدث عن الجميع لكني أزعم أن أغلبية لديها الرغبة في رؤية المرأة وإطالة النظر إليها بحكم التربية على ذلك –.

لقد قرر المجتمع أن يطبق قاعدة "لا تزرعوا العنب لكي لا يصنع منه أحد خمراً" فالخمر حرام. ولهذا سيصبح العنب حرام لأن الخمر يصنع من العنب. وكل ما يمكن استخدامه لصناعة أو شرب الخمر سيصبح أيضاً حراماً. حتى الكؤوس صناعتها واقتناؤها حرام، إذ لربما سكب أحدهم فيها بدل اللبن خمراً!

ومن هنا، وخوفاً من الزنا الذي هو في نص كتاب الله محرم صار كشف وجه المرأة محرماً وخروجها محرماً وقيادة السيارة محرم... إلخ.

ووفقاً لهذه القاعدة ستكون الحياة كلها مغلقة إذ إن كل شيء يمكن أن يكون ذريعة لشيء يؤدي إلى حرام أو خطر أو ممنوع أو غير جائز. تماماً كعلاقة المرأة بالحياة كاملة. والتي كان يمكن أن تسن القوانين بشكل أفضل لتحمي المجتمع كله وليست المرأة فقط ولكن تمّ تفضيل تحريم مشاركتها.

السيارة يمكن أن تكون قاتلة. والقتل حرام... والنافذة يمكن أن يدخل منها لص والسرقة حرام.. إلخ. وهذا يعني أن نحرّم شراء واستعمال السيارات ونحرم إبقاء فتحات النوافذ في الحائط عند إنشاء

المــباني... إلخ وبهذه القاعدة يمكن أن يسدوا كل ذريعة ولا يتركوا شــيئاً لأحد. حرصاً على أن يغلقوا كل منفذ قد يؤدي فيما بعد إلى أمر محرم.. وبهذا يتمكنون من إغلاق الحياة.

لكن هذا سيغلق الحياة على الرجل أيضاً.. لهذا اكتفوا بالنظر فيما يخص النساء وحرموا كل أمرٍ يرون أنه لربما كان منفذاً إلى محرم.

هذه المبالغات التي ما أُنــزل الله بها من سلطان هي التي تمارس ضد النساء وهي تشويه لدين الله الذي جاء باليسر لا بالعسر. وهي اتهام غير مباشر للدين – الذي اكتمل قبل وفاة رسول الله صلى الله علــيه وسلم – بالنقص والعياذ بالله. وحرصت جماعات بعينها على إكمالــه. وانطلاقــاً من هذه القاعدة التي تغلق الأبواب أمام الناس خــوفاً مــن وجود ذريعة إلى أمر قد.. قد يؤدي إلى حرام. امتنعت الرئاســة العامــة لرعاية الشباب من رعاية الشابات من النساء. ولا حــتى العجائــز منهن. وظلت المرأة خارج دائرة الاهتمام والرعاية بشكل مؤسساتي. أو بأي شكل آخر.

ظلــت **الأندية الرياضية** الخاصة بالمرأة حلماً يراودها إلى يومنا هــذا. والآن تتستر بعض الأندية خلف أسماءٍ مستعارة. إذ إنها على قلــتها ونــدرتها وغلائها الفاحش لا تعلن عنٌ نفسها كنواد رياضية نــسائية. بــل تسمى نوادٍ صحية خوفاً من المنع والتحريم. فــتعلن تلك النوادي للجهاتٍ المانعة أنها فقط من أجل المريضات من النــساء اللواتي يتطلب علاجهن التواجد في نادٍ يهتم بالجسد... ويا للعجب..

المــرأة الــتي **لا** يعترفون بعقلها، فيرونه دون عقل الرجل. ولا يــبالون بمشاعرها عندما سجنوها ولا بأحلامها ولا برغبتها في إثراء خبرتها ووعيها. لا يروها إلا جسداً لإمتاع الرجل. صاروا حتى هذا الجسد الذي لا يأبهون إلا له يرفضون أن يمارس الرياضة.

يقول الدكتور محمد السيف (لوحظ من تحليل بعض الدراسات الاجتماعـــية التطبيقـــية أن الفتاة السعودية من عمر 18 إلى 24 عاما تنتهج في برنامجها اليومي سياسة تضييع الوقت باستخدام السيارة أو الهاتـــف أو مشاهدة التلفاز أو الاستماع للأشرطة الغنائية أو الخروج للأسواق بدون حاجة)[1] وهذا يعني أن مجالات التسلية البريئة وقضاء وقت الفراغ أو تنمية الهوايات الرياضية أو الاهتمام بالصحة والعناية بالـــبدن والـــثقافة كلها غير ممكنة. والممكن هو الهاتف والأشرطة والتلفزيون والأسواق.

إن القـــدرة علـــى ضبط مدارس البنات في جميع أنحاء المملكة. والقـــدرة على خلق احترام كامل داخل المجتمع كله لمدارس البنات. والـــثقة المطلقـــة في قدرات القائمات عليها لحفظ النظام والانضباط واتباع التعليمات لم يكن كل هذا سبباً في تصور نجاح أندية نسائية رياضـــية خاصـــة بـــإدارة نساء. ولا أدري ما الفرق. فكيف يثق الشخص بمديرة المدرسة صباحاً ويرسل ابنته إليها كل يوم. ثم لا يثق لـــو أن ذات المديرة تدير نادياً رياضياً عصراً؟ ماذا لو أن النادي جزء مـــن المدرســـة. ماذا لو أن في كل مدرسة معدات داخل حجرات واسعة مغلقة تفتح في أوقات محددة. بالإضافة إلى وجود سيدة تعمل مدربة. وراتب إضافي لذات الحارس الذي يحرس المدرسة كل صباح؟ مـــاذا لو أن راتب الحارس والمدربة وقيمة المعدات تستقطع من قيمة الاشـــتراكات التي تدفعها الراغبات في الالتحاق بالنادي؟ هل يرى المجـــتمع حينها أن الرياضة حرام على النساء؟ وهل سيمانع الآباء من حضور بناهم إلى النادي الرياضي النسائي؟ وهل ستصدر أيضاً فتاوى تحرم ممارسة النساء للرياضة؟ للحق أني لن أستغرب لو سمعنا بمن يحرم

---

(1) الدكتور محمد السيف، مدخل إلى دراسة المجتمع السعودي، ص 269.

علـــى النساء أكل نوع من الطعام يحل للرجال أكله. وإلا فما سبب تحريم الرياضة في مدارس تعليم البنات.

ومـــن ضمن ما تمّ منعه أو تحريمه أو تجريمه أن تبيع المرأة ملابس المـــرأة وأن تبيع المرأة عطورات المرأة وأدوات زينتها. على أن بعض المحلات الآن وظّفت نساء إلا أن أمر المنع ظل ردحاً من الزمان، وإلى الآن. وبقـــيت النساء تشتري من الرجال حاجاتهن التي لا تريد المرأة أن يـــراها أخـــوها، فما بالنا بالغرباء. أما هؤلاء المانعون ومن يؤيد موقفهم فإني دائمة التساؤل عن أحوالهم.. هل يذهبون بأنفسهم إلى البائع ثم يصفون له حجم أجساد نسائهم ليشتروا ملابسهم الداخلية؟ أم أن نـــساءهم يذهبن إلى البائع بأنفسهن؟ أم أنهن لا يرتدين ملابساً تحـــت ثيابهن الخارجية؟ ولا أدري ما المعنى من منع النساء من العمل في محلات لا تبيع إلا لوازم نسائية تخصهن. ولا أدري أيضاً ما الفائدة من لبس العباءة من أجل الستر ثم تحدد المرأة للبائع الرجل مقاساتها في مـــناطق محـــددة من جسدها لتشتري ما تحتاج فتصف ما تريد وما يناســـبها ولـــونه ونوع قماشه... إلخ. أي ستر بعد تلك المقاسات الدقـــيقة عـــن جسدها؟ كيف جرم المجتمع بيع المرأة للمرأة ووافق العقـــلاء على أمر كهذا طوال السنوات الماضية؟ ألا يعطينا هذا دليلاً على أن بعض الرؤى تكون خاطئة حتى وإن أجمع عليها كثيرون؟

حـــدث هـــذا لأن الذكـــر يريد احتكار البيع والشراء والتجارة وشطب في عرف المجتمع وتقاليده النساء. ولا تريد بعض تياراته الدينية أن تجعلـــه مـــن الأمور المسموح بها للمرأة – ليس إلا لفرض مزيد من الوصاية والقمع – واعتبروا أن القيام بها من قبل النساء أمراً دخيلاً على مجتمع لا يريد أن تتحرك المرأة. وأقول شطب، لأن نساء الجنوب كانت لهـــن أسواق لا زالت بقاياها حتى الآن وسوق الثلاثاء في أبها من تلك البقايا. وكانت المرأة تبيع ما تنتج بنفسها والرجل يشتري ما أنتجته.

يقول "نوبوأكي نوتوهارا" (نحن في اليابان عرفنا تجربة طويلة مع القمـــع وعانينا من كافة أشكاله في تاريخنا. وحتى بعد الحرب العالمية اســـتمرت مظاهـــر القمـــع في الحياة الاجتماعية اليابانية. بعد ذلك الـــتاريخ المريـــر الطـــويل علمنا من تجاربنا وعرفنا كيف نتصرف بمـــسؤولية تجـــاه تجاه الآخرين. لقد اجتزنا مسافة طويلة على طريق الحـــياة ومـــا زلنا نعمل بدأب لكي نتحرر من رواسب القمع التي ورثناها عن ماضينا)[1].

أمـــا نحـــن. فنبارك قمع المجتمع لأعضائه ونلبس القمع اللباس الشرعي ليتم إسكات كل من يقول بعدم جوازه.

(1) العرب، وجهة نظر يابانية، ص 29.

هل جاء الإسلام

من أجل الرجال فقط؟؟

في حديث عن ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «سووا بين أولادكم في العطية، ولو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء" فتح الباري، ج 5.

عندما يسمع البسطاء كلمة حرية يتبادر إلى أذهانهم أنها الانحلال والبعد عن القيم. مع أن المعنى الصريح للحرية هو الانعتاق من الاستعباد والذل. وعندما ترد كلمة المساواة يتساءلون عن الحمل والولادة الذي لا يستطيع الرجل القيام به. وكأن المطلوب هو أن يصبح الرجل امرأة وتصبح المرأة رجلاً. غير مدركين أن المساواة لا تعني تغيير الفروقات البيولوجية بين المرأة والرجل ولا تعني إلغاء الجنس. فتميز المرأة بإمكانية تخلق الحياة في أحشائها يجعلها ذات بعد حياتي أعمق من الرجل ولوجودها قيمة أكبر من قيمته – من وجهة نظري –. والمرأة المسترجلة محتقرة والرجل المخنث محتقر. والإسلام فضّل برّ الأم – وهي الأنثى – على برّ الأب – وهو الذكر – بثلاث درجات وليست درجة واحدة وذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال: «أمك ثم أمك ثم أمك».. وبعدها قال السائل: ثم من. قال: «ثم أبوك».

إن المساواة تعني عدم سلب الحقوق. وتعني إلغاء التمييز والاضطهاد والعنف وعدم تحجيم المرأة وحرمانها من حقوقها ومنعها

مــن فــرص العمل والحياة والمشاركة في البناء والإنتاج. وتعني عدم مــنعها مــن رفع كفاءتها وثقتها بنفسها وقدراتها وتفعيل مشاركتها لأداء الأدوار ذات القــيمة في المجــتمع. وتعــني أن يكون الإنسان إنــساناً.. مسؤولاً عن ذاته متحملاً نتائج قراراته سواء كان أنثى أو ذكر.

لقد آمن المجتمع الدولي بأن التنمية الكاملة والمستمرة لا تتحقق إلا بمساهمة المرأة مساهمة حقيقية. وهذه المساهمة لا تتحقق إلا بإلغاء التمييــز والعــنف والظلم ضد النساء. وهذا الإلغاء لا يتحقق إذا تمّ تجزيء قيم العدالة والاحترام وحقوق الإنسان وجعلها تقاس بمكيالين واحد للرجال وآخر يخص النساء.

إن الإنسان إنسان. وحقوق الإنسان حقوق للإنسان. والكرامة الإنــسانية كرامة إنسانية. أما الظلم فهو ظلم. ولا يكون إلا ظلماً. ولو أن أحدهم مُنع من تقدير معين أو قرار معين أو تحرك معين لمجرد أنه رجل. لهاج المجتمع وماجٍ. أما منع المرأة من أي قرار تتخذه أو أي أمر تقوم به فإنه ليس ظلماً. ويا للمقاييس.

عــندما يــبلغ الذكر ثماني عشرة سنة أو أكثر قليلاً في مجتمعنا يــتوقف تــدخل الأب في حياته ويبدأ بصحبته. وعندما تبلغ الأنثى ثلاثــين أو أربعين أو خمسين عاماً فلن يستغرب أحد أن يتخذ الأب قــراراً بشأنها ولن يستغرب أحد أيضاً لو ردد الأب عبارة (بنتي وأنا حرّ فيها).

إن تدريب الرجل على أن يمقت التسلط والعنف والقهر والظلم وتــربيته علــى أن يكون أكثر جمالاً من الداخل بحيث يحصل على التوازن الداخلي الذي يجعله لا يرى تفوقه من خلال الاستعلاء على غيره وإنما يحقق تفوقه بشكل مستقل. إن هذا التدريب وهذه التربية ربما تكون من أصعب الأمور التي سيحاول المجتمع الوصول إليها يوماً

مـــا[1]. إن الرجل الذي يقمع المرأة ويعزلها ويلغيها حرصاً منه على سـلطته وتفـوقها يـشبه الطالب البليد الذي يرغب في أن يرسب الطلاب ليكون بنجاحه الذي يقترب من حافة الرسوب علامة بارزة بـين أقرانه. أما التفوق الحقيقي فصاحبه يفرح بنجاح الآخرين معه. ولا يتمنى لهم الفشل لكي يشعر بتميزه.

عندما خلق اللهُ سبحانه وتعالى الإنسانَ حملت المرأة الأمانة كما حملـها الـرجل و لم ينفـرد بها الرجل دون المرأة. وعندما جاءت الرسـالات الـسماوية لم تكـن التكاليف للرجال فقط بل النساء مطالبات بما طولب به الرجال. وعند الحساب والجزاء يوم الدين لن يـتم التغاضـي عن تقصير المرأة في أمر من الأمور التي أمر بها الدين ويُحاسـب الرجل. ستُحاسب على أعمالها مثله تماماً ويحاسب على أعماله مثلها تماماً.

إذاً.. المرأة والرجل يحملان الأمانة. والمرأة والرجل مكلفان بما أتـت به الرسالات السماوية وآخرها الإسلام الذي لم يستثنها على الإطـلاق مـن أي عبادة من العبادات. حتى الحج وبرغم ما فيه من تكاليف مادية ومشقة جسدية وسفر واغتراب للمسلمات اللواتي في أصـقاع الأرض البعيدة، المرأة كالرجل فيه تماماً. كذلك لن يتساهل معها الله يوم القيامة إن تهاونت في حدّ من حدوده. إذاً هما يحاسبان علـى التقصير كل حسب ما قدم. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَـى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل، 97) لا فرق عند الله تعالى فالعمل الصالح صالح. سواء جاء من امرأة أو من رجل.

(1) أعلم أن المسافة الزمنية بيننا وبين هذا الأمر بعيدة جداً. لكني أؤمن أيضاً أنها قادمة في أجيال ستأتي بعدنا.

فـــإذا كانـــت المرأة بطبيعة تكوينها الذي خلقها الله به – كما يزعم كثيرون – أقل في قدراتها العقلية. أو – على أحسن تقدير من بعـــضهم – تغلـــبها عواطفها في المواقف التي يجب أن يتصدر فيها العقـــل، فلماذا كلّفها الله وحمّلها الأمانة كالرجل ولماذا سيحاسبها تمامـــاً كما يحاسب الرجل؟ ألا يمكن لهذه المخلوقة الهشة الضعيفة أن تغلـــبها عـــواطفها – بما أن عاطفتها أقوى من عقلها – وتستسلم لإغـــواء الشيطان بطريقة أسهل من الرجل فلا تصوم رمضان مثلاً. أليـــست عواطفها التي تسيطر عليها دائماً وليس عقلها. إذاً عواطفها هـــي الـــتي ستجعلها تستجيب لإغواء الشيطان في كل أمور الحياة. فكيف سيحاسبها الله بذات الحساب الذي سيحاسب به الرجل وهو لم يحررها من عواطفها التي تغلبها؟ أليست حجة الرافضين لخروجها والـــتي ملأت كتبهم ومجلاتهم الدعوية وكثير من الأشرطة والكتيبات والمطويات والمحاضرات هي الخوف عليها لأنها ستنجرف إلى الخطيئة بـــسبب غلـــبة عاطفتها على عقلها. هل يرى كل هؤلاء بأن الدين الـــذي من عند الله قد كلفها فوق قدراتها عندما ساواها بالرجل في التكليف وحمل الأمانة؟

يقـــول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَـــنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَـــانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُـــشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ...﴾ (سورة الفتح، 5 – 6). نلاحظ أن الـــثواب والعـــذاب لا يـــستثني المرأة. ولا يقول بأنه أقل مما سيلقى الرجل.

ألـــيس الله بأعـــدل العادلين وأحكم الحاكمين؟ فكيف يكلفها ويحملـــها الأمانة ويحاسبها كالرجل تماماً ولا يراعي ما بها من نقص في العقـــل وضعف في الشخصية وغلبة للعواطف؟ **إذا كانت سهلة**

الانقياد عاطفية المزاج لا تحتكم إلى العقل بل إلى العاطفة فإن تهاونها في العـــبادات يتوافق وهذه الطبيعة التي هي عليها – كما زعموا – وهـــذا يعـــني أن يُعفيها الله من الحساب إن لم تعبده كما يجب لأن الشيطان سيتمكن منها أسرع من تمكنه من الرجل وما دامت كذلك – وفق ما تصوروه عن المرأة – يجب أن لا تحاسب إن أقدمت على فاحـــشة الزنا كحساب الرجل. بل على الله تعالى – وفق ما زعموا أيضاً – أن يخفف من حسابها كثيراً لأن عاطفتها التي تغلبها جعلتها تستسلم للرذيلة – وعاطفتها تلك هي سبب إصرار القوم على غلق الأبواب دونها وإبعادها عن معترك الحياة.

أي أنهـــم انتبهوا إلى هذه الطبيعة فيها فراعوها بينما لم يراعِها الدين الحنيف الذي جاء من عند الله عندما كلفها بكل التكاليف الَتي يكلف بها المسلم!. وهذا يعني أن لا يعلن محمد صلى الله عليه وسلم مـــن على المنبر بأن فاطمة بنت محمد لو سرقت لقطع يدها ففاطمة ككل النساء أضعف عقلاً من الرجال وأكثر عاطفة وبالتالي يجب أن يكتفي بقطع إصبع فقط لكي يتوافق العقاب مع قدرات الجاني.

العقل يقول: إن الطفل إذا أخطأ فليس كالراشد لأنه طفل وهذا يعـــني أن لا يتلقى ذات العقاب. وبالتالي فإن ذوات العاطفة يجب – وفق إصرار المجتمع على عاطفيتها – يجب أن تتم مراعاة حالتها عند إصدار الأحكام ضدها إن خالفت في أي أمر.

هل هذا ما حدث فعلاً؟ الجميع يعلم أن الدين ساوى في الثواب والعقـــاب بين النساء والرجال. فهل ظلم الله المرأة الضعيفة العاطفية بذلك؟

﴿... وَمَـــا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت، 46).. نفى الله الظلـــم عـــن نفسه سبحانه وتعالى وآمنّا إيماناً كاملاً لا يخالجه شك بعدلـــه، وعلمنا أن من مقتضيات العدل أن يُحاسب المخطئ ويُكافأ

المصيب كل حسب ما قدم ضمن حدود قدراته التي خلقه الله تعالى عليها.

أن الله لـــن يحمّل الإنسان فوق طاقته ولن تكون المرأة مساوية للرجل في كل هذه التكاليف لو أنه خلقها أقل في قدراتها وأضعف في شخـــصيتها. فهل نحن حقاً مؤمنون بعدل الله تعالى وحكمته أم أنها كلمات نرددها بألسنتنا فإذا جاء التطبيق اختلف الأمر ورأينا النساء أقل من أن يحملن الأمانة التي تعني المشاركة في مجالات الحياة بكل ما فيها من أجل إعمار الأرض؟

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّـــي لاَ أُضِـــيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْـــضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِـــنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (سورة آل عمران، 195).

في الآيـــة دلـــيل واضح على المساواة بين الأنثى والذكر وعدم التمييز ضد الأنثى في العمل وفي الأجر وفيه دليل آخر بأنها تكون ممن هاجـــروا وقاتلوا وقتلوا في سبيل الله. وليس الرجل وحده هو الذي يهاجـــر ويقاتل ويقتل. فأي عاطفة يخاف القوم من غلبتها على المرأة فيـــسجنونها ويـــبعدونها عـــن الحياة بسببها؟ ويمارسون ضغوطهم وقـــسوتهم على نسائهم انطلاقاً من كونها ذات تكوين نفسي وعقلي خاص؟

ولأن الله مطلق العدل فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الـــصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (سورة النساء، 124).

لم يميـــز نص الآية الكريمة بين الصالحات التي يقوم بها الرجال والـــصالحات التي تقوم بها النساء. بل أكد على أن العمل الصالح في هذه الدنيا يكافأ صاحبه بالجنة يوم الحساب دون تفريق أو تمييز. فقط اعملوا الصالحات.

هل خصصت الآية كلمة صالح بالعبادات فقط؟ لم يحدث هذا إذ إن الـــصالح من كل ما يقوم به الإنسان في هذه الدنيا من العمل والتعلم والمعاملة والعبادة في السر والعلن. كلها سيحاسب عليها دون اســـتثناء. فكـــيف صارت للمرأة أحوال مختلفة في المجتمع تحدد لها وضـــعها وتحد من قدراتها ثم يتهمون الإسلام بأنه هو الذي وضعها ضمن هذا المستوى المتدني بسبب طبيعتها العاطفية المزعومة؟

في الـــثقافة العـــربية بـــشكل عام يتوارث الذكور مفاهيم عن الذكـــورة مـــؤداها القـــسوة وخشونة التصرف والسيطرة وارتفاع الـــصوت وغـــير ذلك من التصرفات التي تخرج عن اللياقة وتهذيب الطـــباع ولا تلـــيق إلا بالهمجـــي الذي لا تزال البدائية والفوضى تـــسيطران علـــى طرائق الحياة كلها عنده. وتتوارث النساء في ذات الثقافة مفاهيم عن الأنوثة مؤداها الخنوع والضعف والخوف وسرعة الـــبكاء وقلة الحيلة. فتنطلق تصرفاتهم، إناثاً وذكوراً، مما تشبعت به عقـــولهم من معان تصور نوع الجنس. إذاً.. غلبة العاطفة وقلة الخبرة ليـــست خلقة ضمن جينات النساء دون الرجال. بل هي تربية تتربى علـــيها المرأة والرجل. فتنظر المرأة إلى نفسها وينظر إليها الرجل على أنها أقل منه دائماً وفي كل حال.

وعلى افتراض ظهور عقرب أو فأر أو حية أو لص في المنـــزل فـــإن على الرجل مواجهة الموقف ومعالجة الأمر مهما كان شعوره بالخوف عظيماً، وعلى المرأة إبداء الهلع والخوف حتى وإن كان الأمر لا يـــستدعي هلعها. فإن أظهر الرجل خوفه تناقص قدر رجولته في

عينيها وعيني نفسه وإن لم تخف هي وأظهرت شجاعتها، تناقص قدر أنوثـــتها في عينه وفي عين نفسها. حتى أن العوام دائمو التعليق على الطفل الذكر إذا بكى للتأكيد عليه بأن البكاء ليس للرجال بل للـــ (حريم فقط) فيحبس دموعه بعد هذا التنبيه ويتعلم أن لا يبكي ما دام حياً إلا إذا أغلق الأبواب على نفسه بحيث لا يراه أحد.

ونـــشاهد بوضوح عند كثير من النساء تدني احترامها لذاتها، كمـــا ونلاحـــظ افتقار المرأة إلى الثقة بالمرأة. ليس هذا وحسب بل وتعاني النساء من تسلط النساء.

وهـــذه ثـــلاث مشكلات متداخلة، أوجدتها طريقة التربية التي تخضع لها النساء بشكل عام.

كثيرة هي الشواهد على افتقار المرأة إلى الثقة بالمرأة وكثيرة هي التصرفات التي تدل على هذا الافتقار. المرأة لا ترى المرأة أهلاً للثقة كالـــرجل. فالأم تعطي مساحات من الحرية للذكر دون الأنثى من أبنائها وبناتها.

ويتـــردد في المجتمعات النسوية أحاديث عن عدم ثقتهن بالطبيبة لأنهـــا امـــرأة. مهمـــا أثبتت جدارتها. مع اضطرارهن الواضح إلى مـــراجعتها وتفـــضيلها علـــى الطبيب الرجل لاعتبارات فقهية أو اجتماعـــية، وهـــي بهذا التذبذب في الموقف والرأي تستظهر نظرة المجتمع لها، وشعورها الذاتي بالقصور واللامسؤولية، والذي يؤدي إلى شعور بالنقص ودونية الذات.

كـــذلك نلاحظ تسلّط المرأة على المرأة داخل المجتمع النسائي المغلـــق فـــصارت النساء خير حارسات على ما يتلقينه من تعليمات الـــرجال للضغط على النساء. وليس أبلغ في ذلك من أنظمة التعليم كـــشاهد في مدارس تعليم البنات. حيث تتلقى العاملات فيها كل تعالـــيمهن ذات الطابـــع الاضـــطهادي للمرأة، يتلقينها من الرجال

ويتفانين في تنفيذها وربما يزدن عليها. فما أكثر التعاميم التي تعج بها الملفـــات الـــصادرة من الرجال وما أشد إخلاص المديرات لها وما أحرصهن على تنفيذها. فإذا تساءلت أما الإدارة المدرسية عن سبب قـــسوة مـــا رأيت من أساليب لا تحترم المرأة سواء كانت طالبة أو معلمـــة جـــاء الجواب السريع الرادع لي المانع من أي حوار أو حتى تفكير في حوار من قبل إدارة المدرسة: - التعميم ينص على كذا.

إن التـــربية التي تتلقاها الطفلة تشكلها على تلك الحال. ولولا ذلـــك الإرث الـــذي تنطلق منه تربية البنات لرأينا إن المرأة إنسان والـــرجل إنسان، ويمكن أن يكون الإنسان - امرأة كان أو رجلاً - طيـــباً لطيفاً مسالماً متسامحاً محباً للخير ساعياً إلى الجمال. ويمكن أن يكـــون شرســـاً أو مجرماً أو قاتلاً حسب ما يعيشه من ظروف أثناء تنشئته.

وقـــد قـــرأ الجميع تقريباً عن مجندات من النساء أشرفن على سجون التعذيب أو مارسن تعذيب المساجين بأنفسهن وتلذذن بموت الضحية من شدة العذاب المذل. وقرأنا أيضاً عن قاتلات قطعن القتيل ومـــلأن بلحمـــه أكياساً بلاستيكية أو أحرقن جسده. بل وقرأنا أو شـــاهدنا على الفضائيات أخباراً عن اللواتي تفنن في أساليب القتل، وهذا الخبر مثال على ما أقول: (شهدت إحدى مستشفيات السعودية حادثـــة غريبة كان ضحيتها رجل في العقد الثالث من عمره، وكان مـــصاباً بحـــروق شـــديدة وصفها الأطباء بأنها "حروق من الدرجة الثانية"، وتركزت الإصابة في الوجه والرأس وقد كانت المفاجأة لدى الجميع بأن الزوجة هي المتسببة في هذه الإصابات بصب زيت ساخن على وجهه ورأسه لرغبته في الزواج من أخرى)(1).

---

(1) قناة العربية نت، الاثنين 16 يناير 2006م - 16 ذو الحجة 1426.

وقــرأ الجميع أيضاً عن من تعالج وتطبب وتعلم وتحنو وتساعد وتتــبرع وتسعى لنشر الخير وتقرأ وتكتب وتنظم... إلخ. وفي الدنيا رجـــال تاجـــروا بالإنسان وقتلوه وتفننوا في تعذيبه، وفيها أيضاً من ساهم في إنشاء المنظمات للدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين والمشردين والمرأة بالطبع.

إذاً الإنــسان إنــسان، أنثى أو ذكر، قال تعالى عنه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ الـنَّجْدَيْنِ﴾ (ســورة البلد، 10). أي هديناه الطريقين، طريق الخير وطريق الشر وبعد ذلك على الإنسان (الأنثى والذكر) أن يختار وأن يــتحمل تبعات اختياره وكل ما سيترتب على ذلك الاختيار. لأنه سيحاســب على عمله الذي أداه بمحض اختياره. ولن يحاسب وفق نوع جنسه.

إذا كان هذا التخيير من الله وإذا كان الإنسان مسؤولاً ومحاسباً على أعماله كلها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فإن الله فعل هذا لأنه يعلــم أنه أهّل المرأة كما أهّل الرجل لتلك الأمانة ولذلك الحساب. وإلا لما حاسبها على أعمالها كما سيحاسب الرجل.

وعــندما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِــنَاتُ يُبَايِعْــنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَــزْنِينَ وَلاَ يَقْــتُلْنَ أَوْلاَدَهُــنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُــورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الممتحنة، 12). فإن هذه الآية الكريمة توضح مـــدى استقلالية المرأة في شخصيتها عن الرجل إذ ليست بمعزل عن الحـــياة على الإطلاق حسب نص الآية الكريمة. ليست نصف إنسان وليـــست تابعـــة لأحد. إن لديها الأهلية الكاملة حتى في المشاركة السياسية فكيف بأمور المجتمع. الآية الكريمة السابقة لم تطالب أولياء الأمـــور مبايعة الرسول نيابة عن نسائهم بل تمّت البيعة بين الرسول

الكريم والمسلمات وجهاً لوجه وبعد أن تمّت المبايعة بينه وبينهن صلى الله عليه وسلم لم تمر تلك المبايعة مرور الكرام بل نـــزلت فيها هذه الآيـــة لتوضح للناس جميعاً موقف الإسلام من المرأة في هذا الجانب. فـــإذا كانت البيعة من المرأة مع رسول الله قد حصلت فعلاً وبشكل مباشـــر ولـــيس بالنيابة فإن هذا يدل على احترام الإسلام لها ويعني بالضرورة أنه يحترمها أن مارست ما هو أبسط من ذلك من الأعمال بشكل مباشر وليس بالنيابة.

كـــيف رأى - كـــثير من - رجال الفقه أن المرأة أقل من أي مـــشاركة في أي مجال فما بالنا بالمجال السياسي تحديداً؟ واتفقوا على أن تلزم بيتها إلا في حال الضرورة. ولماذا أصبحت أكثيرة من النساء بهـــذه الاستكانة وقلة الحيلة. يتباهين بضعفهن ويستعذبن آلامهن في بلادنا؟

حـــدث هذا لأن الإنسان يتشكل منذ أن يولد وفق ما يجد في بيئته من أساليب في التعامل وتراث وأفكار وقيم واتجاهات. وصدق رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم إذ قال: «كل مولود يولد على الفطـــرة فأبـــواه يهودانه أو يمجسّانه أو ينصّرانه» إن الرسول الكريم يتكلم عن القدرة على تشكيل المولود وفق ما يجد في البيئة التي يولد فـــيها. وما يكتسبه من معارف وخبرات هي التي ستصنع شخصيته فيما بعد.

إن المـــرأة كالرجل في نظر الدين وإلا لما سمح لها أن تنوب عنه كمـــا ينوب عنها في الحج. وأؤكد على الحج لأنه مرهق، خصوصاً فيما مضى. وقد عقد البخاري باباً سماه "باب حج المرأة عن الرجل" ورد فـــيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديـــف النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفـــضل ينظـــر إلـــيها وتنظر إليه، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم

يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شـــيخاً كبيراً، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟. قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع.

وهـــذا الـــنص تناوله الفقهاء ليؤكدوا على جواز كشف المرأة وجهها إذ إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جعل يصرف وجه الفضل إلى الجهة الأخرى كان يحثه على غضّ البصر، أي التأدب في وجود المرأة التي جاءت تسأله عن أمر أبيها. لكنه لم يطلب منها أن تغطي وجهها. هذا جانب من جوانب النص. أما الجانب الآخر فهو في كـــونها ستحج عن أبيها. إذ إنها لو كانت عند الله أقل من الرجل في شيء.. أي شيء، لما قال رسول الله عندما سألته «نعم» ونلاحظ أن الـــنعم لم يتبعها (حجي بمحرم) أو (أليس لك أخ يحج عنه) أو ما شـــابه ممـــا يوحـــي بأن النساء أقل في بعض أمورهن من الرجال. ونلاحظ أيضاً أن البخاري أورد "وذلك في حجة الوداع" وهذا يعني عـــند اقتـــراب مـــوعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في بدايات الدعوة.

وزوجـــات الرســـول صـــلى الله عليه وسلم في عهد عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه كنّ يذهبن إلى الحج بلا محرم وذهب معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. فهل عمر كخلـــيفة للمسلمين ومن معه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وســـلم، وأمهات المؤمنين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ســـيفعلون ما لا يجوز فعله كلهم متفقين بعد وفاة الرسول؟ لقد أجمعوا علـــى جواز سفرهن رضي الله عنهن. والدليل على هذا الإجماع عدم اعتراض أحد من الصحابة عليه بمن فيهم الخليفة نفسه عمر بن الخطاب.

وفي البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نغـــزو أو نجاهـــد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله

الحج، حج مبرور. فقالت عائشة فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عائـــشة التي تشترك في الغزوات وتشمّر عن ساعديها وتهرول بالمـــاء بـــين المحاربين والجرحى تسقيهم وتطببهم، تطمح إلى ما هو أكثـــر. إن مجـــرد المشاركة في الجهاد لا تشبع طموحها، هي تريده فرضاً عليها كالرجل وليس مجرد مشاركة اختيارية. فيخبرها رسول الله أن الحـــج جهاد. فلا تترك الحج بعد أن سمعت هذا القول. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال. هل أعاقها عدم وجود ولي أو محرم يرافقها كلمـــا أرادت الحج؟ برغم صعوبة الحج في تلك الأيام التي تخلو من وسائل المواصلات المريحة والفنادق المكيفة وشركات الحج؟ لم يحدث لها هذا ولا لغيرها من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

نعود الآن إلى عقل المرأة وما تعارف عليه كثيرون من أنه ليس كعقل الرجل مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْـــتُمْ بِـــدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَـــدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّـــذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَـــيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَـــبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَـــرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُـــونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُـــنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، 282).

لقـــد حـــدد الله تعالى في نص الآية السابقة الإشهاد على الدَين برجلين أو رجل وامرأتين. و لم يطلق الأمر في الشهادات جميعها. أي أن الآيـــة تتحدث عن الإشهاد في أمر الدَّين. وليس عن الشهادة في أمور الحـــياة المخـــتلفة. وقد توصل كثير من الفقهاء إلى هذه الحقيقة وعلى رأســـهم شـــيخ الإســـلام ابن تيمية. وسبب ذلك يعود إلى قلة النساء المشتغلات بالتجارة بشكل عام في ذلك الوقت مقارنة مع الرجال.

لو أن الأمر مطلق. أي في كل شهادة في أي أمر امرأتان مقابل رجـــل واحد. فكيف قبل المسلمون أحاديث عائشة رضي الله عنها وســـائر الـــصحابيات؟ أليست رواية الحديث شهادة بما قاله أو فعله ســـيد الخلق عليه الصلاة والسلام؟ كيف نأخذ الأحاديث على أنها أقـــوال وأفعـــال رسول الله إذا كانت من الصحابيات وليست من الصحابة ما دامت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟

القـــرآن الكـــريم.. كتاب الله المنـــزل على نبيه صلى الله عليه وســـلم كانت صحائفه عند حفصة رضي الله عنها وليست عند أي رجـــل مـــن الـــصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ويا للعجب.. يستأمنون امرأة على الصحائف التي كُتب عليها الوحي المنـــزل من عـــند الله وتبقى في حوزتها وضمن أمانتها إلى أن تسلمها لعثمان بن عفـــان الذي أمر بكتابة القرآن في مصاحف يوزعها على الأمصار. أليست حفصة امرأة؟ أ لم يكن في الرجال من صحابة رسول الله من يحمل هذه الأمانة العظيمة عنها ليحافظ على كتاب الله، فبقاؤه ولو للـــيلة واحدة عند امرأة فيه من الخطر ما فيه لضعفها وغلبة العاطفة فـــيها على العقل – كما يزعمون عن كل النساء –. ألا يخافون من ضياع بعض الآيات؟ أو من الزيادة أو النقص؟ إنها امرأة ذات عاطفة تغلـــب العقـــل. وذات شهادة بنصف شهادة الرجل. هل سيثقون بشهادتها إن قالت هذه هي الصحائف؟

لقـــد حملت حفصة بنت عمر رضي الله عنها الأمانة وقَبِل كل المسلمين – كلهم – شهادتها إذ إن تسليمها الصحائف لعثمان رضي الله عـــنه يعـــني أنها تعطيه ما في حوزتها من كلام الله المكتوب كما نـــزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. دون أن يزيد أحد على ما لديها أو ينقص منه شيء. و لم يتطلب هذا الأمر العظيم رجلين أو رجلاً وامرأتين.

أمـــا الـــدَّين.. الدَّين فقط، فلا تزال كثير من النساء إلى اليوم بعـــيدات عن التجارة إلا القليلات منهن. لهذا فقد لا تهتم الواحدة مـــنهن بما ذكر أمامها من أرقام عن المبلغ الذي استدانه أحدهم من الآخر أو أرجعه إليه أو بعض ما أرجع.

لو كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل لما جاء نص القرآن الكـــريم مساوياً بينها وبين الرجل في الآية التي تحلف فيها المرأة كما يحلف فيها الرجل. و لم يقل القرآن بقبول شهادة الرجل دون المرأة إذا حلـــف أنه صادق. و لم يقل بقبول حلفها إن حلفت إنها صادقة. بل همـــا متساويان تماماً. فأين ذهب نقصان العقل الذي كان الأولى أن يجعـــل شـــهادتها في هذه الآية غير مقبولة؟. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَـــرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَـــعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الـــصَّادِقِينَ﴾ (ســـورة النور، 6 – 9)[1]. إذاً هي تشهد كما يشهد.

(1) نلاحظ أن القرآن الكريم في هذه الآية جعل اللعن – وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله – من نصيب الرجل وجعل الغضب من نصيب المرأة. والغضب قد يعقبه الرضا أما اللعن فلا عاقبة له سوى الخسران. و لم يرد أي نص في القرآن الكريم يلعن المرأة. وورد هذا النص الذي يلعن الرجل.

شـــهادة بـــشهادة ويتساويان في عدد الأيمان. ويزيد عليها بأن يلعن نفـــسه ولا تلعن هي نفسها وإنما تكتفي الآية الكريمة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولو أن المرأة أقل عقلاً وأكثر عاطفة فهل سيتنازل عمر شخصياً رضي الله عنه عن ما يقول ويعترف وهو يخطب في الناس بأنه أخطأ وأصـــابت امرأة عندما كان ينادي بأن لا يبالغ الناس في المهر المعطى للمـــرأة فأجابـــته إحداهن بأن رأيه غير صحيح استناداً إلى قول الله تعـــالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (سورة النساء، 20). أمام كل من يستمع إلى خطبة عمر يتـــراجع ببـــساطة ويعترف لها بأنها أصابت وأخطأ. على أن موقفه كصحابي لن يكون موازياً ومساوياً لعظمة مواقف القرآن الكريم وما جاء فيه من مكانة وتكريم للإنسان، والإنسان تعني المرأة والرجل.

أمـــا صـــداق النساء فهو المهر الذي يظن الرجل أنه بدفعه قد اشترى زوجة كما يشتري نعجة من سوق الغنم. هذا المهر ليس إلا هديـــة. المهر مجرد هدية يتقرب بها الرجل من المرأة التي يريد الاقتران بهـــا ويقدمـــه لهـــا وليس إلى وليها قبل عقد القرآن وليس بعد عقد القـــران. إذاً المهـــر ليس ثمناً لشيء على الإطلاق يقول تعالى: ﴿... وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ (سورة النساء، 4). ومن فتح لسان العرب سيجد فيه ما يلي: النُحل إعطاؤك الإنسان شيئاً **بلا استعاضة** وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء وقيل هو الشيء المعطى.

إذاً الـــنحلة هي الهدية أو العطية التي لا يراد بدفعها شيء. أي عطاء مجرد من أي استعاضة أو مردود بعده.

القـــرآن يأمـــر الرجل بأن يهدي المرأة هدية ليتقرب بهديته من زوجـــة المستقبل ولينشأ بينهما التواد والتقارب بهديته تلك. أي أن الهـــدف من الهدية هو أن يتقرب منها بأسلوب مهذب ورقيق وأن

يـــبدي لها رغبته في الاقتران بها. ولكن البعض فسّر المهر بتفسيرات غـــريبة لا تقـــبلها كرامة المرأة الحرة. كأن قالوا بأنه ثمن لما استحله الرجل وما استمتع به من زوجته ولهذا نرى أن الناس تجعل مهر البكر ضـــعف مهر الثيب. ويا للعجب!! أوَلم تستمتع زوجته به أيضاً[1]؟ فكيف يدفع طرف للآخر في علاقة زوجية ثمن المتعة الزوجية. كيف يصورون ما أحلّه الله تعالى وكأنه الحرام الذي يدفع فيه الرجل لبائعة الهوى إذا باعت جسدها له؟ كيف تساوت علاقات الحلال والحرام وصـــار المهر أجراً للمعاشرة الزوجية. تماماً كالبغي التي يذهب إليها الـــزاني ويعطيها ثمن متعته بجسدها. قد يدفع الزاني أجر ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً أو أقل أو أكثر. ويدفع الزوج أجر ما تبقى لها من ليال في حياتها كلها!!. يا لتفسيراتهم العجيبة. أو هكذا يظنون أن القرآن الكريم نـــزل من عند الله ليأمرهم بدفع أجرٍ لعلاقة الجنس بين الزوج وزوجته!

أما الإرث فقد ظنّ كثيرون أيضاً أن للذكر مثل حظ الأنثيين دائماً وأبـــداً. فكل أنثى لها نصف ما للذكر وكل ذكر له ضعف ما للأنثى. وهـــذا غير صحيح. عدل الله ورحمته أكبر مما يظنون. فالمرأة ترث من ابـــنها تمامـــاً كما يرث الأب. أي أن المرأة متساوية مع الرجل في هذه الحالة. كذلك تتساوى الأخت مع أخيها إذا كانوا أخوة في الأم. أي أن المـــرأة تساوي الرجل أيضاً. **وقد ترث المرأة أكثر مما يرث الرجل.** في حال ما إذا ماتت امرأة لها أخت وأخوين شقيقين فإن للأخت السدس

(1) ظنّ بعضهم أن المهر ثمن لما استحله الرجل من زوجته أو ثمن لما استمتع به منها وهم بهذا يرون العلاقة الزوجية من طرف واحد. أي أن الرجل يقيم علاقته مع المرأة متى شاء وينهيها متى شاء دون اعتبار لرغباتها هي. أي أنه لا يأبه لمشاعرها فقد أعطاها مقابل ما يفعل مالاً هو المهر. وهذه نظرة لا تقاربها حتى البهائم. فالأنثى والذكر حتى عند الحيوانات يشتركان في رغبتهما في إقامة التزاوج. فهل يعقل أن يقبل الأسوياء من الرجال هذا النوع من العلاقات؟

وللـــرجلين الشقيقين السدس معاً يتقاسمانه. وفي هذه الحال صار نصيبها ضـــعف نـــصيب الـــرجل. أي في هذه الحالة صار **للأنثى مثل حظ الذكرين**. كذلك يمكن أن **يخرج الأخ للأب من الميراث تماماً** فلا يرث وترث الأخت. فإذا ماتت امرأته فإن لشقيقتها النصف ولزوجها النصف ويخرج أخوها من أبيها تماماً أما لو كان هذا الأخ بنتاً فسيرث السدس. أي وهـــو ذكر لا يرث ولو أنه أنثى فسيرث سدس التركة. ولو ماتت امـــرأة ولها زوج وأبوان فللزوج النصف وللأم الثلث وللأب السدس يا سبحان الله.. قرأ الناس – للذكر مثل حظ الأنثيين – فقط. ولم يقرأوا ﴿فَـــإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّه الثُّلُثُ...﴾ ولم يقرأوا: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْه لكُلِّ وَاحد منْهُمَا السُّدُسُ ممَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّه الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّه السُّدُسُ﴾ (سورة النساء، 11).

ثم لم يقـــصروا الأمـــر على الميراث فيما فهموه من حظ الذكر والأنثـــى بـــل عممـــوه على سائر الحياة. فها هم يقولون بأن الدية في المـــسلمة نصف دية الرجل. وكأنها ليست نفساً أزهقت. يقول الشيخ القرضاوي في كتابه مركز المرأة في الحياة الإسلامية [حديث – دية المرأة نـــصف ديـــة الرجل – قال البيهقي: **إسناده لا يثبت ويبقى الحديث الـــصحيح (في النفس مئة من الإبل)**. إنسانية المرأة من إنسانية الرجل وكان القصاص هو الحكم بينهما في حال الاعتداء على النفس وكانت جهنم وغضب الله هو الجزاء الأخروي في قتل المرأة كما في قتل الرجل. ومـــا دمـــنا نستقي الأحكام أولاً من القرآن الكريم فعبارة القرآن عامة مطلقـــة لم تخص الرجل بشيء منها ولا المرأة[1] ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِه...﴾ (سورة النساء، 92).

---

(1) دكتور يوسف القرضاوي، مركز المرأة في الحياة الإسلامية، ص 27.

تقدم الإنسان **لا** يقاس بمدى ما يستخدمه من مخترعات متطورة ومـــا يـــستعمله في حياته من أدوات مختلفة. إن تقدم الإنسان يقاس بمدى تحقق إنسانيته داخل مجتمعه. ويظن البعض أيضاً أن المدنية تعني وفرة السلع أو عظمة البيوت أو اتساع الطرق. ولكن المدنية الحقيقية هـــي الـــتي توفر السعادة للناس. وبالتالي فإن كل الاختراعات التي توصـــل إلـــيها العالم المتحضر وشاركناه في استهلاكها فقط وليس إنتاجها ليست إلا وسائل - مجرد وسائل - لراحة الإنسان وسعادته.

وإذا كان الإسلام قد جاء من أجل سعادة الإنسان وراحته ثم لا يكـــون المسلم سعيداً ولا مرتاحاً بسبب تجاوزات البعض وقسوهم عليه فإنهم أبعد ما يكونون عن تعاليم الإسلام.

إذ كلمـــا كـــان الإنسان متمدناً كان أكثر رحمة وتسامحاً مع الآخرين. وأكثر وعياً بوجود الاختلاف والتباين بينهم. وهذا يعني إن الـــدين لا يـــتعارض مع المدنية ولا يؤيد الهمجية - عكس ما يقدمه أدعياء الفضيلة وحراسها باسم الدين - ولو تأملنا تصرفات الرسول الكـــريم لأقسمنا أنه أكثر تمدناً من كل الذين يدعون أنهم أبناء هذا العـــصر(2). فإذا كان أحدهم غير قادر على التسامح مع ذويه وعلى رأسهم زوجته وبناته وغير قادر على فهم معنى إنسانيتهن ولم يدرك حدوده فيما يخص سلطته عليهن فإنه مهما ركب من سيارات فارهة ومهما استخدم من منتجات حضارية يظل همجياً بعيداً عن أي تمدن.

---

(2) مشهد واحد يكفي لنفهم كيف كان رسول الله متمدناً يرفض القسوة في التعامل مع الآخر ويؤكد على الرفق واللين والتسامح. وهذا المشهد هو موقفه من الإعرابي الذي بال في المسجد - ومع أنه مسجد وليس مكاناً آخر إلا أنه صلى الله عليه وسلم أوقف الصحابة الذين ثاروا على الرجل وطلب منهم أن يتركوه لينهي ما هو فيه ثم وضّح له بكل رفق وحب وتسامح ما يريد توضيحه فهل بيننا من يحب الرفق والتسامح.

العقـــلاء فقط هم القادرون على الخضوع لسلطان العقل ولذا فهـــم يرون الأمور مجردة عنهم ولا يحكمون على علاقتهم بالآخرين من خلال رغباهم وحبهم للسلطة. أما الذين ينطلقون في أحكامهم علـــى الناس وفق غرائزهم فقد ارتدوا إلى الهمجية إذ تسيطر الغريزة ولا مكان فيها للعقل.

فإذا كانت المرأة لا تخرج إلى الحياة ولا تعرف كيف تشارك فيها لأن الـــرجل خاف عليها من غرائزه وسجنها خلف الأسوار ثم انشغل بهـــا. يـــراقب مــــن لديه من النساء لكي لا ينظر إليهن أحد ويراقب الأخـــريات لعله يفوز بنظرة من إحداهن. ليس له شاغل يؤرقه سوى النـــساء فيحمي القريبة ويلهث خلف الغريبة، يأخذ قريبته بسيارته إلى حيث يوافق لها أن تذهب ويمنعها من أن تذهب إلى حيث لا يريد لها أن تذهب ثم لا يفكر إلا في شكل المرأة إذا فكر في الزواج، فيستدل على شـــكلها حـــسب ما تصف له قريبته المرأة التي ينوي خطبتها، ويكون الشكل وحده حسب ما ورده من وصف وليس كما رآه، الأساس فيما تملكه المرأة من مواصفات ليتقدم لها خاطب.

وبعد أن يكون قد عرف أن نسبها متوافق مع نسبه يقدم على الـــزواج بها ما دامت في الشكل تناسبه. وفي مجتمعنا الجميع يحرصون علـــى مسألة النسب ويخضعون لقوة الفولت في عروقهم. فهذه عائلة مــــن فـــئة مئة وعشرة وتلك من فئة مئتين وعشرين وتلك الفئة لا تتـــزوج مــــن هـــذه. اخـــتلاطهم ربما يشعل الحرائق بسبب الماس الكهربائـــي. وربمـــا إذا تحـــررت المرأة وتوقف المجتمع عن التمييز العنـــصري ضـــدها، ربمـــا حينها يتوقف أيضاً عن التمييز العنصري حسب العرق.

أعـــود إلى الشكل وأقول يبقى هو الشيء الوحيد الذي يجعل خاطـــباً يقـــدم أو يتراجع في خطبة امرأة. أما طباعها أو أفكارها أو

أحلامهـــا أو مـــستواها الثقافي أو... إلخ كيف له أن يدركها. ثم ما قيمتها أصلاً في مسألة الزواج وهو يريد أن يتزوج ليكون في منـــزله امـــرأة تقـــوم علـــى خدمته وتنام في فراشه. ولا بأس أن تعاونه في النواحـــي الماديـــة إن كانت موظفة. هو يريد امرأة في سن الزواج وشكلها حسب ما وصفوه يناسبه.

إذاً.. النظر للمرأة كإنسانة ذات طبائع أو أحلام أو ثقافة مسألة غـــير واردة ضمن معايير المرأة الأنسب أثناء البحث عن زوجة. إنها فقط - في نظر المجتمع - ستنجب الأطفال وتخدم الرجل وتستجيب إن دعاها إلى الفراش. وفي هذه الحالة النساء متساويات.

إن الرجل الذي ينطلق من هذه النظرة للمرأة، يحكم على نفسه أولاً قبل أن يحكم عليها بأنه أقل من أن يثق بنفسه وبقدرته على أن يهذب ذاته وفق ما جاءت به الرسالات السماوية لتنتقل بالإنسان من مستويات الغرائز إلى مستوى العقل.

كـــان الرجل في الماضي القريب يرى المرأة ثم يقرر أن يخطبها ولـــيس العكس. أي أنها تمارس حياتها بشكل طبيعي. ولهذا يمكن أن يراها خارج منـــزلها فتعجبه ويخطبها.

أمـــا اليوم فعلى الرجل أن يذهب إلى منـــزل الفتاة ويخطبها ثم ينظر إليها فإن أعجبته تمّ الأمر وإن لم تعجبه فهو أمام أحد خيارين: الأول هو أن يتراجع ويتنقل من بيت لبيت وكأنه يريد معاينة سيارته التي سيشتريها قبل أن يدفع الثمن. والثاني أن يتمم الزواج برغم أنها لم تعجبه ولكنه لا يريد أن يؤذي مشاعرها إذا خرج دون رجعة.

وكـــم هـــو مهين أن يأتي الخاطب إلى المنـــزل ثم يطلب رؤية الفتاة فتقف أمامه حاملةً القهوة أو عصير الفاكهة ثم تنصرف وتبقى في انتظار ما سيحدث.

لـــو أنها ليست معزولة لأمكنه رؤيتها في الطريق بشكل تلقائي فـــإن أراد خطـــبها وإن لم تعجبه لم يجرحها ذلك لأنه لم يتقدم ثم ينسحب.

من يتأمل كتاب الله جلّ وعلا ويقرأ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِـــكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم، 21). يدرك أن علاقة الجَـــسد ليستَ هي ما ينطلق منه الدين في الزواج. فالآية الكريمة لم تقـــل عـــن الزوجة "**لتسكنوا عندها**" أو **لتسكنوا معها**. ولكن قال تعـــالى: **﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾** لأن السكن عند فلان يعني السكن بالبدن. أمـــا السكَن إليه فيعني السكن الروحي والطمأنينة والهدوء النفسي. يعـــني العلاقـــة الحميمة الطيبة المليئة بالمودة والرحمة. وبعد أن أكد القـــرآن الكريم أن السكن إلى الزوجة وليس سكناً عندها ولا سكناً معهـــا. عاد وقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. وبرغم كل هذا الجمال في نوع العلاقة بين الرجل وزوجته من منظور الدين الحنيف يبقـــى كـــثير من الرجال غير قادرين على التواصل مع المرأة بالمودة والـــرحمة، وكل ما يهدفون إليه من وجودها معهم أنها لعلاقة الجسد وإنجاب البنين.

وأرى أن هبوط الإنسان إلى مستوى الغرائز وابتعاده عن إحكام العقل هو الذي جعل الرجل العربي بشكل عام يضع المرأة ضمن هذا التابو بحيث يصبح من الخطر الخوض في المسائل التي تتعلق بإنسانيتها.

قـــال الله تعـــالى في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِـــسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُـــيُوتِ حَتَّـــى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (سورة النـــساء، 15). هذه الآية الكريمة كانت عقاباً للزانية. تجلس في بيتها إذا ثـــبت بأنها زنت. إذاً البقاء في البيت هو عقوبة شديدة لمن أتت

بفاحـــشة الـــزنا تحديداً حسب نص القرآن الكريم. أي أن البقاء في البـــيت هـــو عقاب وفق ما يقوله الله تعالى. و لم يقل القرآن الكريم بمعاقبـــتها لمجـــرد الشك في وقوعها في الزنا و لم يقل بمعاقبتها لشهادة شـــخص أو شخصين أو ثلاثة. لا بد أن يكونوا أربعة لأن العقاب شديد وهو الحبس في المنـــزل.

كيف.. كيف تكون هذه العقوبة التي لم يكن يُحكم بها إلا إذا ثبـــتت الفاحشة بأربعة شهداء لشدة العقوبة وقسوتها. **كيف** تكون فـــيما بعـــد أمراً عاماً لكافة المسلمات؟ كيف يكون خروجها فقط للـــضرورات وتبقـــى العمر.. كل العمر معزولة عن المساهمة في بناء نفـــسها وبناء الحياة؟؟ ليس هذا وحسب بل عليها أن تبقى وترعى المنـــزل ومن في المنـــزل!

هل يعاقبنا ديننا – نحن النسوة – لمجرد أننا نسوة؟ حاشا لله. هل يفـــرض في بـــدايات الرسالة عقوبة الحبس في البيت على التي يثبت إتـــيانها فاحشة الزنا ثم يستخدم نفس العقاب بعد ذلك للنساء لمجرد أنهن نساء؟ هذا ليس عدلاً وليست رحمة. والله أعدل العادلين وأرحم الراحمين. لكن الأسوار وما أحاط بها من فتاوى مغالية وآراء عجيبة ضـــد المـــرأة جـــاءت مخالفة بفجاجة ووقاحة لما في الدين من عدل ورحمة.

أما قوامة الرجل التي تمددت واتسعت بطريقة مطاطية مع الوقت مـــنذ عهـــد الخلفاء الراشدين إلى الآن فأصبحت واسعة جداً بحيث صـــارت تعني الاستعلاء والتحكم والسيطرة والأمر والنهي والموافقة والرفض فإنها وبنص القرآن تعني الإنفاق على البيت والأسرة والقيام بخدمة من في البيت. لكن نسي كثيرون أو تناسوا أن القوامة ليس لها علاقـــة بالسيادة ولا الهيمنة على المرأة ولكنها تعني تحديد مسؤولية الـــرجل تجاه المرأة. وتحديد المسؤولية هذا لا يعني الانفراد بالرأي أو

قمع النساء أو التضييق عليهن وفي البخاري عن الأسود بن يزيد قال: (سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته قالت كان يكون في مهنة أهله - أي في خدمة زوجاته - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة). رسول الأمة يخدم في بيته صلى الله عليه وسلم. فهل يكتفي كثير من رجال اليوم بالصمت وقراءة الجرائد أو متابعة التلفزيون داخل البيوت؟ ليتهم يفعلون هذا فقط. إنهم يزيدون عليه بإظهار السخط والأوامر.

الزوجة تحب زوجها وتبحث عن رضاه. لكن ماذا إذا كان إظهار الحب هذا سببه الخوف من غضبه؟ ماذا إذا كان إظهار الحب هذا تجنباً لسخطه أو استدراجاً له لأخذ موافقته على أمر ما كزيارة صديقة أو الذهاب للسوق أو.... إلخ. هل يكون الحب حقيقياً حينها؟ أم أن الزوج يظنه حقيقياً ولا يدري أنه من وراء القلب؟ أم يدري ويتجاهل؟

وزوجة أخرى تحب زوجها وتبحث عن رضاه. مع أن أمرها بيدها. فلا تخاف أن يرفض شيئاً تريد القيام به. هل نقارن صدق شعورها تجاه زوجها بصدق شعور تلك التي تقدم الحب مقابل الموافقة على ما يمكن أن يرفضه إن كانا على خلاف؟ أي.. لنتخيل سيدتين كلتيهما تحبان زوجيهما وتسعيان لنيل رضاهما. الأولى تريد رضاه لأنه إن كان غاضباً فسيقلب البيت جحيماً وسيحرمها من الخروج والزيارات. والأخرى تريد رضاه برغم أنه غير متسلط ولا يظهر سخطه واستياءه منها مهما غضب ومهما اختلفا. أي الحبين أصدق وأنقى وأجمل؟ والأمر لا يتعلق بالزوج فقط. الأب والأخ في ذات الموقف فالبنات والأخوات يدارين الرجل ويضطررن إلى المداهنة والتحايل للحصول على الموافقة في أشياء كثيرة.

لا يركّز كثير من الفقهاء والدعاة على فضل المرأة على أبيها أو مـــن رعاها وذلك بأنه سيدخل الجنة بسبب رعايته تلك بل ينادون بالخوف مما ستجلبه إن أعطيت الحرية وهذا يعني أنها ليست أهل لها وبمجـــرد أن تحصل عليها ستستغل الموقف وتأتي بالفاحشة. يركزون على ضرورة إحكام الأبواب على البنات ولا يعلنون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة» رواه البخاري.

يحسن إليهما!!!. الإحسان يتنافى تماماً مع القسوة والاضطهاد، يتنافى مع القمع والتسلط، يتنافى مع فرض الرأي وسلب الحرية.

الإحسان هو الخير والعطاء والرحمة والحب والطيبة. لقد تجاهلوا الإحـــسان وصارت البنت التي يدخل الرجل بسبب الإحسان إليها الجنة هماً يؤرقه ما دامت معه.

القوة والضعف (تأملات)

تقدر النساء على كل ما نقدر عليه نحن الرجال وليس بيننا وبينهن فرق.. إلا أنهن أكثر لطافة.

فولتير

إن القائلين بعجز النساء وضعف النساء وغلبة عواطف النساء لا زالوا يقيسون القوة والضعف حسب شيئين اثنين. الأول هو معيار القوة الجسدية. والثاني هو ما يحمله التراث من نظرة دونية للمرأة ولهذا ظلوا يرددون أن المرأة ضعيفة. ولكن إذا نظرنا إلى المرأة بمعايير أخرى فهل حقاً هي ضعيفة؟ أم أنها أقوى من الرجل أحياناً كثيرة؟

الدراسات الطبية تؤكد أن قدرات النساء على مقاومة الأمراض أعلى من قدرات الرجل. فهل هن ضعيفات والرجال هم الأقوياء؟ إذا كانت المرأة أطول عمراً من الرجل برغم ما تقدمه لجنينها من غذاء وأوكسجين طوال التسعة أشهر أثناء احتوائه في رحمها. فهل المرأة ضعيفة؟

الرجل يرى القوة فيمن يستطيع أن يطرح الآخر أرضاً في مباراة للمصارعة. لكن.. هل الحياة المشتركة على هذه الأرض مجرد حلبة لمتصارعين؟ إنها حياة. - وأرى - أن من ظنها حلبة فقد خانته ظنونه. والحياة لا تتطلب أن تقف المرأة أمام الجمهور نداً لرجل تصارعه. الحياة بها أشياء كثيرة جداً تصل بالإنسان إلى السعادة إذا عرف كيف يكون شريكاً حقيقياً. شريكاً وليس سيداً مطاعاً.

الأسد قوي جداً وملك للغابة كما يقال. ولكن.. الفراشة أيضاً قوية برغم الاعتقاد بأن الأسد أقوى منها. إنها تهاجر من مكان إلى

مكـــان بجناحها الملون الصغير. تعبر البحار والأنهار لتصل إلى بلاد بعـــيدة. فهـــل يعـــبر الأسد بحاراً وأنهار؟ هل يستطيع مغادرة غابته أصلاً؟. انقرض الديناصور وبقيت النملة كل هذه الملايين من السنين. فأيهما القوي؟

إن النظـــر إلى الأشياء بمعيار واحد قد يقلّص من قدراتنا على الـــرؤية. علينا فقط أن نبحث عن معايير مختلفة إذا أردنا الموضوعية والإنصاف وبعدها نقارن وستتغير نظرتنا للقوة بعد ذلك.

إن المقارنة الجسدية التي يعدها المؤيدون لقهر النساء واستعبادهن هـــي المقياس الأساسي لهم، تعتمد على الفرق في التركيب الجسدي الذي جعل المرأة قادرة على الحمل والإنجاب – بخلاف الرجل الذي ينتظـــر مولوده من جسدها – وربما أوجد هذا العجر الذكوري عن الإنجـــاب شعوراً في داخل الذكر بعجزه عن تصدير الحياة. فأصبح كمن تأخذه العزة بالإثم. لذا استعلى بسبب شعوره هذا. محاولاً سد العجز بالتعالي والسيطرة.

إن الاخـــتلاف التشريحي لجهاز التناسل في جسد المرأة وجسد الـــرجل لا يعـــني أن لأي مـــنهما الحق في السيطرة على الآخر أو استعباده أو قمعه. خلقهما الله لكي يتشاركا في الحياة وكان الأولى بـــدلاً من تحقير المرأة وهي التي ستهب الرجل طفلاً حوته في داخلها فتغذى على غذائها ونما بين أحشائها كان الأولى أن يشعر بالامتنان والـــشكر تجاههـــا. وأن يذكر أيضاً أنه كان في رحم المرأة قبل أن يكـــون في هـــذه الدنيا. ألم يردد رسول الله صلى الله عليه وسلم – أمـــك ثم أمك ثلاث مرات قبل أن يذكر الأب. هل أخذت الرجل العزة، فبدلاً من الشكر بالغ في الإذلال؟

لـــو أنـــني قلت فلان أسد. فإن السامع سيفهم أني أقصد أنه شجاع جداً. وسيعرف أني عنيت بهذا التشبيه المديح لا الذم. أما إذا

قلـــت أن فلاناً أسد ثم وضعت فلاناً هذا في قفص خاص كأقفاص الأسود التي في السيرك، فإن هذا يعني أن كلامي لم يكن للمديح بل للـــذم والإهانة. لأني حينها صرت أعني أنه حيوان شرس فعلاً ويجب أن أخاف منه على نفسي وعلى الآخرين. وأخاف عليه من أن يقتله أحدهم ببندقيته حرصاً على سلامة الجميع.

وإذا قال الناس أن فلان "ذئب". وهذا منتشر في عاميتنا كثيراً. فنقول فلان "ذيب أو ذيبان" فأول ما يتبادر إلى الذهن إذا سمعنا هذا هـــو أنـــه شاب قوي وذكي وشجاع وجريء.. إلخ من الصفات الحمـــيدة. لكـــن لا يعني هذا أن نمسك بهذا الرجل الذي نعتناه بـــ "ذيب" ونضعه ضمن قفص مخصص للذئاب. ولا أن ننبذه في العراء وحده أو في الغابة. إننا متى ما فعلنا هذا فقد تغير معنى الكلمة تماماً. وأخرجنا الرجل من آدميته واتهمناه بالحيوانية.

كـــان رســـول الله مسافراً في قافلة وفيها نساء. وهذا طبيعي ويتكـــرر دوماً للرسول صلى الله عليه وسلم ولغيره من الناس. وأن تـــسافر القـــوافل بالرجال والنساء معاً فتلك هي الحياة. أما حادي العـــيس فاسمه أنجشة. ومن عادة الحادي أن يغني ليقطع الطريق على نفـــسه ومـــن معه. ولأن الإبل تجدّ في السير إذا سمعت الغناء (هل تتذوق الإبل الفن كالإنسان؟ ربما الإبل رقيقة كبعض البشر).

كـــذلك يغـــني المزارعون أثناء الحصاد الذي يستمر لساعات طـــويلة. ويـــساعدهم غـــناؤهم الجماعي على الإحساس ببعضهم وبمشاركتهم الجماعية في العمل. وكان البناؤون يغنون أيضاً عند بناء السدود والبيوت ونقل الأحجار والطين والأخشاب.

الـــسفر هـــو فراق للأحبة والأهل وبعد عن الوطن وشعور بالاغتراب والوحشة. والناس إذا سافروا بكوا خصوصاً في الماضي عـــندما يسافر الإنسان فلا يكون هناك وسائل للاتصال بمن ابتعد

عـــنهم ويبقى سنوات وسنوات لا يعلم عنهم شيئاً وهم أيضاً لا يعلمون أخباره.

وذات سفرة.. والقافلة تسير وأنجشة يغني كعادته بصوته العذب وكلماتـــه التي تثير الشجن لاحظ رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم تأثر النساء بالغناء بسبب بعدهن عن ذويهن والحداء نوع من الغـــناء يـــثير الشجن. وربما لاحظ صلى الله عليه وسلم تأثر الرجال أيـــضاً. فالرجل إنسان كالمرأة تماماً، ويمكن أن يشعر بالحزن والفرح وغيرها من المشاعر. وما أكثر القصائد الحزينة التي يبكي بها الرجال فـــراق محبوباتهم. وما أكثر وقوفهم على الأطلال وذكرهم لما يعانونه بـــسبب البعد حتى وإن كانوا أبطالاً وأقوياء، يبقى الحزن من الفراق وإظهـــار هذا الحزن شعراً شاهداً على ما تحتويه قلوب الرجال. لكن النـــساء تعـــودن على الاعتراف بعواطفهن ودموعهن وظل الرجال منكـــرين لها ظناً منهم أن في الاعتراف بسقوط دمعة استنقاص من الـــرجولة. لذا فلن يُشار إلى دموع الرجال لكي لا يظن الرجل أن المـــشير يقـــصد الاستنقاص من رجولته. ويمكن الإشارة إلى دموع النـــساء فهذا لا يؤذيهن. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حريص علـــى أن لا يؤذي أحداً. لهذا لم يتحدث عن دموع الرجال ولكن قـــال: يا أنجشة رفقاً بالقوارير. ويعني أنهن مرهفات الحس متذوقات للـــشعر الجمـــيل واللحـــن العذب وهنّ على سفر وسوف تجعلهن أغنياتك العذبة يبكين.

طارت الكلمة.. أو طار الناس بالكلمة، وصارت تعني أن المرأة قـــارورة "قـــارورة مـــن زجاج" ستنكسر. مع أن هذه الرهافة في الإحـــساس والعلـــو في المـــشاعر وتذوق الجمال صفات يمتدح بها الإنـــسان وتدل على سمو نفسه وجمالها. فكيف انقلب المعنى وصار ضـــد المـــرأة بحيث أصبح يعني أنها هشة وضعيفة ستنكسر عند أي

موقــف وعلــى الــرجل أن يمارس الحياة بدلاً عنها؟ إن الإحساس بالجمال وتذوق الشعر وكتابته والتغني به. والإحساس بجمال اللوحة المرسومة والشكل المنحوت هو ما أتمنى أن نربي عليه بناتنا وأبناءنا لما للجمال من أهمية في إثراء النفس وتربيتها تربية سوية. تماماً كالجسد الذي يحتاج الغذاء المفيد ليكون صحيحاً معافى.

إدراك الجمـــال وتذوقه من ضرورات سمو النفس وتهذيبها عند الإنـــسان. ويبدأ إدراك الجمال بتأمل الطبيعة الإحساس بها والاهتمام بنقائها وصلاحها. ثم الوصول إلى الفنون الراقية ودخولها في تفاصيل حـــياة الإنسان. ومن يتأمل حياتنا - كمجتمع - يدرك مدى الفقر الـــذي نعانيه في هذا الجانب تحديداً. ثم يدرك الأثر المترتب على هذا الفقر الجمالي عندنا.

ولنـــبدأ بالمدن وشكل شوارعها. إنها تفتقر كثيراً إلى الحدائق المنسقة الواسعة. ناهيك عن وجود المنحوتات الجميلة المعبرة. وربما لا تكـــون المـــشكلة في التخطيط. بل في قدرة المواطن ذاته على إدراك الجمـــال والإحساس به. وأجزم أن الإنسان الذي تربى على الإحـــساس بالجمال في كل شيء وتذوقه باستمرار يصبح محباً له وباحـــثاً عـــنه لأنه أصبح من أساس حياته. فلا يستغني يوماً عن الجمال، ويسعى لأن تمتلئ حياته من كل جوانبها بالأشياء الجميلة. لهـــذا أدرك أن مجتمعـــنا الذي لا يأبه للجمال - هذا إذا لم يعمل على محاربته، بدعوى تحريم الرسم والنحت والموسيقى - لم يصل بعد إلى المستويات التي يشعر فيها بحاجته إلى تحويل الأماكن كلها إلى أماكن جميلة.

رســـول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس أحسن ما لديه للخـــروج إلى العيدين ولاستقبال الوفود، ويتطيب بأحسن الطيب الموجـــود في زمانـــه، ويتبسم ويحث الناس على التبسم ويقول إن

تبسم المرء في وجه أخيه صدقة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوقف زحف الجيش من أجل عصفورة خافت على صغارها. ثم يقول للأمة كلها: «لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليزرعها»[1].

ولي - شخصياً - تجارب محزنة محبطة في مجال تشجير المدرسة القاحلة - قاحلة ككل المدارس تقريباً - وكنت على أمل حينها بأن وجود الأشجار التي تنمو أمام منسوبات المدرسة سيعطي منسوباتها معاني غير التي يعرفنها عن الحياة بشكل عام. لكني بعد محاولاتي تلك ومحاولات أخرى كثيرة في جوانب مختلفة. أدركت تمام الإدراك أن العمل في التربية والتعليم لن يؤتي ثماره ما لم يكن عملاً مؤسساتياً وليس فردياً. لا أنكر دور بعض المناهج التعليمية في حجب هذا الجانب المهم من حياة المتعلمة الذي يسمو بنفسها ويهذبها. وصار الجمال في كثير من مجالاته - في فهم مجتمعنا - دليلاً على البعد عن التدين. وهي تهمة ولا شك يهرب منها الناس.

إن البعد عن تعلم الجمال والإحساس به يعني أن تبقى نفوس الطالبات قاسية متطرفة لا تهتم بجمال البيئة ولا بجمال الوطن وحضارته ورقيه بل قد تحارب الجمال ظناً منها أنه يؤدي إلى الفساد الخلقي.

وأعود إلى القوة والضعف وكيف تمّ حصرها في بروز العضلات وعلو الصوت. وأتذكر هنا قول الرسول الكريم: «ليس القوي بالصرعة إنما القوي من يمسك نفسه عند الغضب»[2].

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري ومسلم.

فهـــل الرجال وفق هذا النص أقوياء أم أن النساء هنّ القويات؟ الـــرجل يزمجر داخل بيته ويبدي كل انفعالاته وعصبيته. وفي ظهور الانفعـــال دليل على سيطرة العاطفة وانحسار سيطرة العقل. أي أن الـــرجل لا يـــسيطر عقلـــه على انفعالاته بعكس المرأة التي يقال أن عـــواطفها تغلـــبها. إنها مضطرة إلى ضبط انفعالاتها أمام زوجها أو والـــدها مـــتى ما ثار أحدهما، والرجل الذي يفسح المجال لانفعالاته بالظهـــور وثـــار ثورته وعلا صوته وهدد وتوعد بعيداً عما يفترض بالعقل أن يفعله. فأيهما تغلبه عواطفه في هذه الحالة؟

(باب ما جاء في "اجتزاء النص ليتوافق مع هوى النفس)

تستطيع المرأة أن تستل السر من صدر الرجل، ولكن هيهات أن يتمكن الرجل من الوقوف على سر تخفيه المرأة.

إذا لم يهـــذب الإنسان طبعه ويتربّى على الفضيلة والخير والحق والعـــدل. فـــسيظل قاسياً على أحسن الأحوال هذا إذا لم تصل به الأمـــور إلى الافتـــراء والتحايل والاستغلال والكذب حتى على الله تعـــالى. ولا أعني بهذا الرجل. بل المرأة والرجل في هذا سواء. إذ إن الظـــروف الـــتي يعيش فيها الإنسان هي التي تصنعه بصفات معينة. فـــتجعله أنانياً أو قاسياً أو متسلطاً أو متسامحاً وعطوفاً وكريماً. وقد تجـــتمع فيه كثير من الصفات السلبية أو الإيجابية أو خليطاً من هذا وذاك. لهـــذا كـــان الـــتدخل منذ صغره من أجل التربية بالأسلوب التـــربوي وليس بالأساليب التي تتمثل في العبارة الشهيرة (لك اللحم ولـــنا العظام) هو ما سيجعل الإنسان متوازناً وصادقاً مع نفسه ومع الآخرين. قادراً على رؤية الأشياء بوضوح أكثر من غيره.

إن الـــسيادة التي للرجال في مجتمعنا على النساء جعلت قدراتهم على كثير من التصرفات الخاطئة تنتشر أكثر وتسيء إلى المجتمع كله. وبعـــد التصرفات الخاطئة يستدلون بكتاب الله تعالى لإثبات صحتها مهمـــا كـــان ما ذهبوا إليه. ولا يكون لهم هذا إلا بتحريف المعنى وإعطائـــه التفسير الذي يرونه مناسباً لما يسعون لإثباته. وليس هناك

أدل علـــى قـــولي هذا من ترديد بعض آيات كتاب الله بشكل مجتزأ لـــتوافق ما في نفوس كثير من الرجال في نظرتهم للمرأة. وذلك مثل ترديد الآية: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

في داخـــل الثقافة الشفوية في المجتمع، ثبتت في أذهان الناس صـــورة المرأة الخائنة التي تخدع وتتآمر. وأحد أسباب تراكم هذه الـــصفات في العقلـــية الذكورية وبالتالي في المجتمع كله عن المرأة يـــرجع إلى امـــتلاء القصور بالإماء منذ بدء العصر الأموي وعلى امتداد الدول المتعاقبة بعد ذلك وكنّ من عناصر غير عربية عديدة. ومع بداية العصر العباسي استمرت هذه الصفات السيئة عن المرأة تتنامى بتزايد عدد الجواري المتفرغات تماماً من أجل السيد الذكر في القـــصور. فالجارية تتربى على أن دورها في الحياة كلها يقتصر علـــى إرضـــاء شـــهوات سيدها فقط. ومع مرور الوقت وتزايد أعدادهن أصبحت بعضهن أمهات للخلفاء والأمراء. ولأنهن مجرد "حـــريم" تراجعت مكانة المرأة وتراجعت معها النظرة المنصفة لها. وارتـــبطت تـــصرفات النـــساء في وعي المجتمع بالاحتيال والكيد والتآمـــر. ولـــدعم هذه النظرة تمّ احتزاء النص ليتوافق مع ما في النفس. فصارت "إن كيدكن عظيم تتردد" كشاهد على سوء خلق النساء.

في المجـــتمعات العربية يتعاملون مع الآية السابقة وكأن القرآن الكريم أوردها ليقر حقيقة ثابتة خاصة بكل امرأة بدءاً بحواء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو أن كيدها عظيم. والواقع أن القرآن الكـــريم يحكي ما قاله عزيز مصر عندما راودت زوجته يوسف عليه السلام عن نفسها. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِـــنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (سورة يوسف، 28). نلاحظ أن القـــرآن أورد كلمـــة "**قال**" ليروي لنا عن عزيز مصر. لكن الرجال

أســقطوها وصاروا يرددون الآية دون أن يلتفتوا إلى قائلها الأصلي الذي حكى عنه القرآن الكريم. إذاً هذا هو رأي رجل معين في زمن معين في زوجته التي كانت معه في زمنه ذلك. ويورد القرآن ما قاله الرجل ضمن سياق القصة التي عن يوسف عليه السلام. وعزيز مصر رجل تحدث عن زوجته وقال لها – كيدكن عظيم. وروى لنا القرآن الكريم رأي العزيز في زوجته ضمن سياق قصة يوسف عليه السلام. وربما يكون هذا رأيه في النساء جميعاً بناء على تصرفات زوجته التي ولا شك استاء منها جداً. فهل يعني هذا الرأي الخاص بعزيز مصر أن يكون الكيد صفة عامة لكل النساء؟

إذا كـــان هذا الأسلوب ممكناً في تفسير الآيات فلماذا لم يورد المفسرون الآيات التي تحكي عن مواقف تخص الرجال ويجعلوها عامة أيــضاً كمـــا عمموا – كيدكن عظيم – على جميع النساء؟ السبب بسيط وواضح في ظني. وهو أن من فسّر وأوَّل واستغل النص ليتوافق مع هوى النفس هو رجل في المراحل التي كانت النساء ممنوعات من الكــتابة ومـــن القراءة ومن التعليم. ولا زال الرجال يحتكرون الفقه والفتوى ومجالات عديدة لا تحصى.

نقرأ في ذات السورة يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَـــبُّ إِلَـــى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُـــفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَـــوْمًا صَـــالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا ياأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَـــنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (سورة يوسف، 8 – 14).

القـــرآن الكـــريم يصور لنا التآمر الذي أجمع عليه أخوة يوسف ضده. يتآمرون وهم عصبة على طفل لا يدري عن خططهم. وتآمرهم أوصلهم إلى الاتفاق على قتل أخيهم الصغير يوسف. ويصور لنا كيف يستمعون إلى أبيهم القلق بشأن يوسف فلا يخجلون على أنفسهم ولا تؤنبهم ضمائرهم. بل يؤكدون له أنهم سيحافظون عليه. خداع وتآمر وكـــيد عظـــيم يقومون به. وإذا كان كيد امرأة العزيز حدث بسبب رغبتها في الدفاع عن نفسها في موقف صعب تمر به فإن تصرفها لدفع التهمة عنها قد يكون مبرراً. أما هؤلاء الإخوة فإن أول ما هم عليه هو أنهم يخططون للقتل، وهذه جريمة عظمى. قتل من؟ طفل. وهذا يجعل الجـــريمة أكثر بشاعة.. والطفل من هو؟ أخوهم.. وهذا يجعل الجريمة البـــشعة الرهيبة لا توصف. ثم إن من يريد القتل ليس شخصاً أو اثنين أو ثلاثـــة.. بـــل الجميع.. والتخطيط والتآمر صدر من ضد من؟ من الأبناء ضد أبيهم!!. وكلما نظرت إلى القصة من زاوية وجدتها رهيبة. فهل بهذه القصة التي تحكي عن إخوة يوسف نقول بأن الرجال كلهم يخدعـــون ويتآمرون على أقرب الأقرباء لأنهم كانوا يخدعون والدهم ويريدون قتل أخيهم الصغير؟ هل نلصق تهمة الكذب والتآمر حتى على الأب وقتل حتى الأقرباء والأشقاء بكل رجل لأن القرآن الكريم أورد قصتهم مع أخيهم يوسف؟ هذا لم يحدث لأن المجتمع لا يحاسب الرجل علـــى كـــل شـــيء ولا يبحث عن أي دليل ليؤكد به التهم التي يود إلصاقها بالرجال بشكل عام. لكن هذا يحدث مع المرأة بسبب النظرة الدونية لها من الأساس والتي تجعل الرجل يندفع اندفاعاً للبحث عن ما يؤيد رأيه ويؤكد نظرته حتى وإن اضطر للتلفيق. والتلفيق الذي يبتعد عن كتاب الله يعد منافياً للأخلاق. لكن الكارثة أن "كيدكن عظيم" هذه ظلت عبر قرون تتردد على أنها صفة إلهية لكل امرأة مهما كانت كانت تلك المرأة.

ونقـــرأ آية أخرى في كتاب الله العزيز تستغل من قبل بعض الكتاب وأدعياء حراسة عادات المجتمع على اعتبار أن عاداته تلك فضائل. والفضيلة في مؤلفاتهم قد أعفي منها الرجل. وظلت حكراً علـــى المـــرأة. يقول الله تعالى على لسان امرأة عمران والدة مريم العـــذراء: ﴿... وَلَـــيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (سورة آل عمران، 36). يُقَـــرأ نـــص الآية مجتزأ كما أسلفت. ولا يؤخذ منه إلا ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾.

ولكني أريد أن نتأمل الآية كاملة وما يليها. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة آل عمران، 35 – 37).

نلاحظ أيضاً أن نص القرآن يروي لنا ما قالته امرأة عمران. ثم إن مـــريم الصغيرة التي نذرتها أمها لله، تقبلها الله **قبولاً حسناً**. ليس هـــذا وحسب بل كان زكريا كلما دخل عليها وجد عندها رزق. وكلمـــا سأل الطفلة: من أين لك هذا؟ كان جوابها – ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّـــهِ إِنَّ اللَّـــهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. جواب بليغ ومتعقل وصادق. ولكنه لن يحسب للنساء. أو لواحدةً منهن على الأقل. كما أن القبول الحسن الذي منّ الله به على مريم والرزق الذي من عند الله لم يحسب للنساء أيضاً.

كـــان من المهم ومن الضروري أن لا يتفنن الناس في الاجتزاء فيذكروا آيات الله التي تحكي موقفاً ضمن سياق معين وكأنها جاءت لتقرر حقائق مطلقة وأبدية.

وإذا اســتخدمنا ذات الأسلوب في التخاطب فإننا نستطيع أن نقرأ من كتاب الله تعالى قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾. نقرأ الآية مجتــزأة وليس ضمن سياقها لنؤكد على أن الرجال ليس فيهم رجل رشيد. ونستشهد بأن القرآن ذاته تساءل عن وجود راشد واحد بين كــل الــرجال كلهم. لكن هذا لم يحدث. لأن المفسرين والشراح بشكل خاص والمجتمع بشكل عام عرفوا جميعاً هنا أن الآية يجب أن تكــون ضــمن سياقها الذي وردت فيه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُــلُنَا لُــوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات قَالَ يَاقَوْمِ هَــؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُون فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (سورة هود، 77 – 78). إذاً الجملة وردت على لسان لوط عليه السلام وليست تقريراً إلهياً يؤكد بقطعية عدم وجود رشيد واحد في الرجال كلهم حول العالم.

ومــن هــنا نلاحظ أن المجتمع لا يتعامل مع آيات الله بذات الكيفــية في كــل الحــالات. بل يجتزئ ما يناسب موقفه المتسم بالتمييــز العنــصري ضد المرأة ليستشهد بالقرآن الكريم بأن هذا الوضــع الــذي هي عليه حدث بإرادة إلهية وليس للمجتمع دور فــيها. ويتجاهل كل آية يمكن أن تُعامل بذات الطريقة إذا كانت عن الرجل. أي أنه افتراء على الله تعالى بأن يجرؤ الناس باتهامه – دون وعي منهم ربما – بأنه سبحانه هو من جعل المرأة بهذا الوضع المتدني وليس المجتمع.

نساء الجنوب
والهرولة إلى الخلف

ليس مهماً أن تهرول إلى الأمام أو إلى الخلف ما دمت لا تعلم أين أنت.

إذا كانـــت المرأة قد شاركت حتى في الحياة العسكرية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فما بالنا بالحياة الاجتماعية، فلماذا ترى بعـــض التـــيارات الدينـــية الحالية أن نساء الجنوب في الماضي كنّ بخروجهن إلى الحقل سافرات قد خالفن الدين مخالفة صريحة؟

في جنوب بلادنا الغالية كان الأمر مختلفاً تماماً عن ما هو عليه الآن. فقـــد كانـــت النساء نساء ولسن مجرد "حريم". كنّ نساء معروفات بالوجه والاسم. وكلمة "حريم وحرمة" غير متداولة بل غـــير معروفة **على الإطلاق** قبل تغلغل الأيديولوجيا المتأسلمة في كل تلافيف العقول هنا. وقبل وصول ثقافة الصحراء[1] إلى الجبل. وقـــبل إلباس ثقافة الصحراء تلك لباس الدين لتتسرب إلى الناس دون أدنى تساؤل عن مدى مناسبة ما فيها لكل البشر. ومعلوم أن ثقافـــة الوادي تختلف عن ثقافة النهر. وتختلف الاثنتان عن ثقافة الصحراء.

لم تكـــن هناك بوادر رفض أو حتى توجس من كمّ التعليمات الـــتي قلبت كل المفاهيم في الجنوب مهما كانت مختلفة وغريبة عن

---

(1) معنى الثقافة هنا أفكار وأسلوب الحياة في مجتمع معين.

المنطقة لأنها قادمة باسم الدين. وما يأتي بلباس الدين وباسم الدين لا يرفض ولا يقاوم فهو الدين ذاته في تصورهم.

كـــان شكل الحياة مختلفاً تماماً في الجنوب والسبب يعود إلى أن للفـــلاح عادات وتقاليد تختلف في مجملها عن عادات وتقاليد سكان المناطق غير الزراعية. فالفلاح لا يرى بأساً في خروج النساء سافرات الـــوجه. ليس هذا وحسب بل كان يراه ضرورة تحتمها طبيعة الحياة الإنسانية بشكل عام والزراعية بشكل خاص. وكان الفقه فقهاً، غير خاضـــع لأي تيار إسلاموي. ولذا كان الاختلاف مقبولاً. ولم يكن الفقـــه يجرّم ويحرم كشف الوجه وخروج النساء إلى أعمالهن التي لا تنتهي منذ الفجر وإلى مغيب الشمس.

ويدعم المرأة في ما هي عليه من استقلال وثقة بالنفس وحرية في الحـــركة والتنقل ما كان يُنتظر منها كمسؤولة عن المنـــزل والأرض والمواشي تماماً كالرجل. بل قد تكون قدرتها الإنتاجية أعلى من قدرة الرجل. فهي إلى جانب العناية بالمنـــزل والأطفال وما يتطلبه إعداد الطعام وجلب الماء والحطب من وقت وجهد فإنها تعمل بكفاءة عالية في المزارع والحقول جنباً إلى جنب مع الرجل.

لم يكـــن وجـــود الـــرجال أو استقبال الضيوف يربكها أو يخـــيفها. فهي ندّ للرجل وقادرة على اتخاذ القرار المناسب في كل وقـــت. ولم يكـــن الـــرجل مؤدلجاً بحيث لا يراها إلا جسداً يثير شـــهواته. أنـــه يتعامل معها من حيث هي إنسان مثله. لذا فقد كانت المرأة تستقبل الضيف وتذبح من المواشي ما أرادت وتطبخ مـــا ذبحـــت وتقدمه لمن دخل البيت من الغرباء قبل أن تسأله عن اسمـــه. ولا فرق إن كان زوجها قد عاد من الحقل أم لم يعد بعد. فهي مكانه وتقوم بما كان سيقوم به لو أنه هو الموجود وهي التي في الخارج. وهذا هو الطبيعي.

أن يأتي الغرباء إلى البيوت في الماضي فسببه عدم وجود فنادق ولا مطاعم ولا شيء في تلك الأيام[1] سوى بيوت الكرماء. أوَلم يــؤكد القــرآن الكريم على الكرم وبذل المال وخص ابن السبيل بالذكر: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْــنَ الــسَّبِيلِ...﴾ (سورة البقرة، 177). ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَــى حَقَّــهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (سورة الإسراء، 25 – 26).

الله أعلــم بما في نفوسكم جميعاً وليس أعلم فقط بما في نفوس الــرجال. وبالتالي فالخطاب يشمل النساء والرجال وهذا ما كانت تفهمــه جداتــنا فلا يترددن في إكرام الغريب الذي مرّ على الديار. وكانــت المــرأة من القوة والجرأة والشجاعة وقوة الشخصية والثقة بالنفس بحيث تستطيع التصرف بحرية كاملة في المال والبيت والأرض المزروعة وأعلى الجبال حيث تجمع الحطب وفي سفوحها حيث الآبار والأودية التي تجلب منها الماء. لم تكن سجينة ولا ضعيفة ولا خائفة ولا مترددة. كانت إنسانة مثلها مثل الرجل. والرجل يحترمها ويقدر مــا تقوم به كثيراً حين كان للاحترام والتقدير مفهوم يختلف عن ما هو عليه الآن. اليوم صار سجنها ومنعها من حقوقها الحياتية وتحديد إرادها هو معنى الاحترام والتقدير. فأسمعُ وأقرأُ لمن يردد أن بقاء المرأة في بيــتها هو صون لعفتها واحترام لها وتقدير لإنسانيتها. هذا معنى تحــويل المنــزل إلى سجن الآن. ثم امتداح السجن بعد ذلك وإقناع النساء بأن لا كرامة لهن إلا فيه.

(1) ليس الأمر بالقديم جداً فالجنوب لم يتغير إلى هذا الحدّ المحزن إلا قبل ثلاثين عاماً من الآن. أي أن البدايات كانت قبل ثلاثين عاماً. ثم وصل الأمر إلى ما نحن عليه الآن من تزمت وتطرف فكري رهيب.

كان وجود الحطب بكميات كبيرة أمر أساسي في حياة الناس في الجنوب. فالبلاد باردة في ثلاثة فصول من السنة هي الشتاء والربيع والخريف. أما الصيف فكان معتدلاً أقرب إلى البرودة. وفي كل بيت مطبخ يسمى حينها (ملهب[1]) وفي الملهب تنور أو أكثر. يتم إشعال كمية من الحطب فيه عند الفجر فإذا صار الحطب جمراً أخذته المرأة في صاج كبير ونقلته إلى ما كان يسمى (الصلل) داخل حجرة الجلوس ويكون للتدفئة. ثم تشعل في التنور ناراً أخرى لإعداد الطعام والقهوة والشاي. وفي تنور آخر تشعل النار لتصنع الخبز. وهكذا تظل النار مشتعلة دائماً. ويبقى الجمر في الصلل باستمرار، وكلما تحول إلى رماد جلبوا جمراً مشتعلاً من الملهب، منذ الفجر وإلى ما بعد صلاة العشاء.

وهذا يتطلب جلب الحطب بكميات كبيرة من مناطق بعيدة عن القرى، حيث إن القرية منطقة مأهولة أما منطقة الاحتطاب فهي منطقة الغابات التي لا يسكنها الناس. وهذا يعني أن تصعد المرأة على قدميها أو على دابة جبالاً شاهقة وأن تسلك طرقاً وعرة. وتعود ومعها حزمة كبيرة يعجز عن حملها اليوم شاب معافى. وبعضهن أثناء الاحتطاب تفاجأ بآلام المخاض فتسند ظهرها إلى جذع شجرة وتتمتم بما تحفظه من الدعاء ثم تلد طفلها، وتحل نطاقها لتربط به الحبل السري للطفل وتنتقي من الأحجار التي حولها ما يمكنها أن تستخدمه لقطعه، وبعد ذلك تدفن المشيمة ثم تلف طفلها في بعض ثيابها وتحمله وتعود إلى منزلها. وبعضهن

---

(1) الملهب يقابل المطبخ اليوم. فيه تشعل النار ويعد الطعام. أما الصلل فيكون في إحدى زوايا حجرة الجلوس على الأرض حيث يتم بناء مربع صغير طول ضلعه أقل من المتر. وارتفاعه عشرين سنتيمتر تقريباً. ويكون هذا الركن هو الأكثر دفئاً في المنزل. يجتمع حوله أفراد الأسرة وتوضع حول النار دلال القهوة والشاي.

تحمـــل الطفـــل بيديها وتحمل الفأس وحزمة الحطب على ظهرها وتعـــود إلى منـــــزلها. إلى هذا الحدّ من القوة وصلت النساء في الجنوب. والكبار في السن من أهل المنطقة يدركون حقيقة ما كان يحـــدث بتلقائـــية كاملـــة. وكثير من أمهاتنا وجداتنا تغلق باب حجـــرتها عليها وحدها عندما تشعر باقتراب ولادتها إذا كانت في البيت. وتخرج من الحجرة والطفل بين يديها. كل هذا يحدث لأن أجـــسادهن كانـــت طبيعية. يتحركن ويتعرضن للشمس والهواء ويأكلن الطعام الذي تنتجه الأرض النقية.

كذلك لم يكن تعدد الزوجات ضمن تقاليد المنطقة. فإن حدث وتزوج رجلٌ بأخرى فلا بد أن يكون هناك سبب اجتماعي دفعه إلى هـــذا كأن يموت أحد إخوته مثلاً، وهو مضطر لضم أولاد أخيه إلى عائلـــته لأنه المسؤول الأول عن تربيتهم بعد والدهم المتوفي حسب التقالـــيد ولا يـــريد أن يحرم أمهم منهم لهذا فإنه سيتزوج أم الأيتام لتبقـــى معهـــم في ذات البـــيت إن قبلت به. وهذا ليس دائماً، ولا ضـــرورياً. ولكن حسب الحالة وحسب رغبة أم الأيتام وحسب بُعد قـــرية أهلـــها عن قرية أهل زوجها المتوفي. أما الزواج بأخرى لمجرد الزواج فهو تقليد دخيل وحديث. بدأ وانتشر ثم ارتفعت مكانته بين الرجال فأصبح من السنن التي يحرص المتمسك بدينه على تطبيقها بعد أن ظنّ أنه اتبع كل أوامر الدين واجتنب كل نواهيه ولم يبق إلا سنّة الـــتعدد. فيقـــبل على العذارى واحدة تلو الأخرى وينصرف عن أم الأيتام الفقراء.

إن النظـــرة المستحدثة للزواج بالبكر بعد البكر بعد البكر على أنـــه ســـنّة ينبغـــي فعلها ويتهم كل من اعترض عليها بالخروج عن الإســـلام، هذه النظرة جعلت الذين يكيدون للإسلام ويبحثون عن مجـــالات للانـــتقاص مـــنه يجدون الفرصة مواتية في تصرفات بعض

المسلمين. وها هم يرددون "إن الإسلام يرتكز في تعاليمه على إشباع غرائز الرجل وإرواء شبقه[1]".

والمـــرأة المسلمة تستسلم لهذا الأمر اعتقاداً منها أن عدم رضاها عن زواج زوجها المعدد سيجعلها تقع في الإثم وتغضب الله عزّ وجل وكأنها بهذا تؤيد الرأي القائل افتراء على الله بأن التعدد جاء من الله لهـــدف واحـــد وهـــو إرضـــاء نـــــزوات الرجل وإشباع غرائزه الـــشهريارية، وحاشا هذا الدين أن يكون دين شهوات وغرائز، لهذا فـــإن إعلانهـــن موقفهن ضد التعدد صار نادراً بل يكاد يكون غير موجودٍ أصلاً، خوفاً من الاتهام بالمعصية.

لقـــد تغير المجتمع الجنوبي في نظرته للنساء تمام التغير وذلك بعد أن صار كل شيء، كل شيء يخضع لفكر أيديولوجي دخيل يهيمن بطريقة أخطبوطية على جوانب الحياة المختلفة. فتنقلب المعاني، ويتغير وجه الصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة، والكرامة والذل، والحقوق والواجبات، وكل شيء يصبح ذا معنى مختلف عما كان عليه. وبهذا الانقلاب في المفاهيم عاشت المرأة الجنوبية عهداً جديداً لم تألفه على مرّ العصور التاريخية. فحتى الماضي البعيد عندما كانت النخاسة معلنة ولهـــا سوقها وتجارها. وكانت القصور تمتلئ بالجواري. وكان قسم الحـــريم سجناً تزين فيه النساء من أجل متعة رجل. كانت المرأة الجنوبية تمارس حياتها اليومية في المزارع والجبال والأودية بتلقائية وثقة وبساطة. وكان البيت يجمعها بزوجها وأولادها ولا يسجنها في انتظارهم.

(1) أصبحت بعض النساء تدافع عن التعدد باستماتة عجيبة. وفي محاضرة تلو أخرى تدافع المحاضرات عن التعدد أكثر مما يفعله الرجال أنفسهم. فقد استمعت إلى إحداهن وهي تؤكد ضمن محاضرتها التي تلقيها داخل المدارس باستمرار على أن من تعترض على التعدد تعترض على أوامر الله لأن الله هو الذي أمر الرجال بالتعدد وما علينا كنساء إلا الاستسلام لأمر الله.

إن هــذا الانحطــاط في مكانة المرأة وفي النظر إليها كإنسانة لم يكــن معروفاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولكنه حدث بعد ذلك حيث حصل تراجع كبير في نظرة الإســلام الراقية إلى المرأة مع تقادم الأيام، بل إن خط الانحراف في موضــوع المــرأة بالذات بدأ مبكراً وقبل غيره من الأمور، فالعقلية الجاهلــية المتحجــرة التي تجعل الرجل في موضع التقديس وتقلل من شــأن المرأة. لم تستطع تحمل نظرة الإسلام للمرأة فظهرت الجاهلية علــى السطح من جيد واستمرت حتى الآن في كثير من أجزاء عالمنا العربي.

إن الانحطاط في مكانة المرأة الذي تمر به النساء الآن – في رأيي – هــو أسوأ ما تمر به المرأة في التاريخ الإنساني. إذ كانت بعض.. بعــض النساء تباع وتشترى في سوق النخاسة ولكن بعض الرجال يباع ويشترى أيضاً في ذات السوق. أي أن النساء والرجال في سوق النخاســة ســواء. وفي المقابــل بعض النساء حرائر ولهن مكانتهن واســتقلاليتهن. أما اليوم فلا مكانة ولا استقلال. الكل توابع. الكل بأمــر الأنظمــة والأعراف والعادات في موقع أدنى من الرجل. وأي امــرأة تحــتاج هنا إلى معرّف. وهناك إلى وكيل. وهنا إلى ولي أمرٍ يوافق. وهناك إلى محرم يرضى.. وهكذا.

في الجــنوب كانت النساء كما أسلفت – شقائق للرجال – لكن حدث هذا التغير الذي قلب المجتمع رأساً على عقب فأحدث عادات جديدة وألغى قديمة وأرسى مفاهيم خاطئة. وتحقق التحول خــلال مــا لا يتجاوز الثلاثين عاماً فقط. لم يحدث هذا الانقلاب الغــريب في غــرب السعودية. أعني بلاد الحجاز بنفس القوة التي حــدث بها في الجنوب. إذ صارت الحجازيات الآن أكثر استقلالية مــن المــرأة الجنوبية. وظل كثير من رجال الحجاز أكثر تمدناً في

تعاملهم مع المرأة من الرجل الجنوبي. مع أن الأمور كانت معكوسة قبل ذلك. فقد كانت الحجازيات تحت تأثير القوانين والأعراف العثمانية التي حكمت الحجاز لا يتمتعن بحرية النساء الجنوبيات. كن قابعات في البيوت ولا حق لهن في الخروج كالجنوبيات الفلاحات.

إن التحول الذي حدث خلال الثلاثين عاماً له أسباب في نظري ليست بخافية على كثيرين. وأستطيع إجمالها في القول بأن أهل الحجاز أولاً سبقوا جميع مناطق المملكة في التعليم ونشر الوعي. فالمجتمع الحجازي ليس ببساطة المجتمع الجنوبي، وبالتالي وجد فيه من يقاوم المدّ الفكري المغاير والقادم من بيئة ذات طبيعة جغرافية وسكانية مختلفة تماماً. أي أن الحجازيين كانوا يقفون على أرضية صلبة أشعرهم بالندية الفكرية إن لم يكن شعوراً بالتفوق في كثير من الأحيان على جحافل المنادين بالانغلاق والمنددين بكل التقاليد ما عدا التقاليد القادمة من المنطقة الوسطى. يضاف إلى ذلك كون الحجاز مطلع على عادات كثير من شعوب الأرض ومنذ قرون طويلة وذلك من خلال وفود الحجيج في كل عام واختلاطهم السنوي بهؤلاء القادمين إلى بيت الله بسبب ما يقوم به أهل مكة من خدمات لهم فيها مصالحهم في هذا الموسم، فمكة المكرمة كانت تخلو تماماً تماماً من الرجال أثناء تواجد الناس بعرفة ومِنى ومزدلفة.. ولا يبقى فيها إلا النساء. وفي تلك الأيام القليلة من كل سنة هناك طقوس تخص نساء مكة المتفردات بالسلطة الكاملة على المدينة أثناء خلوها من الرجال فتخرج كل النساء في مهرجان سنوي يستمر ثلاث ليالٍ متتاليات. يخرجن منذ الصباح إلى الشوارع في مسيرات منظمةٍ ولا يرجعن إلا قبل الفجر. ولا مجال لذكر كل تلك التفاصيل النسوية السنوية.

خلاصة القول إن الحجازيين يختلطون بالناس وهم الآن أصح من غيرهم كمجتمع يستطيع أن يفهم الاختلاف ويحترم المختلف ولا يفرض عليه قناعاته ولا يقبل بفرض قناعات غيره عليه. أما المجتمع المغلق فهو عكس ذلك تماماً لأن الانغلاق يؤدي إلى الجمود الفكري والسطحية وتوهم امتلاك الحقيقة.

الجنوب يعتمد على فلاحة الأرض والعيش من خيراتها. وكل ما يشغل بال الفلاح في ذلك الوقت هو المطر ودخول المواسم. فهو لا يبذر أرضه ثم لا يحصدها إلا في مواسم يعرفها بحسب حركة النجوم في السماء. وجدتي رحمها الله كانت تفتح نافذتها قبل الفجر لتتأمل السماء إذا كانت صافية حين كانت القرى تخلوا تماماً من الكهرباء، وتشير بإصبعها المرتجفة إلى نجمة بعيدة تخبرني باسمها ووقت ظهورها ودلالات ذلك الظهور. ثم تستمر في ذكر أسماء النجوم ومواقعها. وإن كنت آسفة على شيء فليس كمثل أسفي على عدم تعلمي منها يرحمها الله كل تلك الأسماء والدلالات والتحركات للنجوم.

هؤلاء البسطاء.. فجأة هُوجم ما لديهم وتمّ إقناعهم بأن ما هم عليه فسق وزندقة[1] أو مخالفة شرعية على أقل تقدير. والمجتمع البسيط ليس كالمجتمع المثقف إذ إن الاختراق أسهل في مجتمع الناس فيه لا تقرأ سوى القرآن وبعض كتب الفقه الشافعي تحديداً. وتعيش حياتها بتلقائية وبساطة شديدة ولا يعرفون من الدنيا إلا مزارعهم وبيوتهم ومن الناس إلا جماعتهم وأقاربهم فلم يروا أحداً إلا عابر سبيل أكل وتزود بالطعام وغادرهم ولم يسمعوا عن شيء إلا ما

(1) تكفير الناس أو رميهم بالفجور والفسق كثير ومستمر فحتى قبل وقت قصير ومن فوق منابر المساجد تمّ رمي من لديه (دش) بأبشع الصفات. وبعدها صار في بيت الخطيب الذي رمى الناس بتلك التهم دش على سطح بيته وظهر الأئمة والدعاة والفقهاء على القنوات الفضائية الواحدة تلو الأخرى.

تذكره رواياتهم وحكاياتهم. وبالتالي فإن الإتيان بعادات مغايرة باسم الـــدين ســـوف يجعلهم ينساقون خلفها مصدقين بها مستغفرين لما اقتـــرفوه من ذنوب حسب الرأي الجديد. ولا زالت بعض زميلاتي الـــيوم يـــؤكدن لي أن خروج المرأة فيما مضى كان بسبب جهلها للـــدين. هـــؤلاء الزميلات من حملة البكالوريوس. ويفترض بهن أن يعرفن شكل البيئة الزراعية وكيف تكون الحياة ضمنها ويفترض بهن أيضاً أن يعرفن أن هناك القطعي في الدين وهناك ما هو محل خلاف بين أئمة المذاهب الأربعة.

تمّ إبـــلاغ الجميع عبر المنابر والمدارس والكتيبات والمطويات والمنـــشورات والأشرطة بشكل مكثف جداً، أن خروج النساء إلى المـــزارع للفلاحة أو لإحضار الماء والحطب إثم لا يعادله إثم. إذ إن خديجـــة وعائشة وفاطمة وسائر الصحابيات رضوان الله عليهن لم يخرجن من بيوتهن إلا إلى القبر. هذا ما ردده المنادون بسجن النساء من على المنابر وثبت في أذهان الناس. ويحق لي أن أسأل هنا: ما دام الوضـــوء يسبق كل صلاة وما دامت البيوت تخلو من دورات المياه فـــأين كنّ يتوضأن؟ لا شك أنهن كنّ يخرجن عدة مرات في اليوم لقضاء الحاجة وللوضوء. حتى أن كلمة (الخروج إلى الخلاء) يقصد بهـــا الذهاب إلى مكان يخلو من الناس لقضاء الحاجة. ولا شك أن هـــذه الأمـــور تتطلب الابتعاد عن الحي من أجل الستر. إذاً.. كنّ يمـــشين في الطرقات والأزقة ويتجاوزن البيوت ليصلن إلى الخلاء. هـــذا هو حال الصحابيات وغيرهن. هل كانت المرأة فقط هي من تحـــتاج الخلاء؟ لا شك أن الرجل سيذهب أيضاً. إذاً كانت النساء والرجال الكبار والمراهقون والصغار كلهم خارج البيوت لأوقات عديدة في اليوم تمتلئ بهم الشوارع إلى أن يصلوا إلى خارج الأحياء فقـــط من أجل الوضوء وقضاء الحاجة. إلا أن كان أحد يتصورهم

مخلوقات نورانية وليست بشرية لا يأكلون ولا يشربون ولا يقضون حاجـــاتهم! هذا عدا الخروج لجلب الحطب للطهي والتدفئة وعدا جلـــب الماء وعدا العمل في الأمور المختلفة التي لم ينه الإسلام المرأة عـــن القيام بها. إذ إن الإسلام لم يمنع المرأة من المشاركة الفعالة في جميع أوجه الحياة. وحتى الحرب وهي حرب والمعركة وهي معركة لم تُمـــنع عنها النساء فما بالنا بما هو دون ذلك. ويكفي أن أذكر موقفين اثنين يشهدان للصحابيات بحضور المعارك كمقاتلات فيها وليس فقط ساقيات للجند مضمدات للجراح. على أننا لو اكتفينا بتضميد الجراح وسقاية الجند لعرفنا أن فيه مخالطة وحوار بين النساء والرجال.

أمـــا الـــشاهدة الأولى فهي أم عمارة نُسيبة بنت كعب. التي شـــاركت في معـــركة أُحد ووقفت أمام المشركين في أول الصف للمسلمين تحمل السيف والترس وتقاتل المشركين بضراوة. والسؤال الـــذي يتبادر إلى ذهن كل من عرف قصتها هو - من درّب نسيبة على القتال وأين درّبها؟ لا شك أن حمل السيف والضرب به يتطلب قوة عضلية ومهارة عالية. وما دامت نُسيبة قد حملت السيف عندما تقهقـــر الـــرجال من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وتراجع صـــحابته في الموقـــف العـــصيب ومن تراجع أبطالٌ لم يكن يُتوقع تـــراجعهم لولا صعوبة الموقف وقسوته. فكانت شجاعة نُسيبة تفوق شجاعتهم بل وشجاعة صناديد قريش الذين انتصروا في المعركة، إذ حملـــت السيف وقاتلت إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى أنه قال صلى الله عليه وسلم: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني»[1].

(1) فتح الباري، ج6، ص 80.

لقـــد ثبتت أم عمارة حين فرّ الأبطال في المعركة. فهل كانت قدراتها القتالية تلك دون تدريب. هل ستحمل سيفاً لمواجهة صناديد قريش دون أن تكون قد تلقت التدريب الذي يؤهلها لمواجهة أؤلئك الأقوياء. لا شك أن لديها من التدريب ما جعلها تثق بنفسها وتحمل السلاح دون تردد أو خوف.

تلـــك هي أم عمارة التي حملت السيف دون رسول الله وتلقت الـــضربات عنه. وبعد ذلك. ورداً على من ظنّ أن هذا حدث قبل نـــزول آيات الحجاب. أم عمارة ذاتها شاركت في حروب الردة[2] عندما شنّها أبو بكر الصديق رضي الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمـــا باقي الصحابيات فكنّ يسارعن بالماء لكل من يطلب الماء مـــن المسلمين ويهرولن لتضميد الجراح، فإن كان الجرح بسيطاً تمّ تـــضميده واستمر صاحبه يقاتل وإن كان غائراً ويسبب خطراً على حـــياته يداويـــنه بما لديهن من أعشاب إضافة إلى الضماد أو ينقلن الجرحى إلى مكان بعيد عن ميدان المعركة، ففي حديث: (عن الربيع بـــنت معوذ قالت: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي ونداوي الجرحى ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة)[3].

النـــساء يقاتلن ويداوين ويحملن الجرحى والقتلى إلى المدينة بعلـــم رسول الله وبموافقته وبتأييده صلى الله عليه وسلم. فهل من يمـــنع النـــساء الآن مـــن كامل الحياة بالفتوى والقرار والتعميم والكتـــيب والخطـــبة وبكل وسيلة يرى أنه سيصحح ما أخطأ فيه رسول الله؟ حاشا لله.

---

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج8، ص 412.

(3) صحيح البخاري. كتاب الجهاد باب مداواة النساء الجرحى في الغزو.

كـــان يمكـــن أن يأمر رسول الله كل رجل مسن بأن يداوي الجرحى ويسقيهم ما دام المسن غير قادر على القتال لكبر سنّه، لكي لا تلمـــس يد المرأة جسد رجل جريح ولكي لا يكون هناك اختلاط ولا تكلمه ولا يكلمها. لكنه لم يفعل هذا وترك مجالاً لمن شاءت من الصحابيات لتشارك في الجهاد.

وفي صـــحيح مسلم (عن أنس رضي الله عنه أن عائشة وأم سليم كانتا يوم أُحد **مشمّرتين** تنقلان الماء على متوهما ثم تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنه) زوج رسول الله صلى الله عليه وســـلم وحبيبـــته التي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها مشمّرة هرول بالماء لتسقي المقاتلين مثلها مثل سائر النساء المشتركات في المعركة.

أما الشاهدة الثانية فهي أم حرام بنت ملحان والحديث عنها كالتالي: (عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدثتني أم حرام بـــنت ملحان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فـــنام في بيـــتها ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: ما يضحكك يا رســـول الله قـــال: أناس من أمتي عرضوا علي غواة في سبيل الله يركبون ثبج البحر كالملوك على الأسرة. فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها ثم وضع رأسه ونام. ثم استيقظ وهو يـــضحك. فقلت: ما يضحكك يا رسول الله فقال: أناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله - كما قال في الأولى - فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت من الأولين. فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت حين خرجت من البحر فهلكت)[1].

(1) أخرجه البخاري ومسلم ومالك والترمذي.

إذاً كانت أم حرام بنت ملحان تطمح في أن تكون في صفوف الغزاة وأخبرت رسول الله بطموحها هذا. فهل قال لها استغفري ربك ولا تقولي هذا إذ إن في الرجال من يكفي للقتال؟ هل قال لها لا يجوز خروجك من منزلك لغير ضرورة واشتراكك في الغزو ليس ضرورة؟ هل صمت على الأقل ولم يجبها؟ لقد دعا ربه لكي تخرج ضمن الجيش مقاتلة. فاستجاب له الله. يا الله.. رسولك يدعو وأنت تستجيب. إذا كان خروجها لا يجوز إلا لضرورة فهل سيدعو لها الرسول ثم يستجيب الله لدعوته؟

اليوم كثير من القوم يرون بعكس ما يرى الله ورسوله ثم يقولون بأن رأيهم هو الدين ذاته وما علينا سوى اتباعه.

هل نكتفي بهاتين الشاهدتين؟ لا شك أن موقف رسول الله منهما دليل لكل ذي عقل بأن هناك تغيراً حصل في فهم الناس لتعاليم دينهم جعلهم يرون النساء دون الرجال ويرون أن سجنهن خارج أي مشاركة حياتية حقيقية أمر إلهي جاءت به تعاليم الدين الحنيف.

وها هي سيدة أخرى من الصحابيات رضوان الله عليهن تخبرنا كم عدد غزواتها مع رسول الله فتقول في حديث أخرجه مسلم: (عن أم عطية رضي الله عنها قالت: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، وكنت أخلفهم في رحلهم أصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى).

وذات السيدة تخبرنا عن العيد فتقول في رواية البخاري ومسلم: (عن أم عطية رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرج في العيدين العواتق والحيض وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين قالت إحداهن: يا رسول الله إن لم يكن لها جلباب قال: فلتعرها أختها من جلابيبها).

صـــلى الله عليك وسلم يا رسول الله. تأمر النساء بالخروج أمـــراً. وكان يمكن أن تسكت فمن خرجت فلا بأس ومن بقيت تبقـــى في بيـــتها. لكنك تأمرهن. وكان خروجهن واجب عليهن يجـــب أن يلتزمن به. لتنفذ جميع النساء أمرك وتشهد جميع النساء العـــيد وتفـــرح جمـــيع النساء في العيد. العواتق - أي المراهقات والحـــيّض اللـــواتي جـــاءهن الدورة الشهرية وذوات الخدور أي السيدات اللواتي تجاوزن سن المراهقة تأمرهن كلهن بحضور صلاة العـــيد أمـــراً. والعيد يُلبس له الجديد ويفرح فيه المسلمون فإن لم يكن لأيهن جلباباً مناسباً للعيد فلتستعر من أختها لتفرح بما تلبس كالآخرين. ولنا أن نتساءل اليوم عن اللواتي يُسمح لهن بالامتثال لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضور صلاة العيد! الأمر على العكس، لقد التزموا صمتاً حيال هذا الحديث كصمت القبور لكي لا تخرج النساء إلى صلاة العيد.

ومـــاذا عن التجارة والبيع والشراء؟ عن قيلة الإنمارية رضي الله عنها قالت: (قلت: يا رسول الله إني امرأة أشتري وأبيع فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطي بها أقل مما أريد أن آخذها به ثم زدت حتى آخـــذها بالـــذي أريـــد أن آخذها به وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به. فقال صلى الله عليه وسلم: لا تفعلي هكذا يا قيلة ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعط به الذي تـــريدين أن تأخذيه به. أعطيت أو منعت وإذا أردت أن تبيعي شيئاً فاستامي الذي تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت)(1).

امرأة تخبره صلى الله عليه وسلم أنها تبيع وتشتري السلع فلا يعـــنفها لخروجها واشتغالها في الأسواق. ولا يسألها - أليس لك

(1) أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن سعد والحكيم والترمذي.

محـــرم فيـــنفق عليك أو يتولى عنك أمور تجارتك ولا يقول لها إن علـــيها اعتزال عملها الذي يضطرها للبقاء في السوق، بل يعلمها كـــيف تتـــصرف أثـــناء البـــيع والشراء، نعم يعلمها كيف تبيع وتشتري. أتعلم يا رسول الله صلى الله عليك وسلم أن استخراج الـــسجلات التجارية لا تكون إلا بواسطة ولي أمر المرأة لسنوات طـــوال. والآن فقط بدأ التفكير في جعل المرأة بذات سجل بدون واسطة وولي.

المـــرأة المـــسلمة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تـــستقبل ضـــيوف زوجهـــا في بيـــتهما وتشارك زوجها في مجلسه وتـــشاركهم الطعام. وأذكر هنا ما جاء في البخاري ومسلم أن أبا أســـيد الـــساعدي دعا النبي وأصحابه لحضور عرسه، فما صنع لهم طعاماً ولا قرب إليهم إلا امرأته أم أسيد. ثم بلّت تمرات في تور (أي إناء) فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الطعام أماثته (أذابته) له فـــسقته، تتحفه – أي تخصه – بذلك. هل نهرتها يا رسول الله؟ هل قلت لها إنها "حرمة" يجب أن تكون في قسم الحريم؟ حاشاك رسول الله. فهذا لا يليق إلا بالجهلاء من الناس فقط.

وتأملـــوا معـــي المعاني التي في هذا الحديث الوارد في صحيح مسلم: (عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن جاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارسياً كان طيب المرق، فصنع لرسول الله صلى الله علـــيه وسلم ثم جاء يدعوه، فقال صلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا» فعاد يدعـــوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» قال: لا، قـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: «لا» ثم عاد يدعوه، فقال رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» قال: نعم، في الثالثة. فقاما يتدافعان حتى أتيا منـــزله).

رجـــل يدعو رسول الله إلى الطعام. فهل قال لزوجته ابقي في المنــــــزل ســـأذهب إلى جارنـــا آكل عنده وأعود؟ هل قال لها – سأخرج. ثم يدير ظهره ولا يخبرها أين يذهب ومتى سيعود؟

حاشا لله. إنه يرفض الدعوة إلا إذا وافق الداعي على أن تكون عائـــشة معه. وأول ما يتبادر إلى ذهني هو حرص الرسول صلى الله علـــيه وســـلم على أن ترافقه عائشة رضي الله عنها في زيارته تلك لجارهم الفارسي الذي يجيد الطبخ فتأكل معه. وأما ثاني ما نستدل به مـــن خـــلال الحديث أن جار الرسول الذي أتى ليدعوه إلى تناول الطعـــام في بيـــته كان يتحدث مع الرسول في حضور عائشة فكان الرســـول يـــشير إليها ويقول وهذه. ثم يعود الفارسي من جديد فلا يطلـــب الرســـول منها المغادرة بل يكرر (وهذه) وكذلك في المرة الثالـــثة. وفي كل مرة كان يشير إليها لا يقول (وتلك) فهي ليست بعـــيدة بل قريبة منه برغم وجود الفارسي لهذا استخدم اسم الإشارة (هـــذه). بعد ذلك قاما يتدافعان ويحاول كل واحد منهما أن يسبق الآخر للوصول إلى بيت جارهم طيب المرق. بساطة في التعامل تنطلق مـــن الـــثقة بالـــنفس والثقة بالجار والثقة بالزوجة. كلها استبدلناها بالشك والخوف والتوجس. مع أن هذه الأخلاقيات كانت حتى عند الجاهلي إذ تقول الخنساء عندما رثت أخاها صخراً:

لم تلفه جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار.

تـــريد الخنساء أن تقول عن أخيها إنه شهم ومهذب ومحترم.. وصـــفات كـــثيرة تلـــك التي تجعل الرجل لا يتلصص ولا ينظر إلى جارته، ليس خوفاً من الرجل الذي في البيت لأنه غير موجود أصلاً. بل لأن رجولته تأبى عليه أن يتصرف بحقارة.

وأمـــا الـــشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس فقد اشتغلت بتعليم القـــراءة والكـــتابة وكانت معلمة حفصة بنت عمر بن الخطاب أم

المؤمـــنين وتميـــزت بالحكمة ورجاحة العقل حتى أن الخليفة عمر بن الخطـــاب ولاّهـــا ولاية الحسبة وتلك الولاية تمثل وزارة التجارة في عـــصرنا الحاضر فكانت مسؤولة عن الأسواق والأوزان والمعاملات، تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق من الرجال والنساء معاً في عمل يومي يستهلك جلّ وقتها. وتُعد الشفاء بنت عبد الله بن عـــبد شمس أول امرأة تتقلّد منصب يوازي منصب وزيرة في الخلافة الإسلامية[1].

هـــل اختفـــى الرجال في عهد عمر ليولي مسؤولية التجارة لـــسيدة؟ أم أن الـــرجال في عهده رضي الله عنه أقل في قدراهم وأضعف في شخصياهم من أن يديروا أمر التجارة. بلا شك أن في الـــرجال أمناء وأقوياء بحيث يمكن أن يتولوا أي منصب يريد أن يوليه لهم خليفة المسلمين لكن عمر يدرك أن النساء شقائق الرجال ويـــدرك موقف الإسلام من المرأة ولذا سلّم النساء هذه المسؤولية عندما وجدها أهلاً لها.

أما أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما فقـــد كانت تباشر العمل في أرض زوجها الزبير بن العوام وتقول: (فكـــنت أعلف فرسه وأستقي الماء... وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ) لم تكن الأرض بجوار البيت. بل كانت على بعد ثلثي فرسخ. والفرسخ يساوي ثلاثة أميال أو ستة آلاف متر. كل هذه المسافة يا أسماء يومياً تقطعينها و لم يقل لك أبوك أو زوجك أو الرسول الكريم صاحب أبيك وزوج أختك، لم يقـــل أيهم اجلسي في البيت فخروجك غير جائز وعلى زوجك فقط أن يخرج فهو الرجل وأنتِ الـــ "حرمة"؟

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج8، ص 268.

وهـــا هي أم هانئ تجير الرجال، أن الرجال يستجيرون بها، أي يطلـــبون حمايتها من القتل، فتجيرهم أي أنها تحميهم. من ماذا؟ من القـــتل. أي أن أرواحهم صارت أمانة بيدها. أليس في مكة من يجير رجال من آخرين يريدون قتلهم؟ ما موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنه يقرها على ما فعلت. ففي صحيح البخاري ومسلم: عن أم هانـــئ بـــنت أبي طالب رضي الله عنها قالت أجرت رجلين من أحمائي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانـــئ). أم هانئ تحمي رجلين استحقا القتل يوم فتح مكة وعَليٍ رضي الله عنه يبحث عنهما ليقتلهما. لكن الرسول الكريم يوقف علياً بأن يقرها على ما فعلت وبهذا يثني علي عن ما كان سيفعله. مع أن علـــي رجل وهي امرأة وكان يمكن أن يتفوق رأي الرجل على رأي المـــرأة. هذا جانب. أما الجانب الآخر فهو الإجارة في حدّ ذاته. إنها امرأة وتجير الرجال. ويقرها رسول الله على عمل كهذا. لم يقل لها يا أم هانـــئ أنت امرأة ولا يجوز للنساء إجارة الرجال والتفاوض معهم حول هذه الأمور، ابقي في بيتك وابتعدي عن مواقف تخص الرجال. لقد أقرها صلى الله عليه وسلم وكأنه يقول لها وللجميع: أنت شقيقة الـــرجل لك ماله وعليك ما عليه. بل إن ما فعلته يا أم هانئ أفضل مما كان سيفعله علي بن أبي طالب وهو قتل الرجلين. أم هانئ في **فتح مكة** تجير الرجال. أي أن هذا الأمر ليس في بداية الدعوة بل بعد الفتح.

أمـــا حـــياتهن فلنـــستدل على جانب منها من خلال ما رواه الـــبخاري في هذا الحديث: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: زففنا امرأة إلى رجل من الأنصار فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة أما يكون معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو).

خـــروج النساء إلى الحياة كان في عهد الرسول صلى الله عليه وســـلم وصـــحابته كخروج الرجال، لا فرق. يعملن في التجارة أو

الـزراعة ويحـاربن في المعارك ويجرن المستجير. وفي الأعراس يحثهن رسول الله على الغناء والطرب.

كـيف صـورت بعـض الخطب والأشرطة ووسائل الإعلام والكـتب الدراسية مجتمع الرسول وصحابته بخلاف ما كان عليه.. ولمـاذا جعلوا المرأة في منـزلة دونية ثم نسبوا دونيتها إلى كتاب الله وأفعال رسول الله؟

لقد وصلت الأمور بين العامة اليوم إلى حدّ يقهقه منه من يسمع به أو يبكي. ولكم أن تتصوروا أن المرأة إذا كانت في العدة لا تخرج من منـزلها. هل الأمر يقف هنا؟ لقد صار في قائمة الممنوعات عليها أمور عجيبة ولا يحاول الدعاة والمتصدرين لإرشاد الناس لتوضيحها. كـأن تمتنع عن مشاهدة القمر، فالقمر ذكر وتمتنع عن شرب القهوة بالزعفـران. فالزعفـران أيضاً ذكر. ولم ينتبهوا لتحريم الرز واللحم واللبن وغيرها.

وفي صـحيح مسلم في كتاب الطلاق حديث جابر بن عبد الله قال: (طُلِّقتْ خالتي، فأرادت أن تجد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بلى فجدي نخلك فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفاً).

إذاً المرأة مطلقة وهي مزارعة وتريد أن تذهب إلى نخلها وتعمل في مزرعتها وتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يسألها ما إذا كـان لهـا ولي أمر. أليس لها ابن كبير يعمل بدلاً عنها في الأرض. ألـيس لهـا أب أو أخ.... إلخ. لتبقى في المنـزل على الأقل وقت العـدة. وبعد العدة تخرج.. بل يشجعها على الخروج وهي في عدتها وتـشجيعها يـتم بأن يذكرها أنها عندما تعمل في أرضها وتنتج من نخلـها فربما استطاعت أن تتصدق أو أن تعمل معروفاً. فهل وضّح الدعاة والداعيات هذا الأمر للناس أم صمتوا عن هذا الحديث أيضاً؟

كـــيف تعيش من مات عنها زوجها في مجتمعنا وكيف تقضي عدتها؟ إنها حكايات أخرى.

أخبرتني بعض النسوة ممن تجاوزن الخمسين أن أزواجهن يذهبون إلى المسجد ويستمعون إلى خطبة الجمعة ثم يعودون حانقين غاضبين علـــى النـــساء دون سبب، ولأن المساجد قريبة ومكبرات الصوت مـــرتفعة يقلن لي: كنا نسمع تحريض الرجال علينا من قبل الخطيب وحديثه عنا نحن النساء بكل سوء، ونحن في بيوتنا نردد: (حسبنا الله ونعـــم الوكـــيل، حسبنا الله ونعم الوكيل. ندعو الله عليه فقد سبّنا وشكك في عفتنا إذا غفل الرقيب من الرجال. يفعل هذا فوق المنابر) ثم يعـــود رجالنا بعد الخطبة مكفهري الوجوه تخلو كلماتهم من اللين والطيـــبة وتـــستمر حالنا هذه أياماً عدة وكأن الرجل لا يكتفي بأن يأمـــرني بـــل يـــريد أن يأمرني وهو مستاء مني. فما أن يتغير الحال ويخاطـــبني برفق وهو يأمرني بشيء مما يريد إلا وجاءت الجمعة التي تليها فخرج إلى المسجد وعاد حانقاً مكفهراً.

لا شك أن الخطباء ليسوا سواء ففي الخطباء خير كثير، وفيهم من يدرك وجود أطياف من الرجال يستمعون إليه ويفسرون كلماته بطريقة عملية خاطئة فينتبه إلى ما يقول وينتقي ما يجب أن يعلن من علـــى المنـــبر. وفـــيهم من يردد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: استوصـــوا بالنـــساء خير. وقوله خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي وفيهم أيضاً من كان يعمّم القول ويجمّله فيجعل النساء كلهن امرأة واحدة ثم يؤكد على سوء خلقها ووجوب مراقبتها ومحاصرتها وإلا فإنها ستقدم على الحرام وتندفع إليه اندفاعاً إذا غفل المراقب عنها ووجدت فرصة إلى الحرام.

المجتمع كله غيّر ما لديه من عادات وفق ما قالوا له أن هذا هو الـــدين. فاعتنق بكل إخلاص عادات دخيلة أنتجتها قسوة الصحراء

وندرة أمطارها بالإضافة إلى ما قدمته لها الثقافات المختلفة في الماضي السحيق وتناسب مع طبيعة أهلها. ثم أضاف المجتمع من عنده ليزايد علــى صاحب العادات الدخيلة ثم صار يدافع عن تلك العادات التي ظنّ بأنها له أصلاً. فتطرف كثيراً في تشدده وصار أكثر ولاءً وتعصباً من صاحب تلك العادات الأصلي.

تغيرت نجد وما جاورها. وتغير أهلها فعرفوا الشعوب وعاداتهم عــن طــريق الدراســة والقراءة ووسائل الاتصال المختلفة والسفر كوسيلة مهمة في التعرف على المختلفين وقبول التغيير وقد ساعدهم المستوى الاقتصادي الذي هم عليه. فهجر كثير منهم العادات القديمة واهــتموا بالمدنية بمعناها العميق الذي يُعنى بالإنسان كإنسان وليس فقط بالمنتج الحديث فصارت الرياض عاصمة جميلة تقبل التعددية - إلى حــدّ مــا - وتــسمح بالتــنوع وهي في طريقها الآن لتحترم الاختلاف. والتجارة تعني أن يغامر المشتغلون بها ويسافروا ويخرجوا عــن حــدود التعصب المنغلق إلى رحابة الدنيا، إلى انطلاقة الفكر والنفس معاً. أن يروا الناس والعادات والتصرفات والنظم الاجتماعية فتزداد معارفهم وتتسع آفاقهم. وبهذا فإن في نجد - وأنا هنا أتحدث عن العامة وليس عن النخبة المثقفة أو الرموز الدينية - فيها المتمدنون وفــيها المحتفظون بتقاليدهم القديمة والمنفتحون والرجعيون والمعتدلون والمتشددون... إلخ.

أمــا الجــنوب فقد صبغته ألوان التشدد والتدين الانتقائي مع وجود قلة من المتمدنين والمنفتحين المعتدلين لكن حتى هؤلاء يعيشون بــتحفظ وكأن حياتهم سر لا يخبرون به أحداً. لأن سلطة المجتمع لا ترحمهم ولا تسمح لهم بمخالفة التقاليد مهما كانت شكلية.

الهرولة إلى الخلف بقيت عند الذين يظنون أنهم قوم مختلفون عن غيرهــم بطبيعة تكوينهم ولا تسري عليهم قوانين التطور. وهذا ما

يجعلهم عبئا يعرقل التنمية في البلاد بشكل عام. إن عرقلة التنمية تنشأ لأن المجـــتمع في مجمله ترك الدين كفطرة ينشأ عليها الإنسان واعتبره أداة يستخدمها من أجل أهداف أيديولوجية يسعى لجعلها مهيمنة في كل مكان ويرى أن على كل شخصٍ أن يدخل ضمنها.

يكـــاد المجـــتمع أن يكون مقسوماً إلى قسمين ليسا متساويين. نـــصف للملتـــزمين المتزمتين وآخر لغير الملتزمين. وكأن الإسلام في حـــوزة فـــريق دون الآخر. أما معنى الالتزام – بين النساء[1] – فهو التقيد بمظهر معين يعطي إشارة إلى أن صاحبته التزمت بهذا المظهر في لباســـها تحديـــداً، وقد يتبعه التزام في العبادات والمعاملات. مع خلو المعـــنى عـــند الكثيرات ولا أقول الجميع من بعض القيم التي يفترض بالمسلم المثقف إدراكها ومنها على سبيل المثال وليس على الترتيب: النـــزعة إلى التضامن والتعاون والأمانة وإتقان العمل واحترام الآخر والحوار والحرية... إلخ.

والتـــزامهن بمـــا ذهـــبن إليه من مظهر أو حتى سلوك حق من حقـــوقهن المشروعة ما دمنّ قد قررن أن يفعلنه (هذا على فرض أنه ناتج عن قرار عقلاني وليس ناتجاً عن انفعالات عاطفية تأتي بموجب مـــا يقـــع عليهن من ضغوطات نفسية يلجأن بسببها إلى ما يعتقدنه تديـــناً). لكـــن المشكلة هو أن هذا الشكل الذي يعطي دلالات في مجتمعنا بأن صاحبته التزمت يعطي أيضاً دلالات عن التي ليست على شـــاكلتها. أي أن الـــتي ليـــست في هيئـــتها الخارجية مطابقة لهيئة الملتزمات و لم يستطع أحد السيطرة على فكرها وإدخالها تحت مظلته الأيديولوجية فهي غير متدينة في نظر المجتمع. وكأن الدين مع اللواتي

(1) في هذا الكتاب أتطرق للمجتمع بشكل عام وأخص النساء بالتفصيل لهذا فليست هناك تفاصيل عن الرجال إلا من حيث علاقتهم بالمرأة.

اتفقــن علــى أن يلبــسن الحجاب بطريقتهن الخاصة بهن. أما باقي مــسلمات الأرض منذ أن جاء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لسن سوى لاهثات خلف هوى النفس و لم يتبعن تعاليم الدين. أو كــأن الــدين للسعوديات. ليس كلهن. إنما مجموعة محددة صرن منــبع الهدى والتقوى. ولإيمانهن العميق بامتلاكهن للصواب رأين أن التدخل من أجل فرض آرائهن على الأخريات واجب شرعي يحتمه علــيهن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) دون أي اعتبارات لمعنى المعــروف ومعــنى المنكر إلا وفق فهمهن فقط. فالمعروف ما يرينه معــروفاً والمنكر ما يرينه منكراً مؤكدات أن رؤيتهن تلك هي رؤية الــدين نفسه لأنهن يمثلن الدين الخالص. وكأن الفقه الإسلامي يخلو تمامــاً مــن الاختلاف وكل ما فيه قطعي. وهذا يعني قطعية رأيهن ووجوب إلزام الأخريات به. إذ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – علــى فرض صحة ما ينادين به – لم يعد أمراً ونهياً بل صار إلزاماً ومحاســبة وضغوطاً مختلفة يُستغل فيها العمل أسوأ استغلال. فيصبح الإتقــان لــيس ذا قــيمة وما نحاسب عليه كموظفات هو شكلنا الخارجي[1].

ولــبس السواد في بلادنا التي يغلب على مناخها ارتفاع الحرارة غالــباً فهو أمر أكرهت عليه النساء فقط. أم الذكور فيرتدون اللون الأبــيض طــوال الصيف والغتر البيضاء كما ويحق لهم في الشتاء أن

---

(1) تنص التعاميم الصادرة عن الرئاسة العامة لتعليم البنات على تقييم حاجبي المعلمة ضمن درجات تقييم أدائها الوظيفي فالحواجب المهملة تأخذ الدرجة كاملة والتي تهذب حواجبها تنقص درجاتها بغضّ النظر عن كفاءتها كمعلمة وتحرص كثير من المديرات على تنفيذ التعميم كما ورد. يضاف إليه تعاميم تقول بتقييم المعلمة من خلال شكل ملابسها أيضاً. فهل نكون في عملنا محترفات وفق تلك التعاميم. وهل تستطيع أي معلمة أن تفهم معنى الاحتراف في العمل بعد كل هذا؟

يرتدوا الثياب السوداء والبنية بدرجاتها والكحلية بدرجاتها والرمادية بدرجاتها وكذلك يحق لهم لبس المعاطف الملونة.

المرأة فقط عليها أن تلبس العباءة السوداء طوال العام. ولا فرق إن كانت تخرج من عملها ظهراً في الصيف أو الشتاء، عليها دائماً أن تتسربل بعباءتها السوداء وتخفي وجهها خلف الأقمشة السوداء أيضاً.

قالـــت إحداهن لزوجها: أريد أن أخفف من غطاء وجهي.. أشعر بالاختناق. أجابها: إذا متِ بسبب حجابك تموتين شهيدة.

وكانـــت قـــد خطرت في بالي فكرة تبادل الألوان بين النساء والـــرجال في بلادنـــا. وكلما جاء أغسطس تمنيت أن يُفرض لبس الـــسواد علـــى الرجال وتنفرد النساء باللون الأبيض. - ليس كلهم ولكن يُفرض على الرجال الذين حرموا الألوان على النساء فقط -.

إن أكبر ما يعانيه المجتمع وما يجعله ثابتاً لا يحيد التقدم إلى الأمام خطوة واحدة هو أن الناس فيه يرون النسبي مطلقاً والأحكام عندهم قطعية ونهائية وهذه الرؤية الضيقة والمتحجرة جعلت من الصعب على المجـــتمع أن يتخلى عن أفكاره حتى ولو بدا له وجود خلل في بعضها على الأقل.

قليلون هم الذين يملكون الشجاعة لمراجعة أنفسهم والتأكد من مـــصدر أفكـــارهم التي اعتنقوها وآمنوا سنوات وسنوات بصحتها فالـــنقد ملكة عظيمة لا يملكها الجميع. أما التقليد فهو الأسهل. لذا نرى الناس يستسلمون للعادات الشائعة حتى وإن كانت خاطئة.

ويتـــبادر إلى الذهن سؤال مفاده: هل نؤمن حقاً بأن الإسلام لكل زمان ومكان؟ أكاد أسمع رد القارئ الكريم وهو يقول الإجابة بنـــبرة قوية: طبعاً الإسلام صالح لكل زمان ومكان. أنا أيضاً أقول: نعـــم الإســـلام صالح لكل زمان ومكان. الإسلام ليس للسعوديين

والــسعوديات فقــط. بل هو لكل من آمن بالله رباً وبمحمد نبياً في مــشارق الأرض ومغاربهــا. فإذا كنا في مجتمعنا قد خصصنا أماكن للــرجال وأخرى للنساء طبقاً لما نتصوره عن الإسلام فهل الذين لم يفعلــوا هــذا من مسلمي الصين مثلاً وهم أضعافاً مضاعفة مقارنة بمسلمي بلادنا. هل نراهم خارجين عن تعاليم الإسلام لأنهم لم يجعلوا المرأة خلف أسوار شاهقة تعزلها عن المشاركة في الحياة؟ لا بأس فأهل الــصين ليــسوا قدوة. لكن.. ماذا عن بيت الله والحج والعمرة وقد أوجــبهما الله على النساء والرجال في موسم واحد ومكان واحد؟ لماذا لم يجعل الله الحج في موسمين مثلاً، واحد للرجال وآخر للنساء. أو لماذا لم يسقط فريضة الحج عن النساء ويخص الرجال بها لما يتطلبه الحــج من مشقة بدنية وأخرى مالية والأهم لما فيه من اختلاط. فهل فرض الله على النساء ما يرى الرجال أنه لا يجوز فرضه؟ أستغفر الله العظــيم. وماذا عن مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم من النساء في خروجهن وحروبهن وعملهن والتي تناولت بعضها في الصفحات السابقة.

وإذا قــام أي عاقل بمقارنة بسيطة بين مجتمع الرسول صلى الله علــيه وســلم وبين مجتمع الجنوب فيما مضى فسيلاحظ التشابه بين المجتمعين من حيث مكانة المرأة وحياتها وتحركها وطريقة تعاملها مع الــرجل وتعامــل الــرجل معها بتلك البساطة التي تخلو من الشك والــتوجس والخوف والمراقبة. وتعطي معنى لكلمة كرامة الإنسان، الإنسان وحسب بغضّ النظر عن عمره ولونه وجنسه ومكانه.

في عــام 1987م كانــت جدتي لأمي رحمها الله قد تجاوزت السبعين من عمرها قالت لها إحدى المراهقات حينها وقد تعلمت أن تــصنف الناس إلى ملتزم وغير ملتزم وفق ما تعلمته من معلماتها في المدرســة: غفــر الله لكنّ يا جدة، كنتن سافرات الوجه في الماضي

وتخـــرجن كـــثيراً من البيوت لكن ربما كان هذا يحدث لأنه لم يكن لـــديكن علم بأن كشف الوجه حرام لذا فلا إثم عليكن إن شاء الله. حركت جدتي نظارها بكفها المرتجف وقالت بلهجتها العسيرية: (قد هـــو حـــرام يا فلانة يوم ندر لش إم ماء من إم جدر ولو أنش بعداً تـــشلين إم قربة من إم بير بظهرش أربع مرات هم يوم كان كشفتي وجهـــش، إم إسلام يا ابنتي لم يعيق إم حياة. إم عرب غيروه فقد هو عـــسير بعد ما جاء يسير) قالت جدتي لمن لا يعرف لهجتها: أصبح كشف الوجه حراماً عندما صار الماء يخرج من الحائط – أما لو أنك لا تزالين تحضرينه بالقربة على ظهرك من البئر أربع مرات كل يوم لما رأيت في كشف الوجه بأساً. الدين لا يعيق الحياة والدين يسير لكن الناس جعلوه عسيراً.

هـــذا الجواب على ما فيه من بساطة يضيء للمتأمل طريقه إن أراد التأمل. إذ قدمت السيدة المسنّة للمراهقة المؤدلجة سبب إمكانية جعـــل المجتمع بهذا الشكل، فهل على كل مجتمع في الدنيا أن يكون نسخة مطابقة لمجتمعنا لكي يُعد مجتمعاً مسلماً محافظاً وإذا لم يكن فإن هـــذا معناه أنه خارج عن حياض الإسلام أو على الأقل قام بمخالفة شرعية؟

لقد أعطى القرآن الكريم للمرأة حقها وكيانها وإرثها وقراراتها مـــا لهـــا وتعليمها ومشاورتها ومبايعتها. لكن الجهلاء أرادوا تصوير الإسلام بصورة المانع القامع المذل المهين العسير.

إن المقاومة الشرسة ضد تصحيح وضع المرأة حتى وإن كان هذا التـــصحيح ملـــزماً للمسلمين استناداً إلى ما ورد في كتاب الله وسنّة رسوله الكريم سببها ما سيحدثه التغير من مساس بموقع الرجل كسيد متفرد لا يقبل الندية من امرأة.

ورع انتقائي

إنه جنتلمان.. لا يضرب المرأة أبداً إذا كان على رأسه قبعة!!!

أن ينتقـــي أحدهم من الدين ما يراه مناسباً له بشكل شخصي ويسكت عن ما لا يريد فهذا شأنه وسيحاسبه الله عليه والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم. لكن أن يفرض طريقته تلك على الآخرين ثم يقـــول بعـــد ذلك إنه يتقي الله فهذا هو بالضبط الورع الانتقائي الـــذي أراه ماثلاً في الانتقاءات الكثيرة التي تتم داخل المجتمع ولنقرأ هـــذا الـــنص ونرى الانتقاء في مجتمعات مختلفة مجتمعنا على رأسها. (مـــثلما تختار المجتمعات الأوربية القديمة من الدين المسيحي ما يدعم مواقفها كذلك أخضعت مجتمعات إفريقيا وآسيا الإسلام لتعامل من المـــستوى نفـــسه. داخل القرآن تعاليم بين صنفين: الأول إرشادات مطبقة بشكل مبالغ فيه – مثلاً الإرشادات المتصلة بالحجاب – وثانياً سلـــسلة من الأوامر القطعية والتي تمّ تجنبها و لم يطبقوها من قرن إلى قـــرن. وفي هذا الصنف توجد أساساً التعاليم الدينية التي كان هدفها إعطاء الحقوق للمرأة باعتبارها إنسانة.

في القـــرن السابع دخل الإسلام في صراع عملي ضد الدناءات المنتـــشرة في المجتمع العربي، ليس ضد الدناءات فقط بل ضد أسبابها العمـــيقة أيضاً إذا ورد في القرآن: ﴿يُوصيكُمُ اللَّهُ في أَوْلاَدكُمْ للذَّكَرِ مـــثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ...﴾ (ســـورة النساء، 11). ثم يقول الله تعالى بعد أن حدد كيفية تقسيم الإرث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ وَيَـــتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء، 13 – 14).

لنـــتأمل وضعية السجل العقاري نلاحظ إذاً أن الفلاحين منذ ثلاثـــة عشر قرناً بمعدل ثلاثة أجيال في القرن الواحد كلهم مسلمون أتقـــياء بلا شك اختاروا اللهيب الكبير لجهنم على التضحية بتوريث الأرض للمرأة)[1].

قمت بنقل النص السابق برغم أن الكتاب الذي نقلت منه كان يـــتحدث عـــن مـــنطقة أخرى لكن هذا التطبيق الانتقائي لنصوص القـــرآن.. والتساهل في تنفيذ الرجل لما سماه القرآن (حدود الله) هو الوضـــع قائم حتى الآن والمسكوت عنه من الرجال كافة، فالنساء – كـــثير منهن – لا يؤرَّثن، وخصوصاً إذا كان الإرث أرضاً زراعية.. وذلـــك كـــي لا تتزوج من عائلة غريبة فتذهب الأرض إلى أولادها المنتمين إلى العائلة الأخرى. وتُلزم المرأة الوارثة بالذهاب إلى المحكمة وتـــسجل تـــنازلها أو بيعها للأرض دون أن تأخذ ثمنها حقيقة. حتى صـــارت من تشذ عن هذه القاعدة وتطالب بنصيبها الذي فرضه الله لهـــا ليست سوى جاحدة لفضل أسرتها غير مهذبة معهم تسببت لهم في مـــشاكل وشـــتت شمل أسرتها.. إلى آخر ما هنالك من اتهامات وأحاديث لا تنتهي عن المظلومة التي تطلب الإنصاف. وبقدرة المجتمع تصبح هي الظالمة والجاحدة. إلى هذا الحدّ يمكن جعل الموقف مقلوباً دون أن ينتبه أحد. أما كشف الوجه ومع أنها **مسألة خلافية** بين أئمة المـــذاهب وكـــبار الفقهاء.. وليست كمسائل الإرث تدخل ضمن الحقـــوق فقـــد تـــشدد المجتمع فيها إلى حدّ جعل الصغيرات يعددن

(1) ص169، جرمين تيليون، الحريم وأبناء العم، تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط.

الحجاب من أركان الإسلام الخمسة وجعل الصغار يراقبون أخواهم وأمهاهم بكل شراسة وتطاول حرصاً على الأركان التي زادت ركناً عندهم.

يقـــرؤون نص الآية التي تفرض الإرث ثم الوعيد للذين يتعدون علـــى المـــيراث ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِــدًا فِــيهَا وَلَـــهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء، 14). ومع ذلك يستمرون في ما هم عليه. فأي تقوى يدعون أنهم ملتزمون بها؟

أمـــا مسألة الحجاب. فكلنا كمسلمين نقر بأن الحجاب تشريع إلهي. لا خلاف في هذا. ولكن الخلاف في غطاء الوجه والكفين (أما شـــكل مـــوديل الحجاب ولونه وحجمه فهذه أقرب إلى مصممي الأزيـــاء منها إلى الفقهاء).. وما دام خلافاً فلن نستيقظ ذات صباح لنجد أن الناس كلهم قد اتفقوا على أحد الأمرين. إذاً.. الخلافي يبقى خلافـــياً. ولكن بالغ المجتمع بواسطة ما يتلقاه من فتوى في حجاب النساء إلى أن صار إخفاءً للنساء وتغييب لهن. وصار لزاماً على كل النساء غطاء الوجه. لو أن الأمر بقي إلى هنا لقلت إنه يدخل في مجال فرض رأي فقهي على آراء أخرى. لكن الأمر تعدى فرض الغطاء في الحجاب ليصل إلى نوع الغطاء وسماكته وهل به ثقب أمام العين أم لا ومتى يمكنها أن ترى من خلال الثقب ومتى لا يمكنها ذلك. والعباءة وطـــريقة لبـــسها هل تضعها كما يضع البدوي والبدوية في الشتاء عباءهما (ما يسمى البشت أو المشلح) على رأسيهما أم تضعها على كتفـــيها أيضاً كما يلبس الرجل عباءته. وانطلاقاً من طريقة اللبس هـــذه يصنف المجتمع النساء إلى متسترة ومتبرجة. مع أن هذه وتلك، كلتيهما تلبسان العباءة وتغطيان الشعر والوجه.

والمتـــبرجة عـــندنا تُعـــد في مجتمعات إسلامية أخرى شديدة التمـــسك بتعاليم الدين ومبالغة فيما يخص الحجاب. إذاً.. تحول زي

المـــرأة المـــسلمة إلى **هـــاجس رئيسي** في حياتها. وصارت تفاصيل التفاصـــيل فـــيه تـــرعبها وترعب المجتمع معها خوفاً من تخطي تلك التفاصيل. لم تعد المسألة مسألة الحجاب، فلا وجود لسافرات الوجه إلا في ما ندر والنساء جميعهن محجبات بشكل عام.

إن تسليط الضوء على الفتوى التي تدعم الشكل المراد. فتحريم حجـــاب وتحلـــيل آخر. وتحريم لون وتحليل آخر يخضع لرأي الفقيه ولـــيس إلى نـــص بعينه. ويظل إغفال الآراء الفقهية التي تخالف في معظمهـــا مـــا ذهب إليه من يقول بغطاء الوجه. وكيفية الغطاء هو الذي يجعل العامة يرون الحق الكامل فيما سمعوه من آراء لتصبح هي الدين ذاته. ويصبح شكل الحجاب هو محصلة كل ما يراه المجتمع في المرأة.

أما الإرث.. أو الطلاق.. أو عدم التعليق – أي لا متزوجة ولا مطلقة – إلخ.

فهذه حقوق لا يتم تسليط الضوء عليها ولا تُتداول بين الناس كـــربع تداولهم لحرمة رؤية وجه امرأة. ففي المسائل النسائية ينحرف المجتمع كثيراً فيصبح متهاوناً فيما هو مع المرأة ومع مصلحتها وما هو ضد ظلم الرجل واعتدائه عليها. ويؤكد المجتمع على ما يستطيع به أن يكـــبلها ويحاصـــرها. أي أنه يختار من النصوص ما يراه مع ما يريد فيسلط عليها الضوء ويبالغ في إبرازها مع السكوت عن النصوص التي تخالف رأيه. ويتجنب تماماً كل النصوص التي قد تجعل المرأة ذات حق في مـــسألة مـــا. وسأضـــرب مثالاً.. وللقارئ الكريم أن يتتبع باقي الأمور.

في مـــسألة الطلاق يأمر الله الرجل أمراً بأن يمسك بمعروف أو يسرح بمعروف يقول الله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْـــرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ...﴾ (سورة البقرة، 231). لكن كثيراً من الرجال فضّل أن يخالف أمر الله ويعتدي ويظلم نفسه. وليس هناك ظلم للنفس أشد من عصيان الله فيما فرضه من تنظيم للعلاقات والمعاملات بين البشر. والمجتمع لا ينصف بمؤسساته الرسمية وأعرافه وتقاليده المرأة التي وصف الله الرجل الذي لم يسرحها بمعروف بالمعتدي. بل يتركونه يعتدي كم يشاء من الوقت. وعلى الطرف الآخر نراهم لا يتهاونون في اتخاذ التدابير الصارمة لمنع سفر المرأة بلا محرم وذلك لوجود حديث "وليس نص من القرآن" يقول بعدم سفر المرأة إلا بمحرم – ويصمتون عن الأحاديث الأخرى التي جاءت في هذا الشأن – علماً بأن السفر بالطائرة يختلف عن السفر على جمل جملة وتفصيلاً. وبتغير الزمان والأحوال تتغير الفتوى. ولا يتطلب سفر المرأة بالطائرة كل هذا التشدد وكل هذه القوانين.

أي أنهم يتجاهلون نص القرآن الكريم حول التسريح بإحسان ويلوحون بنص حديث عن السفر بلا محرم.

الاعتداء بعدم التسريح بإحسان هو اعتداء كما وصفه الله تعالى في كتابه وكان الأولى أن يكون مما يجب التركيز عليه وإظهاره للناس من قبل الذين قالوا إنهم من المهتمين بالإنصاف والعدل والحق وأن تطبيق دين الله من أولوياتهم في هذه الدنيا وأن تأخذ مثل هذه النصوص عندهم مساحات اهتمام أوسع لإبرازها وتنظيم القوانين التي تحدّ من الاستهتار بمعناها وما جاءت لأجله.

إذاً هذا التُقى الظاهر على المجتمع يتجاهل الأوامر السماوية الواضحة والجلية التي تعطي للمرأة حقوقاً رفض أن يطبقها حتى وإن آمن أنها من عند الله. يرفض ما أنزل الله جهاراً نهاراً.

وحتى بعض الأئمة وخطباء المساجد تجاهلوا تسليط الضوء على ما يكون لصالح المرأة ونص عليه القرآن الكريم كمسألة الإرث مع أن

ورعهم وصل إلى حدّ الالتزام بتقصير الثياب وإطالة اللحى وهذا يعطي تصوراً بأنهم حتى في الأمور الشكلية التزموا بتعاليم الدين فما بالنا بالجوهرية.

إن وضع المرأة الحالي في المجتمع من المسلمات التي لا تقبل النقاش أو النقد والمراجعة عند كثيرين والحديث عنها مجازفة كبيرة تجنب الوقوع فيها من كان يجدر بهم تناولها على الأقل لكونهم أصحاب مكانة دينية وبالتالي اجتماعية ولهم تلاميذ ومريدون ينصتون ويحفظون ويتداولون كل صغيرة وكبيرة صدرت عنهم.

بعض النساء ضد أي تغيير أو حتى تحسين على الأقل لما هنّ عليه ويرجع السبب - في رأيي - إلى هيمنة ما تتلقاه المرأة من ثقافة مناهضة لها. أي أنه تمّ تثقيفها بأن لا ترى نفسها إلا دوناً عن الرجل.

وكل محاولة لنقد الواقع وإظهار بعض ما فيه سيرمي صاحبها أو صاحبتها بمخالفة الدين. فهل حقاً مارس الدين كل هذا التمييز العنصري ضد النساء؟ معاذ الله - ويرفض كثير من الناس التغيير على اعتبار أن هذا التمييز ضد المرأة منزل من عند الله؟

عمل المرأة

يجب على المرأة أن تتعلم منذ صغرها القيام بالدور الذي خلقت له.. وهو دور الخادمة.

جوته

المـــرأة في الـــسعودية بـــشكل عام ليس لها مشاركة حقيقية في مشاريع البلاد النهضوية والتنموية. ولا زال المجتمع – إناثاً وذكوراً – يـــرى أن عمـــل المرأة ترفاً سُمح لها به ضمن حدود ضيقة وشروط عديدة. وكأن العمل مجرد وقت تمضيه المرأة بعيداً عن أسرتها لتحصل منه على العائد المادي الذي تريد. وما دام هذا الفهم موجوداً إلى اليوم فلـــن أســـتغرب وجود من يردد بأن بيتها أولى بها وأطفالها بحاجتها وخـــروجها مدعاة للمفسدة... ولن أستغرب وجود من يردد في كل مـــرة يـــتم النقاش حول عمل المرأة بأنه يرى أن على المرأة أن تعمل ولكـــن وفـــق ما يناسب طبيعته.. إلخ من الكلمات التي تناشد النساء بمـــزيد مـــن الانسحاب من الحياة وتركها للرجل وحده إذ إن هذه المناشدات جاءت وفق النظرة الدونية للمرأة في المجتمع والذي لا يرى فـــيها الإنسان المنتج والفاعل بل يراها في حدود ما لديها من استعداد بيولوجـــي موجـــود لدى كل الإناث في كل الحيوانات والحشرات. ولـــيس امتيازاً اختصت به النساء فقط وهو قدرة جسدها على الحمل والولادة. وقد يظن البعض أن القدرة على الحمل والولادة يعني القدرة علـــى التربية لهذا ينادون ببقائها إلى جانب طفلها. وهذا غير صحيح علـــى الإطلاق. فحتى ذوات المرض العقلي قادرات على الإنجاب فهل نقول أهن قادرات على التربية؟ وكل أنثى في الحيوان والحشرات قادرة

علـــى أن تحمل وتضع حملها. إذاً الحمل استعداد بيولوجي عند الأنثى دون الذكر – ليس كل الذكور فالذكر في فرس البحر لديه الاستعداد للحمل والولادة لذا فهو الذي يحمل ويلد وليست الأنثى[1].

أمـــا التربية كعلم وخبرة تؤدي إلى تكوين إنسان سوي نفسياً وجـــسدياً فهذا شأن آخر يدركه ذوي الاختصاص في التربية وعلم النفس.

وبـــرغم تراجع تلك النداءات الآن بسبب المردود المادي الذي ســـاهم في رفـــع مستوى الأسرة اقتصادياً إلا أن أثرها على المجتمع بـــشكل عـــام وعلـــى المرأة خصوصاً لا زال جلياً من حيث تحديد مجـــالات العمل أو النظر إلى بعض الأعمال بشيء من الحذر كعمل الممرضة أو الطبيبة برغم تزايد أعداد العاملات في الحقل الطبي.

إن كثيراً من النساء العاملات عملن لأهداف اقتصادية بحتة دون النظر إلى العمل كقيمة في حدّ ذاته ولولا وجود الراتب لفضلت كثير مـــن النساء الاستسلام للكسل داخل المنـــزل على النشاط والخروج من المنـــزل كل صباح[1].

---

(1) إحدى أجمل الأمور المتعلقة بفرس البحر هي طريقة تكاثره: خلال موسم التكاثر يرقص الذكر حول الأنثى وينفخ كيساً جلدياً موجوداً تحت بطنه، وهكذا يتفاخر ببطنه المنتفخة ويرقص حول الأنثى ساعات حتى تستجيب لمغازلته تلك. عند ذلك يحدث أمر مفاجئ وهو أن تضع الأنثى بيوضها داخل كيس الذكر المنتفخ، وهناك يحدث الإخصاب ويبدأ الحمل داخل بطن الذكر – الذكر حامل!! وإذا انقضت مدة الحمل عانى ما تعانيه الإناث من آلام المخاض ثم أنجب الكثير من الصغار. وربما بدأ مغازلته للأنثى بنفخ الكيس ليذكرها بأنه قادر على الحمل والولادة.

(1) في نتائج استبانة عن الرغبة في العمل من أجل العمل لطالبات لمرحلة الثانوية أفادت النتيجة أن 89% يتمنين الخروج للعمل من أجل الراتب. فقط 11% يردن العمل لكي لا يبقين في المنـــزل كل الوقت أما الخروج للعمل لأن العمل قيمة في حدّ ذاته فلم يكن واضحاً بشكل دقيق في أذهان الطالبات.

إن كسلها وبقاءها على هامش الحياة صورة متغلغلة في جذور الثقافة الاجتماعية عن المرأة. أما الرجل – بعكس المرأة – فإنه يعمل ويريد أن يعمل حتى وإن كان لديه مصادر رزق تغنيه عن بذل الجهد اليومي في عمله. والسبب هو أن الرجل يدرك تمام الإدراك أن العمل ليس ترفاً وليس لتمضية أوقات الفراغ. بل هو تنشيط للنفس وتوسيع للمدارك وبناء للشخصية، كما أنه يولِّد في أعماق الإنسان قدراً من احتـــرام الـــذات ويشبع رغبته في أن يكون عضواً منتجاً في مجتمعه ويشعره عمله بأنه يعيش في معترك الحياة وليس على هامشها وبالتالي فـــإن لحياته معنى إضافة إلى ذلك المردود المادي الذي لا شك يحرص على الحصول عليه. ولهذه الأسباب مجتمعة فإن الرجال الذين يملكون المـــال أو الذين بلغوا سن التقاعد يفضلون الاستمرار في العمل. أما المرأة في مجتمعنا فهي إن عملت فإن الأسباب السابقة ليست ضمن ما يدفعها للبحث عن وظيفة. إنها تعمل من أجل أحد سببين أو كلاهما – الأول هـــو المردود المادي. والثاني هو عدم البقاء في البيت طوال الوقت.

المرأة عندنا بشكل عام بحثت عن العمل من أجل الاستقلال المادي الذي سيتحقق لها بواسطة الوظيفة والذي ربما فكرت بعضهن أنه سيلغي ولو الجزء اليسير من سيطرة الواهب المعطي دائماً – الرجل –.

المرأة تساهم بشكل فعلي في الإنفاق على الأسرة إلا أن الرجل لا يـــستطيع أن يعلـــن هذا أمام أحد من أصدقائه أو أقاربه. وذلك لاعتـــبارات ذكـــورية تجعلـــه حريصاً على الاحتفاظ بسره العائلي الخـــاص. وبرغم مشاركة النساء العاملات رجالهن في الأعباء المادية داخل الأسرة إلا أنهن يعتقدن أن على الرجل تحمّل كافة المسؤوليات المادية وأن كل ما يقدمنه قدمنه من باب التنازل عن حقهن في ادخار أموالهن والتنازل عن حقوقهن في الأخذ من أموال أزواجهن.

ووفق ما تتصوره المرأة عن نفسها فإن من الواجب أن يسارع ولي الأمر الخاص بها إلى تقديم كل احتياجاتها المادية – حتى وإن كانت غنية – وهذا يعني بقاءها في دور المستهلك وليس المنتج. هذه النظرة لأنفسهن أدت إلى أن يكون العمل ليس من ضمن أولوياتهن الحياتية حتى ولو لم يكن العمل إلا من أجل المردود المادي فقط، إذ إن المردود المادي الذي تحصل عليه من عملها – حسب رأيها المتوافق مع ثقافة المجتمع كله – كان يجب أن تحصل عليه من الرجل وهي مستريحة في منزلها. فتصبح المرأة مُنغمسة في النمط الاستهلاكي للعيش الذي تُعد المرأة فيه على رأس القائمة ومع ترسيخ هذه النظرة عن المرأة في عقل المرأة ذاتها يصعب عليها أن تطوِّر نظرتها إلي العمل الذي سيكسبها شعوراً باحترام الذات والندية إضافة إلى الاستقرار والاكتفاء. وتنعكس هذه النظرة التي ترسخت في عقل المرأة عن ذاتها على العمل وذلك بأن تتحول المهنة في نظر القائمة بها إلى وظيفة تؤديها ليس إلا.

وإذا كان البعض – من النساء والرجال – يرى أن تربية الطفل هي الأهم فلا يمكن أن يؤدينها باقتدار في ظل خمولهن وتغييبهن عن الحياة وبعدهن عن إيقاعاتها السريعة، وعن تطوير الذات الذي يحققه العمل. هذا عدا ما أثبتته الدراسات الحديثة عن الطفل ذاته وما يحققه له عمل والدته. إذ إن الطفل الذي يظل لصيقاً بأمه يصبح أقل ذكاء من ذلك الذي بدأ طفولته ضمن الحضانة ورياض الأطفال. لأن الذي ظلّ مع أمه التي أصلاً تكاد تنعدم عندها خبرات حياتية متجددة لن يتعلم شيئاً بخلاف الطفل الذي انضم إلى عدد من أقرانه وانخرط في برامج تعليمية تعتمد على اللعب كوسيلة للتعلم.

ونعلم جميعنا أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرضعة غير أمه. وأخذته مرضعته إلى قبيلتها وتربّى في مكان مختلف وبيت مختلف

وبيئة مختلفة. كذلك كان كثير من الصحابة وقواد الجيوش والأبطال. أي أن استئجار مرضعة كان أمراً شائعاً ومنتشراً. فكيف كانت شخصياتهم رضوان الله عليهم. بل كيف كانت شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؟

إن ربط خروج المرأة للعمل بانهيار الأسرة ليس سوى حجة يلوح بها كل من رفض عملها وتعليمها من قبله لأنه حرص على جهلها وقلة خبرتها وذلك لما يحصل عليه من شعور بتفوقه عليها. إذ إن رفض خروج المرأة وطريقة التعامل معها، وقيمتها في المجتمع هي وليدة مفاهيم نشأت عن أعراف وتقاليد وممارسات اجتماعية لا تمثّل الإسلام وقد رأينا في الصفحات السابقة أن المرأة المسلمة في عهد الرسول وصحابته كانت تشارك في كل مجالات الحياة حتى المجال العسكري والحربي ولم يمنعها الرسول صلى الله عليه وسلم، على العكس من ذلك. شجعها وعلمها ووجهها. إضافة إلى أن القرآن الكريم لم يخص بآياته الرجال ويستثني النساء عندما يتوجّه الأمر والخطاب لعموم المسلمين.

فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (سورة النور، 55). وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء، 59) في كل تلك الآيات وآيات كثيرة غيرها. يتوجّه الخطاب فيها إلى عموم المسلمين رجالاً ونساءً. فإقامة الدين بعقيدته وبكل ما فيه من أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية، هي مسؤولية الجميع وليست مسؤولية نصف المجتمع فقط. وخطاب الطاعة لله ورسوله ولأُولي الأمر الوارد في الآية التي تحدّثت عن الطاعة هو متوجّه إلى جميع المكلّفين. والوعد بالاستخلاف متوجِّه إلى كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النساء والرجال على التساوي وليس للرجال فقط كما يتوهم كثيرون. إذاً فالإسلام كرسالة سماوية لم

يجعـــل الحـــياة حكراً على الرجال دون النساء. و لم يخلق ما في الأرض للرجال فقط و لم يحرم ما في الأرض على النساء.

ثم ماذا عن امرأة لا تعمل وجلست لتربية الصغار والقيام بأعباء المنــــزل ولكــنها لا تعي من التربية سوى إرضاع الطفل وتبديل ملابـــسه. أما التربية التي تصنع من ذلك الطفل إنساناً متوازناً سوياً قـــادراً علـــى العطاء ومتوافقاً مع نفسه ومع مجتمعه فهذا ما يعوزها وينقصها، بسبب انعزالها وعدم تطور مداركها. ويكفي أن نعرف أن بعـــض الأمهات داومن على شراء دواء الكحة وخلطه بحليب الطفل في الرضـــاعة لكـــي ينام ويريحها ليلاً لتذهب إلى حفل زفاف وهي مطمئنة أنه نائم. فهل هناك جهل أكثر من هذا؟

ويتعرض الأطفال من قبل آبائهم وأمهاتهم للأذى النفسي والبدني كلما كان الأهل أقل تمدناً بسبب انخفاض نوعيه التعليم. وليس مستواه. والفرق بين نوع ومستوى التعليم يجب أن يكون جلياً في أذهاننا. وبهذا الصدد أنقل ما ورد في الشرق الأوسط عن تربية الطفل في مجتمعنا. (تمر الأســـرة السعودية المعاصرة بأزمة لا تنحصر مظاهرها في ارتفاع نسب الطـــلاق فحـــسب، ولكـــن أيضاً في نسب الأطفال الذين يتعرضون للاعـــتداء، إذ تشير دراسة أجراها مركز أبحاث مكافحة الجريمة بوزارة الداخلية إلى أن 45% من الأطفال السعوديين يتعرضون لصورة من صور الإيـــذاء النفـــسي يليه الإيذاء البدني في حياتهم اليومية، وأن 21% من الأطفـــال يتعرضون لهذا الإيذاء بشكل دائم، ويمثل الإيذاء النفسي أكثر أنواع الإيذاء، يليه الإيذاء البدني، ومن أكثر صور الإيذاء البدني الضرب المـــبرح للأطفال بنسبة 21% يليه تعرض الطفل للصفع بنسبة 20% ثم القذف بالأشياء التي في متناول اليد 19%)[1].

---

(1) جريدة الشرق الأوسط، الأربعـــاء 14 شوال 1426هــ/16 نوفمبر 2005، العدد 9850.

علـــى أن الـــرجال الذين يرون أن بقاءها أصلح لها ولأطفالها والـــذين مارسوا التهديد بخطورة أي تغيير يمس وضع المرأة لم يقولوا هذا وفق دراسات وبحوث أفادت بما قالوا ولا وفق تجارب مرت بها البـــشرية فكمـــا أشرت قبل قليل كان السائد أن ينتقل الطفل إلى مرضـــعة مـــن غير أهله تربية ضمن بيئة غير التي فيها أمه. إذاً لماذا يـــنادون بعدم خروجها ثم يؤكدون على براءة أهدافهم، وأنها فقط لمصلحة الصغار ومصلحتها؟

إن المناداة بعمل المرأة بشكل فاعل ومشارك في الحياة لا تحدث إلا مـــن رجل لديه ثقة بالنفس تجعله لا يقلق من تقدم المرأة ولا من مـــشاركتها في ميدان العمل والرجل الذي يفسح المجال لنجاح امرأة هو متجاوز لعقد كثيرة أرهقت كثير من الرجال في الشرق تجاه نجاح المرأة في العمل.

وربمـــا يعود التحفظ على عمل المرأة إلى ما في ذهن العوام من فهم مختلط بين الانحلال الخلقي وبين تحرير المرأة. فالتحرير الذي يعني الانعـــتاق مـــن العبودية أو الحصول على الحقوق. حسبوه يعني في اعـــتقادهم التخلي عن القيم الأخلاقية أو على الأقل سيكون خروج النـــساء طريق إلى ذلك. ويروى أن رجلاً من العوام سمع عن مناداة "قاسم أمين" بتحرير المرأة، فسأل هذا الرجل البسيط في ثقافته ووعيه المتعـــصب في تفكيره عن عنوان بيت قاسم أمين وذهب إليه وطرق الـــباب وعندما فتح قاسم أمين بابه قال الرجل: أريد أن أرقص مع ابنتك وفاجأه موقف قاسم عندما لم يلبِ طلبه.

وبغـــضّ النظر عن صدق الرواية من كذبها أقول: هذا الرجل يجهـــل أن التحريـــر هو عكس الاستعباد. وأن الاستعباد يعني سلب الحقـــوق وهدر الكرامة. كل ما يعتقده هو أن المرأة الحرة هي التي ترقص مع رجل غريب. وهذا هو الغريب.. أن يكون معنى الكرامة

والحـــرية والعـــدل والإنصاف معكوساً إلى هذا الحدّ فتصبح الكلمة ذات معان تدل على البعد عن الفضيلة والأخلاق والكرامة. وسبب هـــذا الخلط هو أنهم لم ينظروا إلى ما فرضه الإسلام للمرأة من حرية ومـــا أعطاهـــا من حقوق سُلبت منها مع مرور الوقت لأن تعاليم الإســـلام في مجـــال النساء لم تصمد أمام رغبة الرجل في الإحساس بالـــتفوق علـــى المـــرأة فعاد إلى جاهليته أو بعضاً منها. وأغفل من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة كل ما يتعارض مع الفكر الذي ســـوّق له ضد حرية المرأة. لكن البعض لا يناقش السائد لأنه سائد ويقتنع أنه صحيح لمجرد استمراريته. ربما ولو فكر قليلاً فيما هو عليه لتغيرت حياته إلى الأفضل.

قسم الـــ "حريم"

تنتهي سعادة المرأة إذا كانت لا تستطيع أن تعتبر زوجها هو أفضل صديق.

ربمـــا نحـــرص على اتساع مساحات بيوتنا لسببين. الأول هو ضـــرورة تقـــسيم البـــيت إلى ثلاثـــة أقسام وفق ما يفرضه النظام الاجتماعـــي على كل أسرة كبيرة أو صغيرة. أو يكون لقسم الأول والأفـــضل من حيث المساحة والأثاث والتهوية والإنارة عند مدخل البيت وهذا القسم للرجال "بالتأكيد" ودون مناقشة، وإلا فلن نكون ســـعوديون. وأقصد بـــ للرجال هذه أنه للضيوف من الرجال لكن يسمى هذا القسم قسم الرجال. أما القسم الثاني فمخصص للزائرات من النساء وعادة يكون أقل من مستوى قسم الرجال في كل ما ذكر عـــند الطـــبقة المتوسطة - أما الطبقة الغنية فقد يتساوى القسمان. والقسم الثالث هو قسم الأسرة التي تسكن البيت بكل أفرادها. الأم والأب والأولاد وربمـــا يكـــون معهـــم جد أو جدة. ويتم إغلاق القسمين السابقين في انتظار زائر ما يوماً ما. ويحتوي كل قسم على حجرتين ودورة مياه بحيث تكون حجرة لاستقبال الضيوف وتسمى مجلس أو صالون والحجرة الأخرى لطعام الضيوف وتسمى مقلط أو غـــرفة ســـفرة. كل تلك الأربع حجرات في القسمين تبقى نظيفة ومغلقة إلى حين زيارة أحد.

الـــسبب الـــثاني الذي جعل الأسرة بحاجة إلى اتساع البيوت بخلاف عدد أفرادها، وبخلاف ضرورة إغلاق قسمين من البيت. هو بقـــاء النـــساء والأطفال في البيت معظم أيام الأسبوع إذ لا تتوافر

وسائل للترفيه فيما عدا التسوق. والتسوق يعني مزيداً من الإرهاق لميزانية الأسرة. لذا فإن اتساع المنزل ولو قليلاً يساعد على احتمال البقاء داخله أوقات طويلة ومتواصلة وعدم الخروج منه إلا إلى منزل آخر لزيارة قريبة أو جارة أو صديقة. وهذا مختلف تماماً عما في الدول الأخرى حتى العربية منها. وتعرف بعض الأسر السعودية الفرق أثناء سفرها للسياحة.

إن تقسيم البيت بهذا الشكل يعني أن يتطلب مزيداً من العناية والخدمة مما يفوق قدرة سيدة واحدة لها أطفال حتى وإن لم يكن لها عمل. مع الأخذ في الحسبان بأن الرجل في مجتمعنا ليس شريكاً في العمل المنزلي على الإطلاق. فإن تفضل وقام بإعداد الطعام مرة، فمن باب التجريب أو التسلية وليس من باب المشاركة وتقسيم العمل بين الزوجين والأبناء. إن وضعا كهذا سيتطلب استقدام خادمة تعين سيدة المنزل على كل هذه الأعباء التي تزايدت مع الوقت. بينما في الدول المتقدمة تكون المنازل أصغر بكثير في المساحة فليست هناك حاجة إلى كل هذه الأقسام المغلقة في البيت تحسباً وانتظاراً للضيف.

وقد يقول بعضهم - كانت جداتنا دون خادمات ولم يشتكين من أعباء العمل المنزلي - هذا صحيح، لكن الفرق كبير في شكل ونوعية الحياة كلها. فالأطفال مثلاً لم يكونوا في البيوت بشكل دائم بل غالباً يكونون في الطرقات بين البيوت يلعبون، ولم يكن ذلك يشكل خطراً عليهم بسبب قلة السيارات وتعارف أعضاء المجتمع. والملابس ليست بذات الكثرة. بل لا تكاد تتجاوز الثوبين أو الثلاثة لكل فرد من أفراد الأسرة الصغار والكبار. والطعام ليس فيه كل هذا التشكيل والتنويع والتصنيف، وأدوات المطبخ لا تتجاوز عُشر ما في المطابخ الآن من أدوات. والبيوت

أصـــغر في مساحاتها وأبسط في أثاثها وأسهل في تنظيفها. وبالتالي فـــإن العمل المنـــزلي غير مرهق بالدرجة الحالية. أما الآن فوجود الخادمـــة أصبح ضرورة في مثل هذه الحياة. وإلا فإن علينا أن نعيد النظـــر في شـــكل ونظـــام حياتنا كله. وشكل بيوتنا وحجمها. وعاداتـــنا وتقالـــيدنا في الاحتفاء بالضيوف والمبالغة في إكرامهم. وهذا غير وارد في المرحلة الحالية.

إن عـــادة إكرام الضيف التي يتفاخر بها الناس تحولت من إكرام لـــه إلى إســـراف لا يجوز أن يُسكت عنه من قبل المصلحين ورجال الـــدين. ففـــي الماضي عندما كانت الحياة تخلو من وجود المطاعم والفـــنادق والطائـــرات والسيارات. كان المسافر على الجمل يعاني الكثير من التعب في سفره. ثم لا يجد أين يأكل ويشرب إذا انتهى ما تـــزود بـــه من طعام وماء. لهذا وجب إكرامه، وإلا فإنه ربما يموت جـــوعاً وعطشاً. فإذا ذبح المضيف شاةً. فلن يأكل الضيف فقط بل ســـيأكل أهل الحي كلهم وربما كل أهل القرية. فيشربون المرق. ثم يأكلـــون اللحم والشحم. ثم يستخرجون ما بداخل العظم ويمصونه مـــصاً. فلا يبقى مما يمكن أن يدخل جوف الإنسان من تلك الشاة شيئاً. وبعد ذلك يستفيدون من جلدها وصوفها.

أمـــا اليوم فقد صار إكرام الضيف إسرافاً، ومبالغات في إظهار القـــدرة على التفنن في تشكيل الطعام، يدفع من أجلها فواتير ترهق المضيف، ثم لا يأكل الناس ربع ما يتم تقديمه!

هذا الشكل للبيوت وما تتضمنه من عادات وتقاليد مختلفة في مجتمعنا، والتي بسببها صار في كثير من البيوت خادمة. يضاف إلى ذلك شعور بعدم الإقبال على الحياة أو على الأقل شعور كثيرات بالتعاســـة بمستويات تتفاوت فيما بينهن ولأسباب أخرى عديدة، صـــارت المـــرأة في مجتمعنا تميل إلى الكسل وقلة الحركة ولا ترى

كثيرات أن في ذلك كسلاً، بل تراه من النعم التي اختصها الله بها. وبهذا تحقق لها الكثير من وقت الفراغ الذي لا تجد له تصريفاً إلا مـــن خـــلال الـــبقاء لمتابعة التلفزيون أو زيارات الصديقات أو التـــسوق. وبهـــذا فإن المجتمع جعل الفرصة مواتية من أجل تفاقم المشكلات السلوكية والانحرافات الأخلاقية حتى وإن وظف لمنعها رجـــال يـــراقبون الناس ويقتحمون خصوصياتهم. (إن كثيراً من المـــشكلات الاجتماعية والانحرافات السلوكية والأفعال الإجرامية عند الجانحين والمجرمين مرتبط كثيراً بأوقات الفراغ ولكن ذلك لا يعني أن الزيادة في وقت الفراغ مسؤولة عن ارتكاب الجرائم بقدر مـــا يعني أن هذه الزيادة تهيئ مزيداً من الفرص لارتكاب السلوك المنحرف)[1].

فـــإذا كـــنا حقـــاً نريد أن نحمي بناتنا فإن من الأولى إيجاد القـــنوات المناسبة لاستثمار أوقات فراغهن بما يعود عليهن بشكل خاص ومباشر بالمتعة الحقيقية والشعور بالرضا، والتي ستؤدي إلى فـــوائد كـــثيرة. ويحفـــظ للمجتمع بشكل عام استقراره وسعادة أعضائه.

هـــذا الفـــراغ، مضاف إليه وجود خادمة تلبي ما يطلب منها باســـتمرار، جعل بعض الـــ "حريم" في أقسام الحرملك الموجودة في كل بيت (حتى وإن ظنّ البعض أنها أقسام قد زالت بزوال الاستعمار التركي) يتعاملن مع الخادمة بتعالي وقسوة معتقدات أن هذا الأسلوب يحولهن إلى أرستقراطيات لا تتساوى رؤوسهن برؤوس اللواتي يعملن علـــى خدمـــتهن. ويعلم الناس الكثير عن المشكلات التي تقع فيها مـــستخدمات المـــنازل، وما يعانينه من ظلم وقسوة تصل أحياناً إلى

---

(1) مدخل إلى دراسة المجتمع السعودي. د. محمد إبراهيم السيف، ص 357.

التعذيب داخل البيوت، ربما تصبر عليها بعضهن عندما تتذكر أن هذا الوضع سينتهي بعد سنتين وليس أكثر. وقد رأيت بيوتنا تضع الخادمة فيها غطاءً على وجهها لكي لا يراها ربّ الأسرة. أي أن غطاء الوجه يفرض عليها داخل المنزل ناهيك عن خارجه طوال مدة إقامتها في البلاد. ولا أدري كيف استطاعوا فهم التدين على هذا الوجه من القسوة والاضطهاد. وكنت أتمنى على من فرضت غطاء الوجه على خادمتها داخل منزلها أن تضع هي الغطاء لعدة ساعات متواصلة ثم تقوم بالأعمال المرهقة وتجرب الاختناق الذي قد ينهي حياة تلك المسكينة. وربما يكون ربّ الأسرة هو من فرض غطاء الوجه على الخادمة، وأرى أن عليه هو أيضاً أن يجرب يوماً واحداً الحركة داخل المنزل والعمل فيه وهو يسدل غطاءً أسود على وجهه.

تعليم البنات

مهمة التدريس تختلف عن نقل للمعلومات. التدريس يعني أن تكون المدرِّسة قادرة على خلق إمكانات تكوين وإنتاج المعرفة وتأسيس العقلية العلمية.

قبل سنوات طويلة، ومنذ أن كنت طالبة في التعليم العام كنت أسمي تعليم البنات فأقول "تعليب البنات" أو "تعذيب البنات" و لم أفعل هذا تجنياً أو افتراءً. بل كنت أرى بتجرد ما لا تراه إلا القليلات لعدم قدرهن على التجرد. فقد تعذبت المرأة وتعلّبت إلى أن صارت ترى أن الوضع القائم هو الطبيعي. ولا تعلم بعضهن بوجود تعامل إنساني أفضل مما نحن عليه. إن التجرد من كل ما تعلمنا أنه هو الصواب لنتمكن من النظر إليه بموضوعية، ثم الحكم عليه مسألة تحتاج من القوة ما لا يستطيعه كل إنسان.

(إن الجهل المتوهم علماً هو من أقوى عوائق الحضارة وأشد موانع النهوض وهذا شأن معظم الناس في الكثير من المجتمعات، إنهم يتآلفون مع الجهل بحسبانه هو الحق المحض وفي هذه الحالة لا يكون الإنسان جاهلاً فقط وإنما بينه وبين الحقائق حواجز نفسية مانعة تصده عن البحث وتمنعه من المراجعة وتقنعه بسلامة ما هو مستقر في ذهنه. **إن الإشكال ليس في وجود الجهل وإنما في توهمه علماً، لأن الذي يحسب جهله علماً لا يمكن أن يعمل على تجاوز الجهل بل يواصل التمسك به والتعصب له،** وبذلك فإن الجهل

المركب من أكبر المصائب البشرية وأشدها تبديداً للطاقة الإنسانية وأكثـــرها خلقـــاً لسوء الفهم وللعداوات والحروب والصراعات الفـــردية والجماعـــية فالجهل المركب ليس عرضاً عابراً بخلاف ما يعتقد غالب الناس وإنما هو بنية شديدة الصلابة والرسوخ والتآزر. إن الـــناس في الغالب يتعاملون مع الجهل المركب بوصفه مشكلة فـــردية نـــادرة تعتري بعض الناس في بعض الحالات بينما الجهل المـــركب هو الأصل في التركيبات الثقافية التي لم تخضع للفحص والمراجعة، وهنا فرق جذري بين أن يتم التعامل معه كعرض فردي نادر وعابر وبين أن ينظر إليه نظرة واقعية تظهره كمعضلة إنسانية كبرى وعامة)[1].

بعـــد أن قرأت النص السابق وغيره من النصوص التي تتناول قدرة الإنسان على التعلم وتغيير واقعه بناء على ما يملكه من وعي، تـــساءلت: كـــيف يمكن لنا – كمعلمات ومعلمين، على افتراض وجـــود عدد كاف راغب في إحداث التغيير – أن نؤسس لتفكير علمـــي يهـــتم بالمعرفة ويدرب المتعلمات والمتعلمين على النظرة الموضـــوعية للأشـــياء. ويعطي شعوراً بالاستمتاع بالعلم في ظل مجـــتمع بمؤسساته المختلفة يتجه كل الاتجاه في تفسير واقعه الذي يعيـــشه وهـــزائمه التي يتكبدها وإحباطاته التي يعانيها ومشكلاته المختلفة على شتى الأصعدة والظواهر الطبيعية على كوكب الأرض وفي الـــسماء، أســـتطيع أن أقـــول – يفسر كامل ما في الحياة – تفـــسيرات ميتافيـــزيقية. ولا تقتصر تلك التفسيرات على الثقافة الشعبية الشفوية المتداولة بين الناس، بل تتمدد في اتجاهات عديدة فتدخل فيما ما يؤلف ويباع على أرفف المكتبات ويقدم في وسائل

---

(1) إبراهيم البليهي/من مقال بنية الجهل/جريدة الرياض في 2002/07

الإعلام المرئية والمسموعة. وفي الجرائد والمجلات ثم يتغلغل بعد هذا كله في التعليم ذاته حتى يكتسح مساحاته ولا يُبقي مساحة للعلم والموضوعية في حياة المتعلمات والمتعلمين؟؟

ولهـذا ليس غريباً - في وعي المجتمع - أن يُنشر كتاب عن لقـاء صحفي مع جني وليس غريباً ولا منافياً للعلم أيضاً تداول كـتب أخرى وبرامج في محطات عديدة عن السحر والشعوذات والجـن والعفاريـت وقدراتهم العجيبة ودخولهم وخروجهم في أجـساد السذج والبسطاء[1]. وأن ترتكز كثير من الأحداث في حـياة العامـة على ما يرونه في أحلامهم معتبرين تلك الأحلام رؤى تهـبط مـن الـسماء وتدلهم على ما يجب وما لا يجب، وبعـدها يتـصلون بمن يفسر أحلامهم لتسير حياتهم بعد ذلك وفـق تفسيرات حلم ربما رآه النائم إثر تناوله وجبة دسمة. وليس غـريباً ولا منافياً للعلم أن يمتزج الطب الحديث بالطب الشعبي، فتـرى المرضـى يخـرجون مـن المستشفيات محملين بالأدوية ويـتجهون إلى مـن يكوي أجسادهم بأسياخ الحديد الحامية أو يعطـيهم أنـواعاً من الأعشاب كعقاقير بديلة. وليس غريباً ولا منافـياً للعلـم في وعي المعلمات والإداريات وإدارات الإشراف وإدارات التعليم أن نعمل بشكل ارتجالي وليس بشكل احترافي في أهـم مجالات العمل - في اعتقادي - وهو مجال التعليم والتربية داخل المدرسة.

---

(1) لا أدري لماذا لم نستعن بالجن والعفاريت لتحرير القدس مع أننا كمجتمع نملك أكبر عدد في العالم من القادرين على السيطرة على الجن وإخراجهم من أجساد البشر. ولا أدري أيضاً لماذا لا يدخل الجني أجساد جميلات السينما في هوليود، ويهيم الجني عشقاً في ساذجة بسيطة تكاد لا تعرف من الدنيا إلا منـزل زوجها ووالدها.

كيف يمكن لنا - كمعلمات[2] ومعلمين - أن نؤسس لتفكير علمي والمجتمع هو الذي يؤثر في المدرسة وليست المدرسة هي التي تؤثـــر في المجـــتمع. فـــبدلاً من أن ينتشر العلم لينهض بالإنسان عـــن طـــريق المؤســـسات التعليمـــية. تنتشر الخزعبلات داخل المدرســـة وتعـــتمد العملـــية التعليمية والتربوية على شخصيات تداخل في وعيها الواقع مع الخيال والعلم مع الخرافة والطبيعي مع الغيبي.

إن العجز العلمي والعقلاني، والشعور بالضعف في مستويات عديدة مقارنة بما لدى الدول المتقدمة من قوة وسلطان بالعلم هو الذي يجعل الإنسان في البيئات المتخلفة يهرول إلى الماضي لعله يبني بـــه الحاضر. فاستمر يتراجع ويتراجع بحثاً بين ثنايا الكتب القديمة عـــن بطولاته. وربما لم يستحثني شيء للبدء في هذا الكتاب كما اســـتحثتني الكتابة عن تعليم البنات. لكني حين بدأت الكتابة عن التعلـــيم وجدت أن السير في مزرعة مليئة بالأشواك أقل إيلاماً مما أشعر به تجاه ما أراه من أساليب عديدة داخل أسوار تعليم البنات والـــذي قضيت فيه إلى الآن عشرين عاماً متواصلة. أساليب قلبت

---

(2) أصرت إحدى معلمات المواد العلمية على أن ما تعانيه من حساسية بسبب الطباشير في يديها ليس إلا عين حاسدة أصابتها عندما وضعت الحناء على يديها ذات سنة بعد تخرجها وبدء التحاقها بالتدريس. وبرغم تأكدي لها أن أمراض الجلد كثيرة جداً قد تتجاوز العشرة آلاف نوع وكثير منها حتى الآن ليس لها إلا المسكنات، ظلت تؤكد أن حساسية جلدها سببها الحسد ولا شيء آخر. وأرى أن ثقتها بأن ما تعانيه من حساسية في الجلد سببه الحسد هو أشبه بالبحث عن قيمة لذاتها أو أهمية. إذ إن الإصرار على الإصابة بالعين تعني أن في المحسودة من الجمال أو الصفات الحميدة ما يجعل الأخريات يحسدنها عليه وهذا في حدّ ذاته مديح غير معلن وغير مباشر حصلت عليه بسبب تصديق الجميع وتصديقها هي نفسها بأن سبب الحساسية عين من لم تذكر الله.

النتائج فبدلاً من تكوين عقليات علمية[1] تكونت عقول دوغمائية.

وتتعدد تلك الأساليب فمنها: أساليب قمعية تتسلط فيها النساء على النساء وتدخل ضمن ما يسمى عند كثيرات بـ حفظ النظام، وحفظ الدين، وحفظ الأخلاق والأدب. وأساليب تعليمية تبقي عقول الطالبات ضمن مستويات الحفظ واسترجاع ما يُحفظ. وتبعد العقل عن النقد والإبداع والتفكير العلمي. وأساليب ترهيبية وإرهابية تبدأ بتمثيل تغسيل الموتى[2] وتكفينهم أمام الطالبات مروراً بذكر الإسرائيليات وحكايات عذاب القبر وتنتهي بقوائم المحرمات التي تتجدد مع ظهور أي منتج في الأسواق أو أي كتاب أو فكرة. ثم بتكفير كل الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة والتأكيد على ضلال الجميع فيما عدا من كان مطابقاً لنا قولاً وعملاً. وانتهاء بتحريم وضع طلاء الأظافر وتحريم كشف الوجه وتحريم أنواع من الملابس...

---

(1) من ضمن خصائص العقلية العلمية الموضوعية والقدرة على التجرد أثناء دراسة الأشياء والحكم عليها والقدرة على إدراك العلاقات بين الأسباب والمسببات المباشرة وغير المباشرة.

(2) تغسيل الموتى إما أن يكون تمثيلاً أمام الطالبات. وإما أن يتم عن طريق عرض لأشرطة الفيديو وإما أن يكون ضمن محاضرة يقال عنها دينية. استمر الأمر لسنوات دون أن يمنع... وأذكر عندما كنت طالبة أن مغسّلة للموتى جاءت شخصياً إلى المدرسة لتلقي علينا محاضرتها. وكانت سيدة فيما أظنها أمية لا تقرأ ولا تكتب روت الكثير من الخزعبلات عن حركة الميتات وعذابهن بين يديها وهي تغسلهن قبل أن يصلن إلى القبر وكان هذا سبباً في بكاء كثير من الطالبات وخوفهن وإغماء بعضهن – أتساءل الآن كيف يسمح بمثل هذا الافتراء على الله والقول إنه يعذب الميتة حتى قبل أن تدخل قبرها. فما بالنا إن تساءلنا عن روايات عذاب القبر ذاتها وقلنا كيف يكون العذاب قبل يوم الحساب؟ ولا زالت تلك الخزعبلات عن مشاهدة الموتى يعذبون متداولة إلى اليوم وإن كان غسيل الموتى قد توقف فلا زال غسيل الأدمغة مستمراً.

إلخ من قائمة المحرمات التي لا تتوقف المعلمات من التذكير بها والتهديد بدخول النار لمن خالفت ما قلنه وقامت بما ذكرن تحريمه.

ووسط كل هذا لا بد أن أشعر بالشلل التام إزاء أي محاولة للإصلاح. ولعلي هنا أعود إلى بدايات تعليم المرأة وكيف قاومه المجتمع بشراسة تشبه مقاومة القرشيين لتوحيد الله وإخلاصهم العجيب لأوثانهم. ففي مقال نشرته جريدة قريش بعنوان (لنثقف الفتاة دينياً أو لتبق في البيت) في يوم 1379/7/12 والمقال مطبوع في كتاب بعنوان نحو مجتمع أفضل قرأت النص التالي (موضوع أوجهه للمسؤولين، وقد أصبح تعليم البنات عندنا اليوم حقيقة ماثلة.. وأعلن رسمياً عن قرب افتتاح مدارس حكومية للبنات... إلى أن يقول: لا يحسن إطلاقاً أن نخلط لها ما يتعلمه الجنس الآخر... إلى أن يقول: هذا كله لا يتحقق إلا بالتهذيب الديني الشامل، أي أن يكون تعليم المرأة دينياً لا عقلياً. ولهذا كررنا في تركيز عليه)[1].

ومن خلال تاريخ المقال ابتداءً، نعرف أن عام 1379 على نهاياته عندما أعلن رسمياً قرب افتتاح، وليس افتتاح، قرب افتتاح مدارس حكومية لتعليم البنات. وكل تعليم سبق هذا التاريخ للبنات يكون ضمن التعليم المنزلي أو الأهلي. أما الملاحظة الثانية فهي في عنوان المقال حيث يأمر الكاتب بتعليم البنات دينياً فقط وأن لا يتعلم عقلها شيئاً أبداً. **وإلا فلتبق في البيت**. مع العلم بأن الكاتب يُعدّ من المؤيدين لفتح المدارس ولا يحسب في ذلك التاريخ من ضمن تيار المتشددين ضد المرأة وتعليمها. فكيف لو تمّ التعرف على رأي المعارضين والمتشددين؟

(1) نحو مجتمع أفضل، عبد السلام هاشم حافظ، ص 51.

ويـــؤكد الكاتب أيضاً أنه لا يحسن أن تدرس الفتاة ما يدرسه الولد من مواد متنوعة يالله.. يخافون أن يكون لها عقل واع ينقض ما يـــرددونه من أن عقلها أقل من عقل الرجل. أي.. يصرون على منع العلم من الوصول إلى عقلها لكي يتمكنوا من اتهامها بأن عقلها أقل مـــن الرجل. وهذا – في رأيي – يعني أن ما وصلنا إليه الآن بعد أن كانـــت الجـــرائد الحكومية تنشر مقالاتها عن رفض تعليم البنات إلا بـــشرط أن تدرس الفتاة فقط مواد الدين هذا إن.. إن سُمح بتعليم الفتاة.. يعد تحطيماً لكثير من القيود التي كانت مفروضة على النساء في كل أنحاء البلاد. وهذا يعني أيضاً أن النساء يعانين ما يعانينه الآن برغم ما تحطم من سالف القيود التي كبلت المعاصم.

ونلاحـــظ أن الكاتب يكرر في إصرار شديد على أن يكون تعلـــيمها دينياً لا عقلياً. ثم يكتب بعد أن منع عن عقلها العلم **أن تفكيرهـــا ضـــعيف**. يقول في ذات الكتاب ص 59 تحت عنوان تطلعات نحو مجتمع أفضل (فالمرأة.. إنسان ضعيف وقوي في آن.. **ضـــعفها في تفكيرهـــا** وفي تقبلها السريع للموجات المرسلة إليها والذبذبات المعنية بها).

ضـــعفها في تفكيرهـــا!!.. ومـــاذا أيضاً؟ وفي تقبلها السريع للمـــوجات المرسلة إليها والذبذبات المعنية بها. ثم لم يفصح الكاتب عـــن أي ذبذبات وموجات يتحدث. ولكن أظنه يقصد الموضة التي طالب بتحطيمها في مقال أتيت على بعض منه في صفحات أخرى.

الجدير ذكره هنا أن هذه النظرة إلى عقل المرأة لا زالت مستمرة إلى الـــيوم وســـتبقى لعـــصور قادمة ما لم نثبت عكس ما يظنون. والمـــنادون بعـــدم مـــشاركتها الحقيقية في واقع الحياة ينهجون نهج أســـلافهم الـــذين قالوا بعدم تعليمها غير مواد الدين إن كان هناك إصـــرار على تعليمها. خوفاً من نمو وعيها واتساع مداركها. لذات

الـــسبب نـــراهم الآن يؤكدون على ضرورة بقائها في البيت لأن في وجـــودها فاعلة داخل المجتمع دليل على أن "تفكيرها ليس ضعيفاً" كمـــا يقولـــون وستحصل بذلك على فرصة لنمو هذا العقل الذي يـــصرون على سجنه في محاولات مستميتة ليبقى دون نمو مدعين أن هذه الحال هي بسبب ما فعله الله تعالى بالمرأة وليس ما فعلوه هم.

أعود وأقول إن الكاتب لم يكن من المتزمتين في ذلك الزمن. بل كـــان يطـــرح رؤيته حول تعليم المرأة ويقنع بها الذين رفضوا كل الرفض تعليمها. وفي الكتاب حوارات طويلة دارت بينه وبين آخرين يـــرون أن فـــتح مـــدارس البنات سيجلب الدمار للمجتمع المحافظ الملائكـــي الطهـــر. ولا زالت النظرة للمجتمع على أنه طاهر ونقي قائمـــة في أذهـــان الكثيرين. وكلما سمعوا بحادث هنا أو أمر هناك ســـارعوا إلى التأكيد بأن الأخطاء والخطايا التي تحدث لم تكن لولا وجود الدش أو الفيديو أو ربما جوال الكاميرا.

الـــبدايات الـــتي انطلق منها تعليم المرأة. هو فكر أغلبية الذين وضـــعوا المناهج والذين يسيطرون بتعاليمهم وكتبهم إلى الآن على التعلـــيم. وعندما أقف في الطابور كل صباح داخل أسوار المدرسة أتذكـــر أولـــئك الـــرجال وهـــذا الإرث الرهيب الذي أورثوه لنا كمـــتعلمات ومعلمات. فالطابور يعني بدء اليوم الدراسي والطابور يعني أن أتذكر كل ما خططوا له ونجحوا فيه ضد النساء.

الطابـــور يعـــني أن نكون ضمن نشاط لا صفي داخل المنهج المدرســـي. والطابور يحوي تفتيش الطالبات. ويحوي إذاعة مدرسية. ويحوي تهديدات مستمرة.

إن على المعلمات في الطابور الصباحي مراقبة الطالبات للتأكد مـــن شـــكل المـــريول وشكل الشعر وشكل العين وشكل الحاجب وشـــكل الحذاء. والشكل في كل شيء يعتلي قائمة أولويات التربية.

بل أكاد أجزم أن الشكل هو البند الوحيد في القائمة. وهذا الشكل يخضع لمدى تشدد المديرة أو مرونتها. بعضهن تمنع منعاً تاماً قص الشعر إلى مستوىً معين. وعلى كل ذوات الشعر القصير من الطالبات لبس "الشيلة" داخل المدرسة لتخفي بها شعرها القصير. أما المخالفة في شكل المريول أو لبس قطع أخرى فوقه مختلفة اللون أو عدسات العين الملونة أو بكلات وربطات للشعر ملونة فإنها في كثير من المدارس مخالفة تتطلب أشد العقوبة **وويل للمرأة من المرأة.** لقد رباها الرجل لتكون عيناً له وحارساً على ما أنتج من تمييز ضدها جعله يتغلغل في تلافيف مخها. فلا تفكر النساء فيما يقمن به. بل يؤدينه بتفان وإخلاص بطريقة آلية يومية وقد ألغين عقولهن تماماً واستسلمن للإرث الرهيب.

إن انشغال المعلمات بالشكليات يعني إهدار الكثير من الوقت خارج مهام التعليم ويعني تعزيز روح التسلط والقمع. وانشغال الطالبات بها ينقسم إلى قسمين الأول قسم اللواتي لا يأتين بالمخالفات فينشغلن بتجنبها والخوف من العقوبات التي تترتب على الوقوع فيها. والقسم الثاني قسم اللواتي يقمن بالمخالفات والإصرار على اقترافها في تحدّ ومجاهرة. هذا الانشغال بهذا الشكل أو ذاك يعني استهلاك طاقات الطالبات والمعلمات فيما لا يفيد. بل يضر أشد الضرر. ويأتي بنتائج عكسية. فبدلاً من استهلاك الطاقات والوقت في العلم والتعلم ووضع الخطط لرفع المستوى العلمي – وليس مستوى النتائج – يستهلك جلّ الوقت في متابعة هذه ومعاقبة تلك.

ويجب أن ندرك كمسؤولات ومسؤولين عن التعليم أن مستوى النتائج لا يعني بالضرورة مستوى العلم ونوعيته. فالامتحان يقيس الحفظ والتذكر. والامتحان الذي يقيس الحفظ والتذكر يقيس حفظ

وتذكـــر عدد من الصفحات التي تمّ تحديدها وتلخيصها ومراجعتها. أي أن التعليم يرتكز على الحفظ والتذكر في مجمله.

وإذا قلنا إن الطالبة لا تجد مكاناً للترويح عن النفس مع وجود بعـــض الضغوط في المنـــزل بشكل أو بآخر يضاف إليها ما تجده في المدرسة من ملاحقات وتنبيهات على أقل تقدير حول أشياء لا قيمة لهـــا فإنها بهذا تُدفع دفعاً إلى الخطأ أو إلى مشاكل نفسية قد تظهر في حينها وقد لا تظهر إلا بعد حين.

المدارس لم تنشأ و لم تصرف المليارات على التعليم إلا من أجل التربية والتعليم. والتربية تعني أن تكون المدرسة بكل أعضائها قادرات على الوصول بالطالبة إلى التوازن النفسي بحيث تكون إنسانة طبيعية سوية.

فـــإذا كان التعليم في بلد ما يحوي ضمن أدائه أساليب الترهيب أضعاف احتوائه على أساليب ً الترغيب. ويجيد القمع أكثر من قدرته علـــى إرســـاء معنى التسامح. ويتعامل بقسوة أكثر من فهمه لمعنى المـــرونة. وإذا كان يحوي ضمن أدائه اليومي التحريض على تغييب العقـــل وجمود الفكر بدلاً من الإيمان بالعلم والتسليم له، فأي نهضة ننتظر؟

إذا كـــان الخـــير في أول الزمان وكلما مرّ قرن كان أسوأ من القرن الذي يليه والصلاح والحق والصدق وكل الصفات الحميدة في قرون سلفت وليس في زماننا إلا الفسق والضياع والبعد عن الجادة. إذا كـــان هذا كله من ضمن الخطوط العريضة التي انطلق منها فكر معـــد المناهج للطالبات فكيف يمكن أن تنطلق عقول المتعلمات إلى الأمام وليس إلى الخلف؟

إن الإنـــسان إنسان لأن له عقلاً قادراً على التفكير. ويختلف الـــناس من مكان إلى آخر حسب مستوى تفكيرهم. فالفرق بين ما

كان عليه الناس في الجاهلية وما صاروا عليه عند ظهور الإسلام هو بسبب العقل وما حواه من فكر جديد أحدثه نزول لوحي على محمد صلى الله عليه وسلم. فالجاهلي الذي عبد الأوثان تجاهل عقله ولم يتعلم ولم يتأمل فاستمر يقدس ما هو عليه. ولو أنه يملك بعض الشجاعة لتمكن من مقاومة ما اعتاد عليه وما وجد آباءه يفعلونه. والفرق الآن بين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث هو في سيطرة العقل أو تغييبه. إذ لا نهضة حقيقية في أي مجال من مجالات الحياة في غياب العقل، أو في حال تحجره وجموده وإصرار الناس على الثبات على ما هم عليه مهما كان فإذا كانت المدرسة لا تستطيع خلق العقل الناقد المبدع لدى الطالبة فسنظل كما نحن إن لم نتراجع.

نستطيع أن نقرر أن المسافة الشاسعة جداً في زمننا هذا بيننا وبين الدول التي انطلقت حتى تجاوزت فضاء الأرض إلى فضاءات عديدة في السماوات البعيدة سببها تحرر العقل من ركوده وتحجره. أما عدم انطلاقنا كما فعلت الدول المتقدمة فسببه أيضاً العقل الذي تجمد وثبت على ما لديه. ثم يصر هذا العقل على أنه يملك الحقيقة المطلقة.

وإذا كنا – وعلى مستويات مختلفة – لا نزال نفسر الظواهر الطبيعية على الأرض تفسيرات ميتافيزيقية تناصر فكرة نبحث عن تأييد لها بكل وسيلة فأي علم يمكن أن يتحرر به العقل.

وكما ذكرت في مقدمة الكتاب بأني لا أتحدث عن نخب معينة بل أتناول امرأة في الطبقة المتوسطة التي بقيت حتى يومنا هذا محتفظة بتبعيتها الكاملة للرجل وظلت في سجنها ليس الاجتماعي فقط، بل أستطيع أن أقول إنه سجن رسمي إذ إنها حتى عند تعاملها مع المؤسسات الرسمية للدولة لا يسمح لها التعامل إلا من خلال وسيط يشترط أن يكون ذكراً. ذكراً.. ولا يهم ما بعد ذلك ما دام بالغاً.

أي أن ابن أستاذة جامعية تحمل شهادات للدكتوراه في تخصصات عديدة لم يتجاوز العشرين من عمره يجب أن يوافق على بعض معاملاتها الرسمية أمام مؤسسات الدولة. فما بالنا بسيدة بسيطة ضمن أسرة متشددة والأسرة من قبيلة والقبيلة ضمن مجتمع له سلطته الرهيبة على كل فرد فيه؟ لقد بقيت المرأة معزولة طوال مراحل النهضة الحديثة، لتكون فقط مصدراً للاستنزاف الاقتصادي وموضوعاً تتجادل حوله التيارات المختلفة.

إن تعليم النساء في بلادنا ووفق ما خطط له القائمون عليه منذ نشأته جاء ليضاعف المسافة بين المرأة وبين وطنها الذي تعيش على أرضه ويزيد من اغترابها بين ذويها. إذ كان من المفترض أن يكون التعليم وسيلة لتخفيف ضغط العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة والتي حكمت على المرأة بالبقاء خلف أسوار خاصة بها في المجتمع. ولكن ما حدث هو أن مؤسسات تعليم البنات بكثير من رجالاتها كمسؤولين عن إنشائها وإدارتها. وبمؤلفاتهم التي فرضوا تدريسها على الطالبات وتعاميمهم التي التزمت النساء بتنفيذها بحذافيرها كانوا بكل هذا وسيلة لتحويل العادات والتقاليد إلى قوانين رسمية يجب على جميع العاملات والطالبات تنفيذها بدقة. وتتعرض كل من لم تلتزم بتلك العادات التي أصبحت رسمية إلى عقوبات تتدرج حسب أهمية العادة الرسمية في نظر المؤسسة التعليمية والقائمين عليها. عدا ما تقدمه كتب الفقه للطالبات عن العلاقات الزوجية والتي تؤكد فيها تلك الكتب على مكانة الرجل التي تصل حد تقديس والاقتراب من السجود له. وتبالغ ذات الكتب في الاستهانة بمكانة المرأة وعقلها.

إضافة إلى ما فات أقول: إن تعليم المرأة بوضعه القائم الآن يجعل كل متعلمة قادرة على القراءة ولكن لا يجعلها قارئة – فإذا كانت

الأمـــية هـــي عدم إجادة القراءة والكتابة فإن كثيرات ممن تعلمن في مـــدارس تعلـــيم البنات تمّ محو أميتهن. - أؤكد على أهن كثيرات. وليس جميعهن.

إن مـــن لا تقرأ لن تنمو لديها ملكة التحليل والتقويم. وبالتالي فإنهـــا سوف تسلم بما يقال لها تسليماً. والحديث عن عدم القراءة في الشرق كله ليس بجديد. فكثير من الدراسات في متناول الجميع تحدد بوضوح عدد الساعات التي يقضيها الإنسان العربي في القراءة خلال العام الواحد مقارنة مع الإنسان في العالم الأول.

وإذا كانـــت مئات من المؤلفات القيمة تُمنع من الطبع والنشر داخـــل الـــبلاد. ومئات أخرى لا يسمح لها بالدخول. مقابل آلاف الكـــتب والمطويات والكتيبات والأشرطة التي يفسح المجال لصدورها والتي ليس فيها سوى محاربة العلم والتسويق للجهل والتكفير والتمييز العنـــصري وتمجـــيد الماضي وشتم الحاضر وما فيه ومن فيه. كتب تعـــادي العقل وتنشر الخرافات ولا تقر بعلم ولا بعقل غير الذي هي عليه. بحيث تصبح الخرافة هي التفسير الوحيد لما يراه الإنسان حوله. كيف يمكننا بعد هذا أن نتمكن من جعل المجتمع بعيداً عن التيارات الهدامة والتيارات التكفيرية؟ بل كيف يمكننا أن نجعل الإنسان متعلماً بحسب مفهوم التعلم في هذا العصر!

أمـــا طبـــيعة العمـــل التربوي التعليمي ففي كثير من المدارس والإدارات الإشرافية تنغمس الموظفة - مشرفة أو مديرة أو مساعدة - في روتين يومي يتكرر على مدار أيام السنة. وتستهلك بيروقراطية النظام التعليمي جلّ وقت موظفات التعليم الإداريات إضافة إلى عدم قدرة بعضهن على فهم الدور الرئيسي المناط بهن كتربويات.

لقد تحول عمل كثير من المساعدات داخل المدارس إلى ما يشبه إلى حدّ كبير أعمال السكرتارية وموظفي الأرشيف معاً. وبهذا تسير

المــوظفة في تعلــيم البنات - غالباً - في دوامة الدوام اليومي ذهاباً وإيابــاً لتنفيذ ما يردها من تعاميم وما تحفظه من أنظمة داخل أسوار المدرسة بذات الطرائق وبنفس الأسلوب الذي يتكرر عاماً بعد عام. حــتى المشكلات التي تلاحظها على الطالبات، تحلها بذات الطريقة دون اعتبار للاختلافات العديدة التي تميز كل طالبة عن الأخرى وكل مشكلة عن غيرها فكل المخالفات مخالفات وكل المقصرات مقصرات والــضعيفات ضعيفات والمشاغبات مشاغبات. لا فرق بين ضعيفة وضــعيفة أو مــشاغبة ومشاغبة. على أن الشغب في عرف مدارس البــنات يعــني أن تكون البنت ذات نشاط وحركة تزيد قليلاً عن الغالبية الخاملة خمولاً أقرب إلى خمول المرضى والعجائز. ونلاحظ أن مــن تجــاوز الستين في بلاد أخرى يتحرك بنشاط أكثر من طالبات المرحلة المتوسطة والثانوية في مدارس تعليم البنات. ثم تشتكي المدرسة مــن وجــود ذوات الحركة الزائدة واللواتي تمّ تصنيفهن تحت اسم "مشاغبات"!

لا خطط للعلاج الفردي ولا قيمة لفردية كل حالة - على أن الفردية في المجتمع كله لا تظهر ولا يقيم لها مجتمعنا أي وزن بل على العكس. هناك معركة ضد فردية الإنسان - وإذا تتبعنا المخالفات التي تــراها إدارات المدارس على طالباهّا رأينا العجب عند كثيرات. فقد تعتــبر الطالــبة مخالفة إذا ارتدت فوق مريولها القاتم الكئيب معطفاً زهــري اللون أو أصفراً أو أخضر. أما تقدير العقوبة التي ستقع على الطالــبة فيخــتلف من مديرة إلى أخرى. وقد تكون عقوبتها أشد أضعافاً مضاعفة في حال وضعت بعض مساحيق الزينة على وجهها. علــى اعتبار أن المدرسة مكان للعلم. والعلم يتعارض مع التأنق فيما يــزعمن. وعلــى الطالبة أن تكون كئيبة ذات مظهر يخلو تماماً من الاهــتمام بالنفس والأناقة لتتمكن من حضور المدرسة. ويمكن هنا

لكـــل مـــن قرأ المقالات القديمة أن يدرك كيف صار التزين حتى في المجتمعات النسائية المغلقة حراماً.

افــتعال للمواجهات بين الإدارات والطالبات والجهود المبذولة من قبل كثير من المسؤولات للمحافظة على شكليات لا قيمة لها في التـــربية والتعلـــيم إلا من حيث كونها عوامل لتدمير نفسية الطالبة وقمعها وقلب الأولويات في عقلها يعني أنه بدلاً من أن تهتم المدرسة بعقـــل الطالبة الذي يجب أن يكون أكثر وعياً ومرونة. تدربها على التـــسلط إن كانـــت الطالـــبة ذات شخصية قوية وذلك من خلال تـــسلطهن عليها كنماذج تحتذي بهن ولا تدرك وجود غيرهن وغير أساليبهن. أو أن تصبح خانعة يملؤها الانكسار وتفيض دموعها عند كل موقف.

ولا زلـــت أبحث ولا أعلم متى سأجد جواباً على سؤالي الذي سألته قبل أكثر من خمس وعشرين سنة عندما كنت طالبة في التعليم العام. لماذا يجب أن نرتدي كطالبات هذه الألوان القاتمة الحزينة التي لا تتناسب على كل حال مع ما يجب أن تكون عليه نفسيات فتيات في ســـن الطفولة والمراهقة؟ لماذا احتكر الرجل اللون الأبيض وفرض على النساء الألوان القاتمة. ففي الشارع عليها أن تتسربل بالسواد من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها تحت الشمس الحارة وفي المدرسة لا يحق لها إلا أن ترتدي الرمادي أو الكحلي أو البني.

إن الطفلة ذات الست سنوات تبقى ست سنوات أخرى ترتدي اللون الرمادي بشكل يومي. ولا أدري أي عقل دبّر هذه الجريمة التي اســـتمرت منذ عقود من الزمن بحق الصغيرات وإلى اليوم. ثم ترتدي اللـــون الكحلي في المرحلة المتوسطة لثلاث سنوات متواصلة ثم اللون الـــبني في المـــرحلة الثانوية. أي في مرحلة الاهتمام بالأناقة والترتيب والـــنظافة الشخصية والمظهر بشكل عام. هذه الألوان فرضت علينا

منذ أن بدأ التعليم وإلى اليوم. ولا زلنا كمعلمات وهيئة إدارية ننزل أشد العقوبة بمن خالفت هذا الزي الذي صارت بعضنا تظن أن مخالفته تخرج المخالفات عن حياض الدين.

في بعض مدن[1] المملكة ومنذ سنوات قليلة حطمت بعض مدارس تعليم البنات جزءاً من (التابو) الخاص بلون مراييل البنات فألبسنهن في المدارس الحكومية الألوان الزاهية وسمحن بدخول اللون الأبيض معها وعدلن وبدلن في شكل المريول ليناسب رغبة البنات الطبيعية في التأنق ولو قليلاً. أيضاً حاولت المدارس الخاصة في أنحاء المملكة السماح ببعض الألوان لترتديها طالباتها. أما جلّ المدارس فبشكل رسمي يمنع منعاً باتاً ظهور الألوان.. أي لون سيجعل التي ترتديه معرضة للعقاب الشديد.

عندما كنت طالبة كان محرماً علينا لبس الأحذية الرياضية وأقول محرماً وليس ممنوعاً فقط. وذلك لأن لابستها في تلك السنوات تعتبر من المتشبهات بالرجال ولهذا فإنها تعاقب بالضرب في الطوابير من قبل المديرة شخصياً في بعض المدارس. الآن صار مسموحاً بها، بل ومرغوباً فيها من قبل الإدارة للطالبات. إذاً الذي تعاقب عليه طالبة يوماً ما قد يصبح مسموحاً فيما بعد. وليس هناك قاعدة محددة. فبعض الأشياء تزداد نظرة التشديد عليها وبعضها يمكن أن تجد الطالبات فيها بعض الانفراج. وفي النهاية تتشرب الطالبة حب التسلط على غيرها وتتعلم كيف تقمع المرأة المرأة لنظل ندور في ذات الحلقة.

(1) مدينة جدة تجاوزت في بعض مدارسها هذه الألوان وسمح للطالبات بارتداء اللون الزهري والليموني والسماوي. كم هو محزن أن يكون أقصى طموح المراهقة أن تلبس لوناً آخر مع لون مريولها. وكم هو مؤلم أن أراها تعاقب أشد العقاب المنصوص عليه والمسموح به داخل أسوار المدارس لأنها ارتدت مع مريولها الكئيب ربطة عنق أو ربطة شعر زهرية اللون أو خضراء أو حمراء. يا لألم من يتأمل.

هـــذا عـــدا مـــا تقوم به المدرسة بشكل مؤسساتي من زرع للإقـــصاء، والتشدد الفقهي، وتأكيد على التصنيف الطائفي والمذهبي والفكري لدى الطالبات. وهذا يعني أن بعض مدارس تعليم البنات – بمعلماهٔا ومناهجها وأساليبها التعليمية والتربوية – تنتج هذا النوع من التطرف.

إن أغرب ما أراه في تعليمنا أن ترسل بعض مديرات المدارس أو المعلمـــات والمـــشرفات المنتميات لإدارة الإشراف التربوي. يرسلن بـــناهٔن إلى المدارس الخاصة لحمايتهن من تسلط المعلمات أو الإدارة عليهن وليبعدهٔن عن التشدد الفقهي – قدر الإمكان – ثم لا يعملن من أجل الإصلاح داخل التعليم العام. بل لا يتوقفن هنّ عن ممارسة ما تعلمنه من أساليب غير تربوية. وصحيح أن الضرب ممنوع. لكن الإيـــذاء النفسي وعدم احترام الطالبة والتقليل من شأهٔا والتدخل في شـــؤوهٔا الخاصـــة، والـــتلفظ عليها بما يسيء إليها يظل من ضمن الممارسات اليومية التي ألحظها باستمرار والتي لا ترى الكثيرات معي إهٔا تدخل ضمن ما يجب إصلاحه[1].

إن أولى المهـــام الإداريـــة – في نظري – التي يجب أن تضعها المديـــرة نصب عينيها هي التخطيط. وهذا التخطيط يجب أن يكون هدفـــه دائماً الرقي بالمستوى التربوي والتعليمي للطالبة. مع وجود إدراك كامـــل أثـــناء وضع الخطط وتنفيذها بأن بيئة التعليم تؤثر في

---

(1) تبدأ بعض ألفاظ المعلمات للطالبة من عند – أنت غبية. مروراً بأسماء بعض الحيوانات كالكلاب والحمير، وألفاظ مثل – لست متربية أو أنت بنت شوارع. وتنتهي بـــ (انقلعي من أمامي) هذا عند غضبها. أما إن كانت راضية فإن أسلوهٔا لا يتسم بالاحترام للطالبة. فلن تقول لها إذا طلبت منها شيئاً – إذا سمحتِ افعلي كذا – بل ستباشر بـــ قولها – افعلي كذا وكذا. أعود وأؤكد أن هذا لا يشمل الجميع فهناك لا شك دائماً يوجد من يختلف ويتميز.

الطالـــبات إيجاباً أو سلباً حسب ما تقدمه المدرسة من أنشطة صفية ولا صـــفية لـــسدّ حاجات الطالبات ولتلبية رغباتهن. ويفترض بهذه البيئة التعليمية أن تكون مجالاً لاكتشاف مواهب الطالبات وإنضاجها بـــشكل صـــحيح إذ إن المـــواهب تكتشف في سن مبكرة من عمر الإنسان فإذا لم تتلقَ ما يكفي من الرعاية ماتت في مهدها. وما أكثر الموتى خلف الأسوار.

وقـــد آلمـــتني النتائج التي خرجت بها بعد إن أجابت طالبات المـــرحلة الـــثانوية على استبانة أعددتها بهدف معرفة مساحة الوقت الممكـــن للقـــراءة الحرة لديهن وكان من ضمن الأسئلة سؤال عن هـــواياتهن. فكتـــبت غالبية وصلت إلى 57.3% أن هوايتهن القراءة. وســـؤال في ذات الاســـتبانة عـــن ماذا تقرأ الطالبة ولمن. كشفت الإجابات عدم مصداقيتهن في موضوع الهواية التي ادعين إنها القراءة. وعندما ناقشت بعضهن شفوياً عن سبب كتابة (لقراءة) كهواية لهن وهـــن لا يقرأن حتى الكتاب المدرسي إلا قبل الامتحان أجبن بأنهن احترن ماذا يخترن من هوايات، فهن بلا هوايات.

إذاً.. لا تجـــد الطالبة مجالاً لتكون لها هواية تمارسها. وحتى هواية الرســـم عند من تجيده تتعرض حتى يومنا هذا إلى قطع رقاب المرسومين إن كانـــت ترسم حيوانات أو بشراً على اعتبار أن الرسم حرام ويصبح حلال أو مكروهاً فقط بتشويه اللوحة بوضع الخط على الرقبة المرسومة. هذا إذا لم تُمنع الطالبة من رسم ذوات الأرواح.

لقـــد تطـــور الفكر التربوي. وبتطوره أدرك التربويون أن بناء شخـــصية الطالبة وعقلها يتطلب تجاوز مرحلة السيطرة والتلقين إلى قـــيام الطالـــبة ذاتها بالبحث والقراءة والتدوين والملاحظة والتفكير وإجـــراء الـــتجارب وكـــتابة التقارير والمساهمة في الأنشطة بشكل حقيقي. فهل هذا هو ما يحدث؟

لعلـــي أضرب مثلاً تتضح به الصورة التي أود إيضاحها. والمثل هـــو عن ما تُعده كثير من المدارس من معارض سنوية داخل المدرسة تـــشترك لإعـــداده وتنظيمه عدد من المعلمات والطالبات وكثير من الخطـــاطين والرســـامين والخـــياطين. حيث ترسل إليهم الأدوات ويقومون هم بإعداد اللوحات والأشكال حسب المطلوب مع التأكيد علـــى الخطاط أو الرسام الذي أعد العمل المطلوب مقابل مبلغ معين أن يكـــتب في أســـفل اللوحة (إعداد الطالبة فلانة وإشراف المعلمة علانة). ولا بأس من حضور مدير التعليم أو من يقوم مقامة لافتتاح المعـــرض عصراً بعد خروج الطالبات أو ربما يكتفي بأن تأتي بعض المشرفات صباحاً فيمتدحن هذا العمل. وقد تحضر أمهات الطالبات فيشعرن بالزهو عند رؤية أسماء بناهن في أسفل اللوحات التي أعدها بعض العمال في المحلات الخاصة بمثل هذا العمل.

الزائرات الرسميات أو الأمهات يتأملن الإبداع والابتكار وروعة التنفـــيذ ويثـــنين على المديرة لجهودها والمعلمات على ما بذلنه من جهـــود أيضاً، ليصلن بالطالبات إلى هذا المستوى في مجال الأنشطة. ويـــسجلن إعجـــاهن في سجل الزيارات شاكرات ومقدرات. ولم يسجلن سطراً واحداً لشكر المحلات التي رسم العاملون فيها وخططوا اللوحات وأعدوا المجسمات... إلخ.

كـــذلك يتم تزيين الفصول وفق رؤية هؤلاء الخطاطين. فتعلق اللـــوحات على الحائط بعد أن قام الخطاط الماهر بكتابة عدد كاف مـــنها، تحـــوي الآيات والأحاديث وبعضاً من القوانين والقواعد من الكـــتب المدرســـية. إضافة إلى الرسومات الجميلة التي لوها الرسام بمهـــارة. وبعـــد تعليقها في الفصول يتم ترشيح الفصل الفائز ضمن مـــسابقات تنظمها الإدارة المدرسية ويتم فيها فوز الفصل الأجمل من بين فصول المدرسة. والحقيقة أن الذي فاز هو الخطاط والرسام وليس

لطالـــبات ذلـــك الفصل مجهود يذكر في جمال اللوحات المعلقة في فصلهن. كذلك الحال بالنسبة لجدران المدرسة وممراتها.

وكـــنت قد اقترحت منذ زمن أن يخرج أي فصل من المنافسة طالمـــا لم تعـــد طالباته بأنفسهن اللوحات المعلقة على جدرانه. ولن أطـــيل هـــنا في شرح ما لهذا العمل من آثار مفيدة للطالبة إن نفذته بنفـــسها وما له من آثار سلبية إن نفذه غيرها وفازت هي، أقلها أن تتعلم الكذب العمد وأن تنسب أشياء غيرها لنفسها. ولنا أن نعرف الآن لمـــاذا يقـــوم آخرون بإعداد البحوث والمشاريع الخاصة ببعض طالبات البكالوريوس ثم لا تتردد الطالبة من كتابة اسمها على العمل وتقدمه بعد ذلك إلى أستاذتها في الكلية.

الـــدور الإشـــرافي لإدارات الإشراف ومديرات المدارس قد يـــؤدي ما عليه إذا اهتم بتدريب المعلمات تدريباً حقيقياً ليصبحن قـــادرات على جعل الطالبة تنمو في مختلف نواحي شخصيتها إلى أقـــصى ما تمكنها قدراتها واستعداداتها في بيئتها الاجتماعية، بحيث تـــصبح قـــادرة علـــى حل المشكلات التي تواجهها. وما أقصده بالمـــشكلات الـــتي تواجهها الطالبة إما ما يكون ضمن المواد التي تدرســـها وذلك عند عدم القدرة على القيام بالمهارات الأساسية المطلـــوبة لكـــل مـــادة. أو ضـــمن المدرسة في علاقاتها بزميلاتها ومعلماتها أو ضمن أسرتها والمجتمع. إذا نجحت الإدارات الإشرافية في تدريب المعلمات تدريباً حقيقياً – وليس شكلياً كالمعتاد – فإن المعلمـــة المدربة تكون قادرة على الاهتمام بالنمو النفسي والمعرفي والاجتماعي لكل طالبة. وبهذا تكون الطالبة عضواً سعيداً ومفيداً لنفسها وداخل مجتمعها.

ليـــست المدرسة بكل موظفاتها ومناهجها فقط لحشو الرؤوس بالمعلـــومات وليست المدرسة مكان تأتي إليه الطالبة لجمع أكبر قدر

مـــن الـــدرجات[1] فتعلن تفوقها على قريناتها. المدرسة إما أن تهتم بالطالـــبة فتكون نتيجة هذا الاهتمام بناء عقل ونفسية الطالبة بحيث يكـــون لدينا إنسانة سوية سعيدة طبيعية متفاعلة مع مجتمعها بشكل إيجابي. أو لا تهتم المدرسة – بكامل هيئتها الإدارية والتعليمية – بهذا أو لا تـــدرك كيف تهتم به وتكتفي بحشو رأس الطالبة بما في الكتاب المدرسي من معلومات – ويختلف حفظ المعلومات عن النمو المعرفي – مع التشديد عليها فيما يخص تحركها داخل المدرسة ولا يسمح لها بالجـــري أو اللعب المنظم... إلى آخر ما هنالك من مراقبات – بفتح القاف – وإجراءات شكلية لا تنتهي. تحول المبنى المدرسي إلى مكان لتأمل أشكال الطالبات من قبل المعلمات عوض عن تعليمهن. وتجعل كل طالبة في إحدى حالتين – أما أن تصبح في حالة تحدي ومواجهة وعناد أو حالة خوف وارتباك وتوتر وقلق مستمر.

المحـــصلة في الحالتين هي وجود أكثرية من الطالبات لا يتعاملن مـــع البيئة المدرسية كمكان تحبه الطالبة وتريد الحفاظ عليه. بل هو المكـــان المناسب لتدمير ما فيه من مرافق وتخريب ما يمكن تخريبه. ثم نتساءل كمعلمات وإداريات عن السبب الذي يجعل بناتنا لا يساهمن في الحفاظ على نظافة فناء المدرسة ولا يدركن معنى ترشيد استهلاك الماء والكهرباء ولا يحرصن على الطاولات والكراسي وكل ما يجدنه

---

(1) كثير من مديرات المدارس "وليس كلهن" يعنيهن من كامل العملية التعليمية درجات الطالبات. فتراها تحث المعلمات على أن تكون درجات الطالبات مرتفعة ولا يهم أن تتوافق الدرجات مع المستوى الحقيقي للطالبة. وهي تفعل هذا لأن عدد الناجحات في مدرستها وارتفاع نسبة الدرجات يعطي دلالة للمشرفات على حسن إدارتها. وترتفع درجات الطالبات فعلاً إذا تركزت الأسئلة على ما تم تحديده والتخطيط عليه في الكتاب ليتم حفظه ثم كتابته في ورقة الامتحان. وهذه كارثة أخرى من كوارث التعليم التي لست متفائلة بقرب نهايتها.

في مدرستهن. نتذمر ونستغرب رميهن بقايا الطعام والأوراق على الأرض وكتاباتهن على الطاولات وخروجهن من الفصل إلى المنزل والمكيفات والمراوح والأنوار مفتوحة. ولم ندرك أننا نحن من فعل كل هذا.

التعليم لم يصل بعقول المتعلمات إلى المستوى الذي يجعل الواحدة منهن قادرة على رفض الخرافة حين تُقدم لها على أنها حقيقة علمية وفي ظني أن هناك سببين لهذا الأمر. أولهما أن كل ما يقدم للطالبة على أنه من الدين يجب أن تقبله كما هو دون أي تمحيص أو تساؤل. وبالتالي صارت لا تفرق بين ما هو دين وما هو خرافة. أما السبب الثاني فهو أن طريقة التعليم والامتحانات في أغلبها تنصب على مستوى الحفظ والتذكر. ولعل ما يأتي يوضح ما أعنيه.

تقوم إدارة الإشراف بتكليف بعض المشرفات لإلقاء محاضرات دينية في المدارس أمام الطالبات والمعلمات والهيئة الإدارية. وقد حضرت – أنا – العديد منها في عدد من المدارس وفي هذه المحاضرات ما يعجب له العقلاء. فمثلاً في إحدى المحاضرات الدينية أكدت المحاضرة وهي تحمل شهادة البكالوريوس في الدراسات الإسلامية – للطالبات والمعلمات ورددت كلامها في عدد من المدارس أن شعر الحاجبين يمتد إلى المخ. ولهذا فإن من تنزعه تموت فور نزعها إياه.. لم تعترض أي واحدة أو تتساءل. المحاضرة استدركت الأمر وقالت إن الله يمهل ولا يهمل فبرغم امتداد بصيلات شعر الحاجبين إلى المخ وبرغم أنه ثبت **علمياً** أن من تنتزعه تموت من فورها إلا أن عدم موت النامصات فور انتزاع شعرة من الحاجب هو لأن الله يمهلهن – وليلاحظ القارئ الكريم ثبت علمياً هذه ومن أين أتت بها؟ كل المعلمات من حملة البكالوريوس وكل الطالبات يدرسن الخلية الحية ضمن مقرر الأحياء، لكن المعلمات والطالبات ضربن بما

تعلمنه عرض الحائط وصدقن بكل إيمان أن البصيلات تمتد إلى المخ. لم تعترض أي واحدة منهن على ما قيل. ليس هذا وحسب بل سمعت الحوقلة والاستغفار.. والهلع يعلو الوجوه. وعندما ذكرتهن بأن ديننا يحث على نتف شعر الإبطين وأنه لا يسبب الموت أكدن لي بثقة أن السبب هو أن بصيلات شعر الابطين بعيدة عن المخ وليست كبصيلات الحواجب.!

وفي العام الذي يليه أكدت محاضرة أخرى في عدد من المدارس أيضاً أن السرطان خلايا ميتة تتكاثر.. ولا أدري كيف تتكاثر الخلايا الميتة.. وهذه الخلايا الميتة التي تكوّن السرطانات في الجسم ماتت بسبب نزع شعر الحاجبين حسب ما ترويه المحاضرة التي تحمل البكالوريوس أيضاً، وكما في العام الذي سبقه، لم تتساءل أي واحدة من الحاضرات. لم تعترض معلمة أحياء، ولم تسعف المعلومات العلمية أي معلمة في أي تخصص آخر لتقول معي أن السرطان ليس خلايا ميتة تتكاثر. بل كنّ ينصحنني بالاستغفار والتوبة بسبب اعتراضي على قدرة الله. متصورات أن رفض الجهل هو رفض للدين. وأن العلم ببعض المعلومات العامة البسيطة يدخل ضمن تحدي قدرة الله تعالى.

وأما الصرع الهستيري فليس له تفسير لدى كثيرات سوى أنه جني لا يجد أين يسكن فحمل أمتعته وأدواته الشخصية واتجه إلى جسد طالبة صغيرة ليسكن فيه.. وكلما طالبتها المعلمة بإحضار الواجب صرعها الجني[1].

والاكتئاب بكل مستوياته سحر ساحر تفرغ من أجل تلك الصغيرة. والسرطان الذي تورم داخل رأس إحدى الزميلات رحمها

(1) يمكن الرجوع لكتب علم النفس للاستزادة في موضوع الصرع الهستيري والصرع العقلي والفرق بينهما.

الله كان بسبب عين إحدى اللواتي لا تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم. (فهي رحمها الله لم تكن ممن ينتزعن بعض شعيرات الحاجب ولهـــذا فالسرطان الذي أودى بحياتها كان بسبب نظرة وليس بسبب النمص)[2].

ولأن (كل قرد في عيني والدته هو أجمل غزال على الأرض) فإن مجـــرد ارتفـــاع حرارة الطفل يخلق الشكوك في قلب أمه بأن الناس حـــسدوها عليه.. ثم تتضامن معها المعلمات الأخريات ويؤكدن لها بـــأن عليها أن تذهب به إلى من يداويه بالطب الشعبي ليذهب عنه الـــبأس. وتـــبدأ الأم في إدخـــال طفلها في دوامة الأدوية التي تنتهي بالكـــي.. وربمـــا تبدأ به وهو لا يزال رضيعاً. وكم من رضيع أمه مـــتعلمة (في مدارسنا) كلما صرخ ألماً بسبب امتلاء جسده بجروح الكي زادته كيه جديدة لعله يشفى من آلامه.. وبرغم أن كثير منهن تـــربويات أي أنهن درسن في الكلية مواد الصحة النفسية إضافة إلى علـــم نفس النمو وعلم نفس التعلم إلا أن كثيرات يذهبن في تصديق الخرافة إلى أقصى مدى.

وإذا فكرت في رصد ما يدور مما يتعارض مع أبسط المعلومات الـــتي يعـــرفها كـــل متعلم بسيط - ناهيك عن الإنسان المثقف - فـــسأخرج بكتاب خاص لهذا الموضوع. لكني هنا أكتفي بما ذكرت لأشير إلى ما أوصلنا إليه أسلوب التعليم في مجال العلوم التجريبية، أما العلوم النظرية فتلك قصة أخرى.

أعـــود إلى أســـلوب التعليم وأقول: إذا لم يتجاوز عقل الطالبة المـــستويات الدنيا من الهرم المعرفي فإن عقلها لن يتدرب على النقد

---

(2) شيء مرهق ومحزن ومحبط أن أجد أغلبية من حولي يفسرن كل شيء بمعزل عن العقل. ويعتمدن التفسير الميتافيزيقي دائماً.

والإبداع بل يتلقى ويصدق ما يتلقاه وحسب. وهذا ما يجعل الخرافة تنتشر بسهولة في أوساطهن والعلم يتراجع.. بل لا يكاد يكون موجوداً أصلاً.

نقد التعليم أصبح الآن ميداناً مفتوحاً للقراءة والتأمل – على عكس ما كان عليه قبل عقد من الزمان إذ كان الحديث عن التغيير سبباً في تهم التخوين والعمالة. إذ إن من طالب بإعادة النظر في ما تدرسه الطالبة والطالب يصبح عدواً للأمة كارهاً للخير مناصراً للتغريب. أما الآن فأصبح سقف حرية النقد أعلى بقليل – وأؤكد على بـ قليل هذه – إذ تفهم الناس أن المنهج من صنع البشر وليس منـزلاً من السماء. كما أدركوا أن واضعي المنهج يصيبون ويخطئون مثلنا تماماً وأنه مهما كانت نواياهم حسنة ومقاصدهم خيّرة ومهما علت مناصبهم أو مكاناتهم الاجتماعية فإنهم ببشريتهم تلك لن يكتبوا شيئاً غير قابلٍ للمراجعة والحذف والإضافة. علاوة على كون المنهج صار قديماً بالنسبة للعصر الحديث ولا يلبي الحاجة الفطرية للمعرفة عند إنسان هذا العصر.

إن المطالبة بنقد المنهج لا تعني مطالبة بتغيير الدين كدين أو حذفه والعياذ بالله. لكن المطلوب هو أن يكون المنهج متناسباً مع النمو النفسي والمعرفي لكل طالبة إضافة إلى مناسبته للمرحلة العمرية.

إن المؤسسة التعليمية لا زالت بأنظمتها ومقرراتها ترسخ في ذهن المتعلمة مكانتها الأدنى اجتماعياً وعقلياً من الرجل مفترضة أن تلك المكانة الأدنى هي من تقدير الله عليها وليست نتاج ثقافة مجتمع معين. وذات المنهج – في مجاله الصفي واللاصفي – يعطي الطالبات تصوراً أن غيرهن من النساء متى ما حصلت الواحدة منهن على مكانة أدبية أو اجتماعية أو سياسية رفيعة في مجتمعها البعيد عنهن كل البعد فإن هذا بسبب ما هي عليه من انحلال وتفسخ خلقي. ولا

زال التأكيد على أن المرأة خارج مجتمعنا - أي في المجتمعات المتقدمة - ليست سوى بائعة هوى فاسقة فاسدة يمرر إلى عقول النشء بشتى الطـــرق. فحـــتى في الـــبرامج المخـــتلفة والحوارات الوطنية يؤكد المـــتحاورون علـــى هـــذا الجانب. إذاً تُقدم الصور مقلوبة، وتُصور الإنجـــازات النـــسائية على مستوى العالم على أنها ضد ما يسمح به الدين وما تسمح به الأخلاق.

لقـــد ظلت مقاومة تعليم المرأة ردحاً من الزمان بسبب ما كان المجتمع عليه فيما يخص تعليم النساء والمترتب على موقفهم الأساسي مـــن المـــرأة ومكانـــتها في المجتمع. ثم كانت الموافقة على مضض.. وبـــشروط قاسية. استمرت تلك الشروط سداً منيعاً أمام الطالبات تعيقهن عن الانشغال بالعلم حتى اليوم.

تتـــشكل عقول الصغيرات وفق ما تقدمه المؤسسات التعليمية للطالـــبة من مقررات ويوازيه ما تقدمه المعلمة للطالبة وفق ما تعتقده صواباً خارج المنهج المكتوب. أي أن القناعات الخاصة بمعلمة مادة ما - حـــتى معلمات المواد العلمية - تقدم للطالبات على شكل حقائق مطلقة غير قابلة للنقاش وأن كل ما يخالف تلك القناعات هو الفسق بعينه على أقل تقدير.

وإذا كنا - كمجتمع - نقضي على كل معاني الاختلاف فيما بيننا. فليس ما يحويه بعض المقررات فقط هو مصدر ما نحن عليه من غلـــو واستبداد أيديولوجي أدى إلى غلق الأبواب أمام التنوع. ولكن ما تتضمنه الحصص أثناء الدرس المقرر والأنشطة اللاصفية من أفكار تقـــدم إلى الطالـــبات مدعمة بشروحٍ منتقاة وتفاسير موافقة لرؤىً محددة تتلقاها الطالبة وكأنها الحق المنـــزل من السماء. دون الإشارة إلى وجـــود آراء فقهية غير التي تم ذكرها ليس عن عمد ربما، ولكن لأن المعلمـــة نفسها لا تعلم بوجود ما يخالف ما تراه صواباً. وذلك

لأنها – أعني المعلمة – تخرجت من ذات المنهج وخضع عقلها لذات الأيديولوجيا وبالتالي فهي تمارس ذات الدور الذي مورس عليها.

ما أعنيه هنا مما يقدم للطالبة هو خارج نصوص المقرر المدرسي. وذكـــر مـــن خلال ما تراه وتعتقده المعلمة. ويكفي أن نتأمل مكتبة الفصل الصغيرة ونحصي ما بها من أشرطة ومطويات كلها – في عين الطالـــبات والمعلمات – تقول بما أنـــزل الله. وبرغم صدور التعاميم الـــتي تمنع تداول أي مطوية أو منشور أو كتاب لم يصرح به من قبل الـــوزارة ظلت كل الأشياء التي تقدم باسم الدين مستثناة من التطبيق وكأنها خالية من الأخطاء. أو كأن التعاميم لا تشملها.

فـــإذا كـــان الواجب على المعلمات حصر أنفسهن في الخطوط العريـــضة مـــن أمور العقيدة والفقه، وترك الخلافي أو التأكيد على أنه خلافي. إذا كان هذا هو الواجب فعله فكيف تعرف معلمة الرياضيات مـــثلاً أن هذا أمر خلافي وغيره قطعي إذا كانت ترى أن كل ما استقته من شريط أو كتيب هو دين الله. وما عدا ذلك فهو كفر وضلال؟

وما العمل إذا كانت المدرسة تقدم للطالبة آراء تناقض واقعها. فتسمع الطالبة من معلماتها أن متابعة القنوات الفضائية حرام. وتنتشر فتاوى على شكل مطويات بأن من لديه (دش) كذا وكذا. ثم تعود الطالبة إلى المنـــزل لتجد والديها يتابعان مسلسلاً أو أخباراً أو فيلماً أو أغنـــية؟ وكـــنت قد سألت إحدى المعلمات عن سبب ترديدها لتحـــريم الدش أمام الطالبات مع أني أعلم أن عندها دش في منـــزلها فأجابتني بأنها تقر بالمعصية ولا تريد أن يقترفنها كما اقترفتها.

إن الإســـلام الـــذي يأمـــر الإنسان ببر والديه حتى وإن كانا مشركين بالله. أي أنهما يعبدان غير الله، لا يمكن أن يقبل من طالب أو طالبة تجاوزهما بأي شكل على الوالدين كليهما أو أحدهما بسبب ما يظن هو أنه معصية كمشاهدة التلفزيون مثلاً.

ولكـــن في المدارس من تحرض طالباتها على الأخذ على أيدي الوالدين إن رأت الطالبة منهما ما لا يجب أن يفعلانه.

إن دور المدرسة ككل في تشكيل الوعي يشمل دور المناهج التي تخـــص العلـــوم على اختلافها – النظرية والتجريبية – ودور المعلمة بحسب ما تحمله من فكر داخل المؤسسة التربوية.

وإصـــلاح التعلـــيم، هو من أوجب الواجبات من أجل إنشاء أجـــيال الجديدة تنهض بالمجتمع وتدفعه إلى الأمام. وأول خطوة في الإصـــلاح هي تنقية التعليم من ثقافة التعصب. والتعصب موجود في المقـــرر وموجـــود في أذهان المعلمات. ووجود التعصب يعني أن لا تكون المدرسة مكاناً لترسيخ مفهوم التسامح في ذهن الطالبة بل هي مكان تتعلم فيه أن كل مخالف على خطأ حتى وإن كان هذا المخالف مـــن أهلـــها وذويهـــا. فالحق ليس إلا ما عرفته وتعلمته وما سواه بالضرورة هو الباطل يضاف إلى هذا عدم قدرة المدرسة والمنهج على خلق العقلية العلمية لدى الطالبة.

والأولى بمدارسنا أن تدرس الدين دون تعصب لرأي دون آخر مبـــتعدة عـــن خلافات الآراء الفقهية، بحيث يكون العلم علماً غير خاضـــع لأي تـــيار. وأن تـــصل المدرسة بطالباتنا إلى قدر عال من الوعي، وأن تجعل عقولهن متوقدة تتعطش دوماً إلى المعرفة.

وثـــاني الخطـــوات هي في إعداد المعلمة إعداداً تربوياً حقيقياً يؤهلها للتعامل مع الطالبات وفق علم التربية. يضاف إلى هذا ضرورة التقليل من أعداد الطالبات داخل الفصول ليكون التعليم أكثر فاعلية.

أســـتطيع أن أصـــف ما نحن فيه الآن بأنه خمول الفكر وخمول الجـــسد. فالمكتبة المدرسية خاوية إلا من بعض الكتيبات التي تكرر وتعيد وتزيد عن النساء ومكانتهن في الإسلام وفق ما يراه أصحاب

تلـــك الكتيـــبات إذ إن مكانها هو المنـــزل وكل مكان سواه يعني تعرضـــها للرذيلة... إلخ مما كتبوه وكرروا كتابته. عدا بعض الكتب التي تحسب للمكتبة المدرسية كالموسوعة العربية التي وزعت على كل المدارس تقريباً.

وأمـــا جـــسد الطالـــبة فهو لا يحظى بشيء من الاهتمام على الإطـــلاق. وقد يكون الأمر إلى هنا مقبولاً. لكن الكارثة أنه يلاقي أنواعاً من صنوف الأذى والتدمير البطيء. فكل.. كل.. كل رياضة ممنوعة مهما كانت بسيطة وممكنة. وبدء تحريمها على المرأة جاء منذ بدأ التعليم. وأظن أنه لولا التعليم لكانت المرأة أكثر قوة ونشاطاً. إذ إنـــنا لو نظرنا إلى تاريخ النساء قبل عهد رئاسة تعليم البنات لعرفنا أنهـــن كـــن يهبطن وادياً ويصعدن جبلاً. يضربن الأشجار بالفأس ويكـــسرن الأغـــصان الكبيرة فيجعلنها صغيرة ثم يحملنها إلى بيوتهن مهمـــا كانت المسافات طويلة ومهما كانت الطرقات جبلية قاسية. ويأتين بالماء من الآبار ويعملن في المزارع ويخرجن باستمرار إلى الهواء النقـــي والحياة الطبيعية حينما **كانت الشمس للنساء والرجال معاً**. أما اليوم فالشمس محرمة على النساء. الشمس للرجال فقط. وإن ظل الحـــال على ما هو عليه فلا أستبعد أن يأتي من يطالب ذات يوم بأن يُكتب على الشمس عبارة "للرجال فقط". وللعلم، فإن بعض مدارس البنات الحديثة جداً مسقوفة بحيث لا تدخلها الشمس. ولا أدري ما الفائدة من ذلك؟ هل يستبقون أشعتها المفيدة لمدارس البنين؟

يـــضاف إلى هـــذا أن ما تأكله النساء في الماضي كان طبيعياً حـــسب البيئة التي نشأت فيها. واليوم.. بالإضافة إلى عدم السماح للطالـــبات في المـــدارس بممارســـة أي حركة تعد ضمن الرياضة. وبالتأكـــيد لا يذهبن إلى نوادي خاصة بالنساء لندرتها أيضاً وارتفاع أســـعارها، هنّ لا يعرفن عن الثقافة الغذائية إلا القليل. وهذا جعلهن

ضعيفات الجسد مترهلات إلى الحدّ الذي يجعل من يتأملهن في الطابور الصباحي يحزن كثيراً لأجلهن. إنهن لا يمشين بشكل نشيط وحيوي إلى الفصل. بعضهن تكاد لا تنقل القدم من على الأرض ثم تضعها ثم تنقلها مرة أخرى. بل يسحبن أقدامهن سحباً بخطوات متثاقلة تخلو من الهمة وجمال خطوات الشابات.

إن عدم وجود الرياضة داخل المجتمع النسائي وعلى رأس ذلك داخل أسوار مدارس تعليم البنات يعني أن تظل طاقاتهن النفسية مكبوتة لا تجد مجالاً طبيعياً ومسموحاً للتنفس وهذا يعني أن نجد فئة تستبدل الأنشطة الرياضية بأساليب أخرى غير مسموحة أو غير صحيحة على أقل تقدير. وبالتالي فالحاجة إلى الترويح عن النفس والشعور بالنشاط والحيوية شيء مفيد إذا تمّ توجيهه بالشكل المناسب له. أما إذا منعت الأنشطة الطبيعية والمفيدة فأرجو أن لا يستغرب المسؤولون إن حلّت محلها غير المفيدة وغير الطبيعية. وأن يعلموا أنهم هم من أسهم في ذلك. أضيف إلى هذا ما يحدثه بواب المدرسة من تلوث سمعي بسبب مناداته اليومية على الطالبات بمكبر الصوت داخل المدرسة. فصوت البواب الذي ينادي على كل طالبة عدة مرات مستخدماً مكبرات الصوت والطالبات في المدارس المتوسطة العدد يقتربن من الخمسمائة طالبة لا شك يؤذي سلامة السمع لديهن. فهل رأى أحد أن في هذا ما يؤذي كل من بداخل المدرسة؟ (أكد الأطباء على الأضرار التي يمكن أن تحدث من جراء الأصوات المرتفعة من مكبرات الصوت فيما يعرف بالتلوث السمعي دون تحديد مقياس شدة هذه الأصوات. وقال الأطباء: أن الصوت المرتفع يسبب ضعف سمع دائماً ولا يمكن علاجه إلا باستخدام السماعات، وهو ما يتطلب معه أن تكون الأصوات الصادرة من مكبرات الصوت

معقـــولة ودون النـــسبة المحددة عالمياً والتي لا تتجاوز 80 ديسيبل بمقـــياس الصوت. إن التلوث السمعي يُعدّ من أهم أسباب فقدان الـــسمع لدى الإنسان وأن ذلك يحدث نتيجة للتعرض للأصوات المزعجة لمدة طويلة مثلما يحدث مع عمال المصانع أو رجال المرور وقـــد يحـــدث نتيجة لتعرض الإنسان لصوت عال جداً ولو لمرة واحـــدة مـــثل أصوات الطلقات النارية. ولسوء الحظ فإن فقدان الـــسمع نتيجة لمثل هذه الحالات يؤدي إلى صمم دائم. والتلوث السمعي يُعدّ من أهم أسباب فقدان السمع لدى الإنسان ويحدث نتيجة للتعرض للأصوات المزعجة. أما شدة الصوت تقاس بمقياس الديـــسيبل، ويُعدّ إزعاج أصوات آلات تنبيه السيارات بنحو 80 ديسيبل، كما يُعدّ التعرض لمثل هذه الأصوات يومياً سبباً للإصابة بالطـــنين وفقـــدان السمع وهذا من أهم أسباب التلوث السمعي، حيث يتعرض له عدد كبير من المواطنين)[1].

هـــل ستُرحم منسوبات التعليم من نداءات البوابين في مكبرات الـــصوت بشكل يومي منذ أن تدخل المدرسة إلى أن تتخرج منها. وتعـــود إلـــيها موظفة؟ أم أن حاسة السمع عند المرأة بنصف حاسة السمع عند الرجل ولهذا لا بأس إذا تضررت؟

أما الإذاعة المدرسية التي لم تُحدد مفرداتها وظلت مفتوحة لكل مـــن أرادت أن تأتي بموضوع فيها. فإن بعض المدارس جعلتها منبراً لتـــرهيب الطالبات والبعد بهن عن معاني الخير والجمال في كل أوجه الحـــياة. في الطابور يقفن منصتات إلى الإذاعة التي تكاد أن تخلو من الابتـــسامات والطرف والحقائق العلمية. وتمتلئ بالتخويف من الحياة التي يتم اختزالها في أنها فقط "مرحلة العبور إلى الآخرة" وتمتلئ أيضاً

(1) الشرق الأوسط، الجمعة 25 رمضان 1426هـــ/28 أكتوبر 2005، العدد 9831.

بالوعيد والنار للنساء بشكل عام وللطالبات بشكل خاص لو قمن بكذا وكذا من الأمور. ويترك "كذا وكذا" لما تراه المعلمات والطالبات اللواتي يقمن بإعداد الإذاعة. وقد سمعت بدخول النار للواتي يتابعن الأزياء والموضة أو يكثرن من الذهاب إلى الأسواق... إلخ. بشكل عام المدرسة تتحول تحت سلطة بعض المديرات إلى مكان يبعث على الكآبة ويقلص مساحات السرور داخل النفس.

في الغالب وحسب ما تابعته في كثير من المدارس ليس هناك انتقاء لما يناسب المرحلة العمرية للطالبة لترغيبها في الدين وإظهار وجه الإسلام الحقيقي النقي الذي يملأ قلب المسلم بالإيمان والثقة بالله والاطمئنان إلى أن رحمته وسعت كل شيء وأنه يحب عباده ويتوب عليهم ويغفر لهم وأن الدين لخير الناس وسعادتهم.

إن التربية كعلم حديث أساسُها هو بناء الإنسان. بأوسع ما تعنيه كلمة بناء، ليكون مستقلاً في إرادته. أي أن التربية الحديثة تعتبر القدرة على التفكير، واتخاذ القرار بمحض الإرادة الذاتية من أهم أهدافها. فأين نحن وأين التربية ونحن نمارس الوصاية الكاملة على الطالبات ونرى العلاقة بين المعلمة وطالباتها علاقة قمعية سلطوية آمرة؟

إذ لا نزال حتى يومنا هذا وإلى أيام ستأتي لا نرى الطالبة كياناً يجب احترامه - ونطالبها باستمرار وفي كل سكناتها باحترام المعلمة - وعدم احترام الطالبة من قبل المعلمات والإدارة هو ما يجعل أسلوب التخوين وتفتيش شنط جميع الطالبات وتفتيش عباءاتهن وأغطية وجوههن وطريقة لبسهن لها ممارسات عادية. بل ربما واجبة على كل مسؤولة يدعمها في ذلك تعاميم وقرارات لا زالت سارية المفعول. وليس من بين المديرات من ترفض تنفيذها وفقاً لما تعلمته من كتب علم النفس التربوي إلا فيما ندر. ولنا أن نتصور أن مشط

الشعر - وليس سوى مشط للشعر كان ممنوعاً حين كنت طالبة واستمر منعه إلى عهد قريب - ولا زال ممنوعاً في بعض المدارس إلى اليوم. في كل صباح تخلع كل طالبة عباءتها وتسوي شعرها بأصابعها فمن كان شعرها جافاً أو أجعداً تضاعفت معاناتها مقارنة بذوات الشعر الناعم ولا أدري إلى يومنا هذا ما الحكمة - في نظر المانع - من منع الطالبات من اصطحاب المشط إلى المدرسة، وما المردود العلمي أو التربوي من بقاء الشعر منكوشاً ومنفوشاً بعد خلع العباءة؟ وما الفائدة من شعور الطالبات بالحرج وهنّ يتلمسن رؤوسهن ويردن إصلاح ما تطاير هنا وهناك؟ كما كانت كثير من المدارس الحكومية والمستأجرة تخلو تماماً من المرايا التي عادة توضع عند دورات المياه. ويُبرر انتزاعها من الحائط بقولهم: لكي لا تنشغل الطالبة عن الدرس بالنظر إلى صورتها في المرآة. ولهذا كنا - عنما كنت طالبة - نحضر المرايا الصغيرة بين كتبنا. وعندما يتم التفتيش علينا ونعاقب بسبب وجود مرآة نضطر إلى استخدام المرايا التي على مبراة القلم الرصاص الصغيرة جداً. وصارت المرآة غاية نحاول الوصول إليها. نحارب من أجلها ونستميت في الدفاع عن حقنا في الحصول على مرآة. هكذا كانت النتائج. الأشياء التافهة تصبح مهمة. والتي بلا قيمة صارت أولوية. فالمرآة هدفنا والتحايل وسيلتنا والعقاب نتائج حتمية لمن كُشف أمرها. والأذكى هي التي تحضر المرآة ولا تكتشف المعلمات أنها أحضرتها برغم التفتيش. أما الكتب والروايات فيا للمصيبة التي ستحل على رأس من اكتشفوا أنها تحب قراءتها لهذا كنا نهرّب قصص أغاتا كريستي وغيرها كما يهرّب المجرمون المخدرات.

كثير مما هو ممنوع الآن بقرار رسمي مكتوب أو شفهي سيصبح غداً مسموحاً ولكن تظهر قائمة أخرى من الممنوعات.

ومـــا أعنيه هو أن الممنوع والمسموح لا يكون وفق مصلحة معينة أو هدف تربوي واضح بل وفق رؤى خاصة بالمانع أو مزاجية معينة أو تشدد لا معنى له.

خلاصة القول إن المدرسة ليست هي المكان المحبب الذي تحرص الطالبة على نظافته وسلامته لأنه لها وأنشئ من أجلها. بل أنشئ لكي تراقب فيه وتطالب بالمعقول وغير المعقول. وتعاقب بحق وبغير حق. وإذا كان الضرب ممنوعاً الآن فإن العقاب النفسي مستمراً. والمدرسة ليـــست المكان الذي يروي عطشها للمعرفة هذا إن كان عقلها قد تـــربى على الرغبة في الاستزادة من العلم. بل المكان الذي تلتقي فيه بصديقاتها، وحسبها هذا لتتحمل الكثير من القسوة والضغوط.

أ – المنهج

إن الوصاية القائمة على الجميع أدت إلى الإرهاب الفكري وانتزاع حريات الناس.

تـــناولت الكـــثير من الدراسات والبحوث موضوع المناهج. ولست الآن بصدد ذكر النظريات حول المناهج وإعدادها. بل أفضل التركيز على ما يقدم للطالبة.

ومـــا دام المنهج بمفهومه الحديث يشمل الأنشطة التي تقوم بها التلمـــيذة داخـــل المدرسة وجميع الخبرات التي تمر بها ضمن إشراف المدرســـة وبتخطـــيط منها. أي أن المنهج هو حياة التلميذة خلال الـــساعات الـــتي تقـــضيها في مدرستها تحت إشراف وتوجيه الهيئة التعليمـــية والإداريـــة، بما يتضمنه من أنشطة صفية ولاصفية. فإني سأذكر بعض الملاحظات التي أرى أنها جديرة بالتدوين والمعالجة من قبل المهتمين بالتربية والتعليم والمسؤولين عنها في البلاد.

وأولهـــا - يقدم منهج العلوم النظرية ما فيه على أنها حقائق مطلقة غير قابلة للمراجعة ويصل الاعتقاد بها إلى حدّ مساواتها - في ذهن الصغيرات بكتاب الله عزّ وجل - أن كل طالبة عرفتها امتلكت الحقيقة المطلقة وليس على وجه الأرض صواب آخر عند غيرها. يضاف إلى هذا.. شعورها - وهي تمتلك الحق المطلق - أن علـــيها.. بـــل وواجـــبها الـــديني المنطلق من ضرورة أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر - أن تعدل وتبدل وتغير في تصرفات الـــناس. وتنطلق في فهمها للمعروف والمنكر من فهم مجتمعها له الـــذي يـــضع نصب عينيه عاداته وتقاليده[1]. وهذا النمط من الـــتفكير يشكل البيئة المناسبة لخلق التطرف داخل المجتمع إذا لم يكـــن هـــذا هو التطرف بعينه والذي بلا شك يجلب الكثير من المـــشكلات التي عانى المجتمع ويلاتها. إن إظهار بعض النصوص والتحيـــز لهـــا وتعمد إهمال بعضها الآخر يؤدي إلى تشويه معنى الدين. ومن هنا تأتي ضرورة مراجعة المناهج لتفهم الطالبة دينها وفقـــا للقيم الأساسية والمقاصد الكبرى فيه، وفي هذا الصدد دار بـــيني وبـــين الطالبات بعض من الحوارات أنقل أحدها ليتضح للقارئ الكريم حجم المشكلة. إذ تمّ اختزال كثير مما أتى به الدين الحنيف في مسألة حجاب المرأة في فهم الطالبات. وليس الحجاب بشكل عام. بل شكل واحد محدد للحجاب. وكل حجاب عداه هو "حرام".

---

(1) قامت مجموعة من طالبات المرحلة المتوسطة في إحدى مدن المملكة التي عملت معلمة في إحدى مدارسها بضرب طالبة صغيرة في الصف الأول المتوسط داخل أوتوبيس المدرسة لأن تلك الطالبة كشفت وجهها. الطالبات اللواتي قمن بضرب الطالبة الصغيرة كسولات جداً ووجدن فرصة للتفوق داخل الأوتوبيس على من هي أصغر منهن.

قالت لي إحدى طالبات المرحلة الثانوية ذات فراغ أن الممثلة فلانة جاءت إلى مكة لأداء العمرة. لم تلاحظ الطالبة عليّ أي ردة فعل اعتيادية أو غير اعتيادية. فسألتني بكل جدية: أترضين؟ فقلت: لها بماذا؟ قالت: أترضين أن تأتي هذه الممثلة التي تظهر على شاشات التلفزيون إلى بيت الله؟ قلت: ومن أنا حتى أرضى أو لا أرضى. فاجأها الجواب وقالت: إنها ممثلة، وغير محجبة وتأتي إلى بيت الله وترين الأمر طبيعياً؟ عدت وقلت لها: ومن أنا حتى أراه طبيعياً أو غير طبيعي. إنه بيت الله وليس بيتي لأمنعها أو أسمح لها. دار الحوار داخل الفصل. واستبدّ الغضب ببعض الطالبات مني. وذهبن لمديرة المدرسة يخبرنها بموقفي – المتساهل مع دين الله حسب اعتقادهن – وبتعبير أدق، يشتكين إليها مني. إذ كان من المفروض حسب اعتقادهن أيضاً أن أبدي استيائي على أقل تقدير من زيارة الممثلة لبيت الله. هذا إذا لم أشارك في السبّ والشتم واللعن لها كونها تمثل ولا تتحجب وتأتي إلى مكة للعمرة.

هذا التعصب والتشدد والقطعية بسلامة رأيهن إضافة إلى اتخاذ الموقف الرادع "للمخالف" ولأني لم أكن زميلتهن ليقمن بتأنيبي اضطررن للذهاب للمديرة لأني كنت على رأي آخر مما هنّ عليه. وليس مهماً الآن أن أتحدث عما أحدثته من تغيير "طفيف" في قطعيتهن الفقهية تلك.

إن ما يدرسنه ضمن مقرر المواد الدينية وما يستمعن إليه من محاضرات وأشرطة سلب من عقولهن القدرة على الرؤية بوضوح. وكان الأولى أن تؤدي بهن دراسة مواد الدين المكثفة إلى أن تكون عقولهن يقظة فاحصة قادرة على العمل بصفاء ونزاهة.

ثانياً – النظر للماضي بكل ما يحويه من موروث بعين التقديس من قبل الطالبات ومن قبل كثير جداً من المعلمات. حتى وإن كان ما

فـــيه غـــير قابل للتصديق. أو يعتمد على اتجاه فقهي معين. أو غير مناسب للمرحلة العمرية للطالبات[1].

ثالـــثاً – المواد **العلمية** تدرس ضمن مستويات الحفظ والتذكر فـــإن ارتقى المستوى التعليمي وصل إلى الفهم ثم التطبيق على أحسن الأحوال. وهذا ما يجعل المواد العلمية بعيدة عن واقع الإنسان في كثير مـــن الأحوال مهما تعلمها في التعليم العام. حيث إن المستويات التي أشرت إليها ستة حسب الهرم المعرفي وهي (الحفظ والتذكر – الفهم – التطبيق – التحليل – التركيب – التقويم).

أما الخلل في اللاصفي فهو في انطلاقه من المنهج الصفي ذاته. إذ إنه يستقي منه خطوطه العريضة وبالتالي تدور الطالبة في ذات الحلقة

---

(1) في كتاب القراءة العربية ومهاراتها للصف الثاني متوسط ذكر الكتاب (الجديد المعدل، طبعة 1427هـــ، ص 94) أن الصحابي الجليل أبا عبيدة عامر بن الجراح ضرب رأس والده بالسيف ضربة فلقت هامة والده نصفين وخرّ والده صريعاً بين يديه، كانت إحدى الطالبات تقرأ الدرس قراءة جهرية والباقيات ينصتن ويتبعن في كتبهن وأنا واقفة أمامهن وفجأة صرخت إحداهن بقولها (بشع.. قتل والده بالسيف؟! بشع.. شرير) كانت الطالبة ترتجف وعلى وجهها علامات الخوف والهلع. وتوجب عليّ أن لا أسمح بنعت الصحابي بهذه الألفاظ ولكن قبل أن أستوعب كلماتها وهلعها تدخلت طالبة أخرى وقالت بحدة استغربتها: (بل هو بطل.. قتل والده لأنه كافر.. كافر.. يجب أن يقتله أم تظنين أن عليه أن يتركه يعيش وهو مع كافر) حرصت على أن أنهي الحوار بينهن على غير عادتي. فقد أدركت أنهن تعلمن من الدرس ما لا أوافق كمربية على تعلمهن إياه. فليس من الممكن أن تؤيد بعضهن قتل الآباء أياً كانت أسبابهن. ولا أن تؤيد بعضهن أن ما فعله الصحابي يدخل ضمن البشاعة والشر. وقد ظل التهامس بين الطالبات أثناء الدرس بين مؤيدات ورافضات خائفات. وهذا بالضبط معنى أن نختار ما يناسب الطالبة والطالب إذ إن قصة كهذه يجب أن تبقى إلى أن تدخل الطالبة الجامعة فتكون قد نضجت بما يكفي لتفهم معنى المعركة بين المسلمين والمشركين.

وتـــتعامل مع ذات المكان والأشياء والأشخاص. ولا يستطيع المنهج اللاصفي تنمية الهوايات – على الأغلب – ناهيك عن اكتشافها ولا أن يكـــون مجالاً لامتصاص طاقات الطالبات وتنمية خبراتهن وإثراء ثقافـــتهن. هذا عدا عجز المنهج اللاصفي عن صقل مواهبهن بشكل فعلي. وأرى أن الهدف بعد هذا هو في الرقي النوعي للتعليم بمجمله. ويتأتى هذا إذا تمت مراجعة شاملة وحقيقية من قبل متخصصين ذوي ثقافة عالية وفكر مستنير.

بقـــي في المـــنهج أمر أراه مهم جداً ويجب أن أتناوله، ألا وهو "التربية الوطنية".

كل إنسان يكتسب صفة المواطنة بمجرد انتسابه إلى دولة معينة، ولكنه لا يكتسب صفة الوطنية إلا بالعمل الحقيقي لصالح هذه الدولة ثم يصبح قادراً على تقديم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة. ومن لـــوازم الوطنـــية شـــعور المـــواطن بالانتماء للوطن ومعرفة حقوقه وواجـــباته. فمـــن حقوقه مثلاً توفير التعليم والحصول على الرعاية الصحية والخدمات الأساسية. توفير الحياة الكريمة. **العدل والمساواة. والحـــرية الشخصية وتشمل حرية التملك، وحرية العمل، وحرية الاعـــتقاد، وحـــرية الرأي**. وهذه الحقوق يجب أن يتمتع بها جميع المواطـــنين بـــدون استثناء. فهل حُرمت الطالبات من دراسة التربية الوطنـــية لكي لا يدركن أن الحرية الشخصية حق يجب أن يتمتع به كل المواطنين على حدٍّ سواء؟

ب – المعلمة

كاد المعلم أن يكون رسولاً.

كـــثيرات هـــن اللواتي يبحثن عن فرصة أو واسطة، أو طريقة ليخـــرجن مـــن التعليم وليحتفظن بالراتب. ولهذا امتلأت مكاتب الإشـــراف بالمـــوظفات الهاربات من التدريس إلى الوظائف المكتبية بغضّ النظر عن الحاجة الفعلية للعمل. وبكل مسؤولية أقول: نعاني في بعض مكاتب الإشراف من بطالة مقنعة.

إن الـــثقة بالـــنفس التي يجب أن تتمتع بها المعلمة تنطلق أولاً من كفاءتهـــا المهنية في مجال التعليم. وقدراتها التي يجب، وأضع تحت يجب خطوطاً عديدة، يجب أن تصل إلى المستوى الاحترافي في المجال التربوي. وهـــذا لا يعني أن تكون قد تمكنت من مادتها التي تدرسها فقط. بل أن تكون أيضاً قد أُعدت[1] إعداد تربوياً ممتازاً يمكنها من الارتقاء بالفضول العفوي البسيط لدى الطالبات ليصبح فضولاً معرفياً يتضمن القدرة على النقد والتصحيح والإبداع. كذلك يمكّن هذا الإعداد التربوي المعلمة من إدارة المواقـــف المخـــتلفة في الفصل وخارجه باقتدار ينـــزهها في أعين طالـــباتها وفي عـــين ذاتها عن أن تكون انفعالية أو مزاجية أو متسلطة ويمكنها أيضاً من إدراك سبب أفعال وردود أفعال طالباتها وفقاً لما تفقهه المعلمـــة عـــن خصائص نموهن مضاف إليها تأثير الأوضاع الاجتماعية والاقتـــصادية والأسرية عليهن وقادرة على استحضار ما عرفته في شتى

---

(1) لا شك أن بعض المعلمات تصل قدراتها إلى أكثر مما نتصور. لكن العمل الفردي يكاد لا يترك أثراً واضحاً. فالمدرسة عمل جماعي مؤسسي وليس عملاً فردياً ولهذا لا تظهر آثار المعلمات المتميزات جداً برغم جهودهن الكبيرة. وتظهر بوضوح الأساليب غير الصحيحة في تكوين عقل وشخصية الطالبة لأنها لتضافرها اتخذت طابع العمل المؤسسي.

العلوم وعلى رأسها الصحة النفسية عند حدوث مواقف طارئة من بعض الطالبات. وإلا فإن كل ما درسته من مقررات في كلية التربية أو ضمن الدبلـــوم التـــربوي سيكون هباء منثوراً إذا لم يوظف كما ينبغي داخل أسوار المدرسة. فهل هذا التوظيف هو ما يحدث؟

مـــا يجـــب أن تكون عليه المعلمة يملأ الكتب وتعد له الدورات والمحاضـــرات لكن الواقع شيء آخر مختلف. سأحاول فقط الكتابة عنه كما عرفته. وقبل أن أبدأ في ذلك أود سرد هذه القصة البسيطة القادمة مـــن التراث. لأنها ذات معنى عميق بغضّ النظر عن مدى صحتها من عدمـــه: يقـــال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يمشي في أحد الأســـواق فـــرأى رجلاً يلتقط لوزة من الأرض ثم يرفعها بيده وسط السوق ويصيح في الناس بأعلى صوته - يا ناس من ضاعت له لوزة؟.. يا ناس من الذي ضيّع لوزة؟.. يا ناس من ضاعت له لوزة؟.. فاتجه إليه عمر رضي الله عنه وقال له: كُلْها.. كُلْها يا صاحب **الورع الكاذب**.

.. لقد أدرك عمر - بذكائه المتميز - أن هذه المبالغة في الورع والمتمثلة في الصراخ من أجل البحث عن صاحب لوزة.. لوزة واحدة سقطت في الطريق من شخص ما ذات يوم. ويحدث بسببها كل هذه الجلـــبة وكل هذا الضجيج!!!! هل فعلاً كان يريد أن يجد صاحب اللوزة ليردها إليه لأنه إذا أخذها فقد اقترف ذنباً لا يقدر على اقترافه لأن ضـــميره سيحاسبه على هذا الذنب. والأهم من محاسبة الضمير خوفه من حساب الله تعالى يوم الحساب؟ أم كان يريد أن يرى الناس كلـــهم أنه نـــزيه ومتدين وورع وتقي وصالح و"يُصلي على طرف ثـــوبه"[1]؟ لقد اكتشف عمر كذب ورع هذا الرجل بسبب ما في

(1) يُصلى على طرف ثوب فلان - مثل من منطقة عسير يقصدون به أن هذا الشخص نقي وطاهر جداً. ولشدة طهر نفسه انعكس الأمر على ثيابه فصارت طاهرة إلى الحد الذي يمكننا من الصلاة على طرف ثوبه. أي أن نستخدم طرف ثوبه سجادة للصلاة.

الأمر من مبالغة وضجيج يحدثه من أجل لا شيء. أو من أجل شيء بحجم اللاشيء.

ذات الضجيج يحدث كثيراً خلف أسوار مدارس تعليم البنات وتكـــون المعلمـــة أو إحدى عضوات الهيئة الإدارية هي من يحمل اللـــوزة ويصرخ ليعرف الناس تقواها أو طهرها وعفتها. إحدى المعلمـــات مثلاً تقسم أنها اتصلت بشيخ فاضل تسأله - هل يجوز أن أشحن جوالي في المدرسة؟ سألته لأنها حريصة على أن لا تأخذ من كهرباء الدولة شيئاً مهما كان يسيراً. لا أذكر ماذا قالت عن جـــواب الـــشيخ. لكـــني أذكر أنها تخرج من المدرسة وكثير من المكيفات والأنوار مضاءة. ثم إنها ساهمت في شراء الثلاجة الصغيرة مع المعلمات لحفظ الأجبان الخاصة بفطورهن داخل المدرسة. هذا بشأن الكهرباء فقط. فماذا لو تناولنا التدريس وما تبذله من أجل الطالـــبات من جهد؟ إذاً هذا الورع "الشاحني" - نسبة لشاحن الجـــوال - ليس نابعاً من نفس وصلت إلى هذا الحدّ من التقوى. وصـــارت تراقب الله في كل شيء حتى في شحن الجوال وهل هو علـــى حسابها الخاص أم على حساب الدولة. لكنها تراقب الناس وتـــستجدي إطراءهم وثناءهم. وإلا فإن مراقبة الله إلى هذا الحدّ تعني أن يتفانى الإنسان في عمله أولاً تفانياً يجعله مضرباً للمثل في إخلاصـــه وتميزه لكي لا يأخذ شيئاً من راتبه وهو لم يقم بواجبه كاملاً بالمقابل(1). أو أن هذا الورع هو عبارة عن محاولة منها تريد

---

(1) في اليابان معدل ساعات عمل الإنسام هي (2100) ساعة في السنة. وفي أوروبا معدل عمل الإنسان (1800) ساعة في السنة. - واليابان تتفوق على أميركا في نسبة المتعلمين كذلك يعتبر العمل الجماعي في اليابان هو الأول من نوعه في العالم. (المعلومات والأرقام الخاصة بمعدل ساعات العمل من كتاب خفايا المعجزة اليابانية من تأليف مجموعة من اليابانيين).

بها أن تثبت لنفسها أولاً عكس ما تشعر به في داخلها نحو ذاتها. ثم ترائي من حولها بهذا الورع.

إننا كمعلمات نتذمر من كثرة الحصص وضغوط العمل. فإذا أضافت لنا مديرة المدرسة عملاً آخر انــزعجنا ورفضنا أو وافقنا علــى مــضض. إلا عملاً واحداً نسعد بتنفيذه ونتسابق إليه. ولا نــرفض القــيام به على الرغم مما فيه من دناءة وبعد عن احترام الذات واحترام الآخرين – حسب اعتقادي – إن العمل هو تفتيش شــنط الطالبات. وتفتيش عباءاتهن والتأكد من شكلها وحجمها ونــوعها. والوقــوف لمراقبتهن أثناء دخولهن صباحاً وأثناء ارتداء العباءة ظهراً للتأكد من كثافة غطاء الوجة وعدم ارتداء النقاب – أي أن يكون الغطاء أمام العينين كثيفاً وليس خفيفاً أو مكشوفاً – إلى آخــر ما هنالك من ممارسات تؤدى بإخلاص صاحب اللوزة الــذي يريد أن يعلن عن تدينه. وأرى صاحب اللوزة أفضل من بعــض المعلمــات والإداريــات اللواتي يقمن بالتفتيش والمراقبة والتحــري والتجسس. لأنه أعلن عن نفسه ولم يحاول اتهام غيره بشيء. أما إذا اكتشفت بعض المعلمات وجود طالبة خففت غطاء وجهها أو فقط كشفت أمام عينيها لتبصر طريقها. طارت الأخبار باسمها إلى الإدارة لعل المديرة تزداد إعجاباً وحباً لتلك المعلمة التي قبــضت علــى تلك المجرمة الصغيرة التي تجرأت وأرادت أن ترى الطريق عند دخولها أو خروجها من المدرسة. وتبدأ الأحاديث بين معلمــة وأخرى، وبين المعلمات والإدارة. وتبدأ الإجراءات ضد الصغيرة التي اقترفت ذنباً لا يعادله ذنب.

لقد أرادت تلك المجرمة أن ترى الطريق! ومن قال أن من حقها رؤيته؟ من سمح لها أن ترى أي شيء في الدنيا؟ ستنال العقاب الرادع لها ولأمثالها.

يعلـــم كثيرون أن الإسقاط حيلة من الحيل اللاشعورية يمارسها الإنسان دون أن يشعر بأنه يمارسها. فنجد البخيل جداً يتحدث عن الـــبخلاء وكأنـــه ليس منهم. بل ربما يشتمهم ويؤكد على فداحة موقفهم من المال. تشعر من خلال كلامه أنه كريم جداً. وفي الحقيقة هو يمارس الإسقاط فقط. كحيلة لا شعورية يريد بها أن يرمي ما به من خلل على الآخرين دون أن يدرك ما يفعل.

ومـــا أكثـــر مـــا تـــسقطه بعض المعلمات على طالباتها. فهن كسولات. لا يفتحن الكتاب في البيت. لا يقرأن ولا يثقفن أنفسهن. ومن يسمعها يظن أن الكتاب لا يبتعد أكثر من ثلاثين سنتيمتراً عن عينيها. وهنّ غير مهتمات بشيء غير وضع المساحيق على وجوههن – مع أن الطالبات لا يضعن ولو القليل منها إلا كخلسة المختلس – فأنظـــر إلى وجـــه المعلمة المتحدثة وأنقِّل نظري بين عينيها وشفتيها وخـــديها وأبتـــسم فتفهم معنى الابتسامة وتنبري تدافع عن نفسها فـــتقول – نحن معلمات وهنّ طالبات. وأجيبها: نعم هذا واقع نحن معلمات وهنّ طالبات. لكن ما علاقة هذا بوضع المساحيق للزينة أو منع وضعها؟ هل يؤثر التزين على فهم الطالبة؟ إذا كان الجواب نعم. فإنـــه ســـيؤثر على أداء المعلمة. وإذا كان الجواب لا.. فلماذا هذا التـــشدد ضد الزينة.. ضد الجمال.. ضد الاهتمام بالمظهر. ثم.. على فـــرض.. على فرض أن التزين يؤثر على مدى الاستيعاب فهذا قرار الطالـــبة. وهي حرة. أما إذا كان التزين يؤثر على أداء المعلمة فهي ليست حرة لأنها تأخذ أجراً على أداء عملها ويجب أن تتقنه. وينتهي الحوار عادة بأن لا نتفق. ولا أن نوافق حتى على أن لكل رأيه.

أمـــا تفتـــيش الحقائب المدرسية فكثيرات هنّ المعلمات اللواتي يسعدهن تنفيذ هذا الأمر. مما يخلق في بعض الطالبات تحدٍّ ومجابهة، إذ إن التفتيش بشكل عام يعطي المعلمة مجالاً للتنفيس عما بداخلها من

جهة ومن جهة أخرى يضعها في صف "حراس الفضيلة"، وهذا يعني ضمناً أنها لو لم تكن تقية نقية لما صارت في ذلك الصف. إن تاريخها الطـــويل منذ أن كانت طالبة وإلى لحظة التفتيش يستحثها للبدء بهذه المهمـــة لتثبت بعملها هذا أنها لم تكن يوماً مثلهن ولا بشقاوتهن أو كسلهن أو مخالفاتهن ولم تكن لديها ذات التجاوزات والأخطاء. إذاً فلتسارع إلى كتابة اسم من في شنطتها قلم كحل أو أحمر للشفاه أو دفتر مذكرات شخصي أو ما شابه.

مـــا ينـــتج عـــن ذلك ردود أفعال تقسم المدرسة إلى فريقين يـــتحديان بعـــضهما أيهمـــا له الغلبة. ومن هنا يصبح الحفاظ على المدرسة ومرافقها أمراً منوطاً بالهيئة الإدارية والتعليمية وتخريبها محبباً لمـــن تمـــت معاملـــتهن بقـــسوة أو تمت إهانتهن بتفتيش أغراضهن الشخصية ومعاقبتهن بالكلمات المهينة أو التعهدات الخطيّة وما شابه.

ولا شـــك أن الحفاظ على أخلاقيات الطالبات والحرص على تقـــويمهن مـــن الأساســـيات المنوطة بالمدرسة. وأن منع المخالفات الحقيقـــية مـــن أهم ما يجب أن تحرص عليه المدرسة بكل عضواتها. ولكن الأساليب المتخذة لكشف وجود تلك المخالفات يضع الطالبة في موقـــف الاتهـــام حتى وإن لم يخطر ببالها فعل أي أمر مخالف. إنها أساليب تهدر كرامة الطالبة وتنتهك حدودها دون ذنب أتت به.

إضافة إلى أن تلك المخالفات يجب أن لا يكون من ضمنها مرآة أو أحمـــر للـــشفاه أو كحل للعين كما يحدث. وعلينا أن نرى الهين هيناً. والصعب صعباً. فإحضار الأشياء العادية البسيطة. وأخذ التعهد الكـــتابي علـــيها أو الوصول بها إلى درجات عالية في العقاب يجعل الطالبة تساوي بينه وبين الشيء الممنوع فعلاً.

إن آلـــية التفتيش ذاتها بهذه الكيفية تجلب الكثير من المرارة في نفـــس الطالبة البريئة – والأغلبية من البريئات – وتجعلها متهمة دون

أن تفعل شيء أو حتى تفكر في فعله. وبالمقابل.. لا يوجد مجالات لها داخـل مدرسـتها، وربما خارجها أيضاً لتعبّر عن نفسها أو تمارس هـوايالها أو تعلن عن شخصيتها ضمن الأنشطة التي يجب أن تمتص طاقاتهـا. وهكذا.. لا يوجد إلا الضغط والضغط فقط.. ولا مجالات أخرى للاحتواء والتنفيس. وهذا لا شك سيدفع بالبريئة إلى التضامن مـع زميلـتها غـير البريئة لأن التفتيش منذ البداية وضعها في ذات الفريق. ولأنه لا مجالات متاحة لإثبات الاختلاف والتميز.

أمـا المعلمات فلا ينظرن إلى عملهن كمهنة، فكثيرات حولن المهنة إلى وظيفة يؤدينها كما يطلب منهن ويكتفين بهذا، والسبب هو أن المعلمـة ليست معلمة لأنها تحب التدريس ولم تلتحق بهذا المجال لأنهـا تجـد في ذاتها رغبة صادقة في أن تكون معلمة للطالبات. ولا تستـشعر الـسعادة أثناء أداء العمل لأنها تبني عقلاً وشخصية. ولا تـراقب نمـو هـذا العقل وتلك الشخصية. أي.. لا تستمتع كل المعلمـات بعملهن ولا تجد كل المعلمات في أعماقهن الرغبة الحقيقية في "صـناعة إنـسانة" ولا يـندفعن جميعهن كل صباح بفرح للقاء الطالبات وتعليمهن أشياء جديدة. كثيرات وجدن أنفسهن معلمات لأن كل واحدة منهن تريد وظيفة ولا خيارات أخرى أمامها، إما أن تكـون في سلك التعليم وإما أن تبقى في البيت[1]. وبهذا تزايد عدد الداخلات للتعليم وليست لديهن الرغبة لتعلم المهارات المطلوبة لجعل عملهن مهنة يحرصن على تطويرها والإبداع فيها. فتتأمل ذاتها وهي تغرس وتسقي غرسها على مدى سنوات.

(1) المجتمع لا زال يرى أن الوظائف الأخرى غير التدريس - كالطب والتمريض مثلاً - غير مقبولة تماماً إضافة إلى محدودية المجالات المسموح للمرأة العمل بها أصلاً. وبهذا أصبح الخيار الأكثر تحققاً هو التدريس.

ولهذا لا أستغرب كل تلك الواسطات والمحاولات المستميتة من أجل الحصول على عمل إداري أو إرشادي. ليس حباً في علي ولكن بغضاً لمعاوية.

يـــضاف إلى هذا أن الدراسة في كليات التربية لا يجعل المعلمة مدربـــة ومـــؤهلة بما يكفي لتكون ناجحة بالمعنى المهني الاحترافي. فتفـــشل المعلمة في تطبيق الجانب التربوي أكثر من فشلها في تطبيق التخـــصص الدقـــيق الخاص بها بعد التحاقها بالوظيفة لأن التعليم في الكلـــيات بـــدأ ولا زال يستخدم طريقتين أرى أن أضرارها ستظل تلاحقـــنا سنوات طوال بعد إيقافها - لو تمّ الإيقاف يوماً - الأولى هـــي في استخدام دوائر التلفزيون المغلقة لتدريس الطالبات. فالمدرج يحتشد بالطالبات. والتلفزيون مفتوح وهذا كل شيء.

أمـــا الطريقة الثانية فهي طريقة تلقي الحشو. أي الطالبة تتلقى فقط. وماذا تتلقى؟ الكثير مما ستملأ به كراس الامتحان فقط.

المعلمـــة داخل أسوار المدرسة وبرغم أنها لا تخرج من الباب إلا وهي ترتدي العباءة التي تغطيها تماماً والتي اشترطت التعاميم أن تكون علـــى الرأس. هذه المعلمة محاسبة بدقة على ما ترتديه أمام الطالبات. وكـــأن المدرسة ليست مكاناً معزولاً لا يراه الرجال. وقد تشربت المديـــرات والمعلمـــات هذا الفكر إلى أقصى الدرجات التي يمكن أن يتشرب فيها عقل الإنسان فكرة ما. فارتقت لديهن مسألة ستر المرأة أمام المرأة لتصبح في مصاف المسلمات "الإيمان".

وربمـــا لـــيس هناك ما هو أدل على حرص المرأة على تنفيذ ما يريده الرجل من مبالغة بعض المديرات في تنفيذ ما يأتيهن من قرارات تخص ضبط المعلمات فيما يرتدينه. فإذا كان التعميم يأمر بالاحتشام داخـــل المدرســـة مع أن الموجودات كلهن من النساء فإن الاحتشام كلمة مطاطة وغير محددة. وهذا يجعل كل مديرة تفهمه وفق رؤيتها

ونفسيتها وتجاربها. فتبالغ بعضهن مبالغة تضيق فيها على المعلمات وتشغلهن بما لا معنى له.

نتيجة لما سبق – كما أرى – أصبح لدينا في تعليم البنات **كثير من الشكليات وقليل من التعليم**. وصارت كثير من المعلمات يلقين بالدرس على السبورة ويخرجن من الفصل. يصححن الدفاتر لأن المديرة أو المساعدة أو المشرفات سيحاسبنها على عدم التصحيح. ينظرن لعدد الأسابيع وعدد الدروس ويحرصن على إنهاء المقرر.. إنهاؤه معناه أن يقمن بسرد محتواه أمام الطالبات وكتابة ملخصاته على السبورة. يخططن الكتاب مع الطالبات لتحديد ما يجب حفظه وستأتي منه أسئلة الامتحان[1].

يضاف إلى كون المعلمة دون خيارات عندما بحثت عن وظيفة وصارت معلمة وجود بعض الإحباطات داخل المدرسة ذاتها كتمييز بعض المعلمات من قبل بعض الإدارات، وهذا التمييز ليس وفق مهاراتهن وإبداعهن. والتمييز لا شك يخلق الكثير من السخط والتذمر والشعور بالانزعاج أثناء العمل. ويصرف الاهتمام إلى مراقبة كل تحركات تلك التي نالت رضا الإدارة دون أن تكون قدراتها في العمل هي سبب تميي.

---

(1) كثيرات هنّ المعلمات اللواتي يحددن للطالبات بوضع خطوط تحت النص المهم في الكتاب المدرسي. بهذه الخطوط يحدد ما يجب حفظه من قبل الطالبات. بشكل عام هذا هو التدريس عند بعضهن. إلى أي درجه يمكن أن تنمو معارف الطالبة بهذه الطريقة وإلى أي مدى تنمو لديها "الشخصية العلمية"؟ وإلى أي مدى يتم إدراك سبب التعلم؟. إنها بدلاً من أن تدرس لكي تتعلم وتصبح أكثر وعياً ونضجاً واطلاعاً. صارت تتعلم لكي تنجح في الامتحان لأنها حفظت من الكتاب ما تحته خط.

إصلاح التعليم

في التعليم الثانوي وبسبب كبر سن الطلاب يتدنى قدر المعلم عندما يعرف الطلاب أن المعلم لا يهتم بهم بنفس القدر الذي يهتم براتبه.

منذ فجر التاريخ وإلى الآن ليس في الدنيا نبي ولا مصلح نجح في التغيير لمجرد أن ما جاء به منطقي ويقبله العقل أكثر مما يعتقده الناس، فكل الحجج والبراهين تسقط أمام قوة الاعتقاد بصحة ما اعتاد عليه العامة. وكل الأنبياء والمصلحين يأخذون الكثير من الوقت لإيصال الرسالة أو لتحقيق بعض الإصلاح.

الناس تألف ما هي عليه وتقاوم الإصلاح حتى وإن كان في صالحها. وهذا ما حدث عند البدء الحديث عن إصلاح التعليم. وبعد مرور الوقت بدأ الوعي بضرورة الإصلاح يأخذ في الانتشار، وإن كان لا يزال انتشاراً محدوداً.

تدور الأحاديث عن الإصلاح في التعليم في مسار واحد وهو تغيير المقرر المدرسي. أو إدخال بعض التعديلات عليه على أقل تقدير. لا شك أن هذا جانب هام جداً في عملية الإصلاح. لكن هذا وحده لن يكون ذا أثر كبير وواضح. وذلك لوجود مقرر آخر إلى جانب الموجود في الكتاب المدرسي يتم إشغال كثير من وقت الحصة والأنشطة اللاصفية به. وهذا المقرر الموازي للمقرر الرسمي ليس له إطار محدد وواضح لأنه موجود في رأس كل معلمة حسب مدى تغلغل الثقافة الشعبية فيها ومدى استسلامها لأيديولوجيا معينة تستند في صحة ما لدى التابع لها على تخطئة

الآخر. والآخر قد يكون من المسلمين أو غيرهم. والتخطئة تشمل جميع جوانب الحياة.

هــذا المقــرر الموازي للمقرر الأصلي يدخل ضمن ما "يُدّعى إدعاءً" أنها تربية. ولهذا أرى أن لا يكتفي بتغيير المقرر أو تعديله. بل بتعديل المنهج كاملاً. هذا جانب أما الجانب الآخر. فيتمثل في وجود حــدود واضــحة داخل المدرسة بين التربية والتعليم. بحيث ينصب التعليم على إكساب الطالبة مهارات ومعارف مخطط لها سلفاً تختص بالمادة العلمية المعطاة من قبل المعلمة والتي يتضمنها الكتاب المدرسي بتجــرد تام. لتكون الفيزياء الفيزياء وليست فيزياء وفقه أو حديث مــثلاً. وقواعد اللغة العربية قواعداً للغة العربية وليست قواعد ضمن حكايــات عــن أشخاص أو أحداث تاريخية يتم تصويرها كيوتوبياً ملائكية. وتكون معلمة المادة معلمة للمادة. وليس لها أن تجبر طالباتها على اتباع مدرسة فقهية معينة دون أخرى في الأمور الخلافية. وليس لها أن تجبرهن على ما تراه صواباً وفقاً لعرف أو تقاليد. وهذا يعني:

أولاً – أن تنــشغل الخمس وأربعون دقيقة المقررة كمدة زمنية للحــصة الواحدة بالدرس المعطى. أو بما يدعمه ضمن المادة ذاتها من بحــوث وقــراءات وتلخيص وحل للتدريبات وزيارة لمكتبة المدرسة ومشاهدة للأفلام الوثائقية الخاصة بالمادة... إلخ.

ثانــياً – أن تتوقف المعلمات عن الانشغال بالشكليات فتعطي درســها دون أن يثير غضبها طول أو قصر شعر الطالبة أو أن تهدر الــوقت لتتأكد من أن لون عين الطالبة طبيعياً أم أنها ترتدي عدسة ملونة.... إلخ من الأمور التي قيدت عقل الكثيرات في التعليم.

ثالــثاً – أن تــتوقف الانتهاكات التي لا تحصى ضد الطالبات بــسبب الخلط بين معنى "سلوك الطالبة وشكل الطالبة" فالمدارس لا تفــرق بين الشكل والذي يدخل فيه طول وقصر القامة ولون البشرة

ولـــون وشـــكل الزي الذي نرتديه ولون صبغة الشعر... إلخ وبين السلوك والذي يستلزم عدم تخطي حدوداً معينة من التهذيب واللياقة والآداب العامة.

رابعـــاً – أن تـــدرك المعلمـــة مهامها الموكلة إليها والمتمثلة في الـــتمكن من المادة العلمية والتمكن من تحريك العقل أثناء التدريس وذلـــك بالتخطيط للدرس بالطريقة التي ينتفي معها التلقين. وترتقي بعقـــل الطالبة إلى المستويات العليا من الهرم المعرفي. وننتهي في أقرب وقت من التدريس على طريقة "عرفي – عددي – اذكري – احفظي – سمّعي... إلخ".

ولتحقيق ما فات يجب أن تأخذ المعلمات دورات تدريبية مكثفة في طـــرق الـــتدريس والإدارة الـــصفية. تمكنهن من أداء واجبهن باحتـــراف. والاحتراف لا يتم دون تدريب مستمر ومكثف. إلى أن يصل أداؤهن إلى التلقائية الواعية.

إن التلقائية في الأداء تعني أن تكون المعلمة ملمة ومتدربة بشكل عـــال أوصلها إلى حضور وسرعة البديهة في حل المشكلات وإدارة المواقـــف دون عـــناء استحـــضار ما تعلمته. ودون تخبط ومزاجية وانفعال.

علـــى أن قـــصة التدريب في المنطقة الجنوبية تحديداً تطول لو أفردت لها الصفحات وأكتفي هنا بالإشارة إلى أنه يجب إعادة النظر في كيفية التدريب ومعناه وأهميته. وعدم الركون كثيراً لمسألة الخبرة في الترشيحات وتقييم الأداء الوظيفي. وأذكر هنا ما يروى عن أحد المـــوظفين أنه قال لمدير الشركة التي يعمل بها: كيف تعطيني درجة منخفـــضة في تقيـــيم أدائـــي الوظيفي وأنا لي خبرة طويلة تجاوزت العـــشرين سنة. فقال له المدير بكل هدوء: ليس لديك خبرة عشرين سنة، إن خبرتك سنة واحدة تكررت عشرين مرة.

إن الهـــدف هـــو أن تنصرف المعلمة بجل طاقاتها وإمكاناتها إلى التعلـــيم. وتترك التربية التي لم يحدد معناها في أذهان المعلمات والهيئة الإداريـــة بوضوح و لم تحسن توظيفها، لمتخصصات أخريات. إلى أن يـــتم اســـتيعاب الأســـاليب التربوية الجيدة. وهذا لن يتحقق سريعاً والأخـــريات اللواتي أتمنى أن يصبحن متخصصات في المجال التربوي أكثر هن المرشدات.

دور الإرشاد في التربية

التعليم لا يعني تعليم الصغار ما لا يعرفونه، إنه يعني تطوير عقولهم لتصبح راغبة في المعرفة.

كـــثيرات هـــن اللواتي أرهقهن التحضير والتدريس فبحثن عن واسطة هنا وأخرى هناك ثم تحولن إلى أي عمل آخر داخل المؤسسة التربوية التعليمية غير التدريس. ومن أولئك المرشدة المدرسة. أو ربما تمّ ترشيح إحداهن للإرشاد لسدّ العجز، أو لوجود زيادة في تخصص مـــا دون غـــيره. وبهذا فالمرشدة كالمساعدة. ليس من الضروري أن يكون قد تمّ اختيارها وفقاً لكفاءتها.

وترى بعض المعلمات أن المرشدة تأخذ ذات الراتب. ولا تعاني من إعداد الدروس والوسائل ولا من الوقوف في الحصص ومواجهة الطالبات... إلخ مما تتذمر منه المعلمة وغيرها لا يعانيه.

لم يكن الترشيح للإرشاد وفق معايير تهتم بوجود تخصص دقيق لـــدى المرشحة في هذا الجانب الهام من العمل المدرسي. ولا أرى أن في مقدورهن أداء ما عليهن بشكل صحيح وسليم ما لم يتم تأهيلهن لـــه، فيما عدا ملء السجلات والملفات بالبيانات الخاصة بالطالبات. وهـــذه الأعمـــال الكتابية يحسن أداءها كل من تدرب عليها تدريباً بـــسيطاً ولو لم يكن من حملة الثانوية العامة أو ما دونها. أما الدخول في صميم العمل الإرشادي لمواجهة واقع الطالبات والتمكن من إيجاد الحلول المناسبة لمشاكلهن التي تتعدد بتعددهن، والقدرة على الاستعانة بمنجـــزات علـــم النفس والتربية لتغيير سلوك معين عند الطالبات أو ترســـيخ قيمة ما لديهن فهذا ما لم ألاحظه حتى الآن. والذنب ليس

ذنـــب المرشدة، بل ذنب الذين لم يأبهوا لتأهيلها تأهيلاً حقيقياً لهذا العمـــل. وعلـــيه أرى أن يتم إجبار المرشدات في جميع المدارس على دراســـة الدبلوم التربوي حتى وإن كن خريجات كلية التربية على أن تشتمل مقررات الدراسة نظريات التربية وتطور الفكر التربوي وعدد من العلوم الأخرى التي تصب في ذات الهدف كالصحة النفسية وعلم نفـــس الـــنمو وغيرها. ويضاف إلى ذلك دورات مكثفة في جانب الإرشـــاد المدرســـي. وبعد هذا يوكل إليهن الإرشاد بحيث يصبح الجانب التربوي في المدارس من شأنهن وداخل دائرة اختصاصهن.

أما بقاء الإرشاد في المدارس ارتجالياً - تقريباً - وتخبط الموكل إلـــيهن أداؤه وارتكازهن على خبراتهن الخاصة - وليس إلى العلم - في مواجهة المواقف العديدة التي تدخل ضمن دائرة عملهن، فهذا لا شك يولد مزيداً من المشكلات ولا يحلها.

والمشكلة ليست في عدم تأهيل المرشدات في المدارس فقط. بل فـــيما يتلقيـــنه مـــن أنظمة ولوائح لضبط سلوك الطالبات، والتي لا يستطعن نقدها أو تجاهلها.

ومـــن تلـــك الأنظمة "كتيب قواعد تنظيم السلوك والمواظبة لطالـــبات مراحل التعليم العام لعام 1425هـــ" والصادر من الإدارة العامـــة لتوجـــيه وإرشاد الطالبات والساري المفعول إلى اليوم، أورد مستويات مختلفة للمخالفة تحت عنوان - تصنيف درجات المخالفات الـــسلوكية حسب حدتها - وجاء التنظيم حسب الكتيب بالأسهل فالأصـــعب. بحـــيث تكون مخالفات من الدرجة الأولى أقل شأناً من مخالفات الدرجة الثانية وهكذا.

بعـــض المخالفـــات مذهلة، ليس استناداً على ما أرصده داخل المدرســـة وحـــسب. ولكن استناداً أيضاً على قراءته في هذا الكتيب الموزع في كافة مدارس تعليم البنات والساري المفعول. وبثقة أقول:

تتـــضمن أنظمـــة تعلـــيم البنات ما يؤدي بالطالبة إلى عدم التوازن والاســـتقرار النفسي للطالبة. إذ إن النظام يحوي مخالفة سلوكية تحت عـــنوان "مخالفـــات من الدرجة الثانية" هي – الضحك العالي – و لم يحدد البند كون الضحك في ساحة المدرسة أو في الفصل. فإذا روت الطالـــبة فلانة لصديقتها علانة طرفة أثناء الفسحة وضحكت الطالبة بحيث سمعتها أي معلمة أو إدارية، فإن الطالبة وبحسب النظام تعد قد ارتكبت مخالفة سلوكية من الدرجة الثانية.

تم وضع المخالفة "إهمال أداء الواجبات المدرسية" ضمن مخالفات الدرجة الأولى. أي أنها مخالفة بسيطة مقارنة بالضحك.

هـــل من المقبول أن يكون الإنسان قد ارتكب مخالفة سلوكية لمجرد أنه ضحك بصوت مسموع؟ لا أظن أن تشريعاً كهذا يمكن أن يكـــون ضمن لوائح تخص الرجل. وللحق فأنا حتى في داخل الفصل أسمـــح بالضحك، وأحرص على خلق الأجواء المرحة قدر الإمكان. فهل على المسؤولين اتخاذ إجراءاتهم ضدي كوني لا أجرم الضاحكات وحسب، بل أسعى إلى بث روح الدعابة بينهن.

وفي ذات الكتيب تمّ وضع مخالفة "الغش في الواجبات" و"تزوير توقـــيع ولي الأمـــر" و"امتهان الكتب المدرسية أو الوسائل التعليمية" و"الـــشجار والتلفظ بألفاظ نابية" ضمن مخالفات الدرجة الثانية. أما مخالفـــات الدرجة الثالثة والتي تعد أصعب من التزوير والغش وأخطر مـــن التلفظ بالألفاظ النابية فهي "النمص". و"قصات الشعر المشابهة لقصات الذكور والصبغات الغريبة".

وهذا يعني أن من وضع هذه الأنظمة وعممها على كل مدارس تعلـــيم البـــنات يرى أن الغش والتزوير أمران هينان لا يرتقيان إلى مـــستوى الدرجـــة الثالثة، وأن النمص وطول الشعر أو قصره ولونه تأخـــذ أهمية قصوى إن حدثت. ويمكن لنعرف كيف تمّ قلب الأمور

غلـــى هـــذه الدرجـــة الرجوع إلى عنوان – اجترار التراث في هذا الكتاب – من خلال الأمثلة السابقة نلاحظ بجلاء الخلط بين الشكل والسلوك. وبين ترتيب الأهمية. فالشكل يتداخل مع السلوك. ويصبح أهـــم – في نظر معد أو معدة الكتيب – من السلوك. لذا فقد وضع لـــون وشكل الشعر والحاجبين ضمن المستوى الثالث. على أن قص الشعر بشكل قصير ليس بالضرورة تشبهاً بل قد يكون اضطراراً من بعـــض النـــساء. ومـــا أكثر اللواتي يتمنين الشعر الطويل. أما الغش والتزوير فهما أقل خطورة لذا بقيا في المستويين الأول والثاني. وهذا يوضـــح كـــيف تقلب الأولويات من أعلى الهرم الإداري في التعليم وتـــصل إلى قاعدته. فيتعلم الجميع أن القيم والأخلاقيات شيء تافه مقارنة بشكل الإنسان وما يرتدي الإنسان.

ونأتي إلى الشكل الذي ظل مؤرقاً لكثيرات جداً من المشتغلات بالتعليم، في ظنّ منهن أن كل تغيير عن المألوف يعني تشبهاً بالرجال.

إن العباءة – على ما لها من مكانة في مجتمعنا تصل حدّ الإيمان – ليـــست سوى بشت "مشلح" يرتديه سكان الصحراء في سالف العهـــد. ولا زال البشت الذي يرتديه الرجل الآن شبيهاً بالعباءة التي ترتديها المرأة. فهل يدخل هذا ضمن التشبه من أحد الطرفين بالآخر؟ بـــل إن الرجل والمرأة في الماضي كانا يتبادلان ذات العباءة فتلبسها المـــرأة حيناً ويلبسها الرجل حيناً آخر. كذلك فإن ثوب الرجل ذاته يـــشبه "المقطـــع" الذي ترتديه النساء في الماضي. ويعلم كثيرون أن الـــرجال في الماضي كانوا يطيلون شعورهم. بل إن بعضهم كانت له ضفائر يجدلها كالمرأة تماماً. وفي حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه (أن الـــنبي صلى الله عليه وسلم كان يضرب شعره منكبيه)[1]. ليس

---

(1) صحيح البخاري، كتاب اللباس.

الرسول صلى الله عليه وسلم وحسب من يطيل شعره بل كثيرون من المسلمين والمشركين على حد سواء. فهل انتقص هذا من رجولة أحدهم؟ وهل إذا أطالت النساء شعرها الآن صرن متشبهات برجال من الماضي؟ وكما يعلم كثيرون أيضاً أن التنورة المثناة من عند الخصر لباس شعبي في بريطانيا للرجال. فهل إذا لبست المرأة هنا التنورة المثناة من الخصر كانت متشبهة بالرجل هناك؟ كما أن الرجل في قبائل الطوارق يجب أن يخفي وجهه فلا يُظهر إلا عينيه. أما المرأة فهي سافرة الوجه. فهل تتشبه المرأة إذا غطت وجهها في السعودية برجال الطوارق الذين يخفون وجوههم؟ وهل يتشبه الرجال عندنا بالنساء في كل العالم لأن النساء والرجال يظهرون وجوههم؟!

إن النظر من زوايا ضيقة هو ما يربك الناس ويخنق تحركاتهم. ثم يجعلهم بعد ذلك لا يدرون في أي الطرقات يمشون. وكان الأولى بدلاً من التركيز على الشكل وإقحامه إقحاماً في أمر السلوك أن يركز المعنيون على القيم التي تشكل الإنسان وتحدد شخصيته. وليس على الشكل الذي يمكن أن يغيره إذا تخلص من سيطرتهم عليه.

الدين الإسلامي عندما أكد على عدم تشبه الرجال بالنساء وعدم تشبه النساء بالرجال كان يؤكد على احتفاظ كل جنس بطبيعة تكوينه الجسدي الذي خلقه الله عليه فلا تحدث علاقات شاذة بين ذات الجنس يلعب فيها أحد الطرفين المتماثلين دور الذكر والطرف الآخر دور الأنثى. إن هذا الشذوذ هو المحرم والمنهي عنه وليس مجرد قص أو إطالة للشعر. وبعض النساء لا يتجاوز طول شعرها السنتيمترات القليلة ولديها من الأنوثة ما يفوق ذوات الضفاير المسدلة. وبعض الرجال يصل شعر رأسه إلى ما بين كتفيه. ولديه من

الـــرجولة ما يفوق عصبة من الرجال. ويكفي أن نتأمل مصارعاً من ذوي الشعر الطويل. ثم نتساءل عن أثر طول شعره في ميله إلى شكل النـــساء. وأن نـــتأمل أيـــضاً الكثيرات من ذوات الشعر القصير من مـــذيعات الأخـــبار على شاشات الفضائيات ونتساءل عن أثر قصر شـــعرهن على تشبههن بالرجال. إن شعرهن القصير جعل منظرهن أنثوياً جداً ولم يقل أحد من المشاهدين أن المذيعة فلانة أو علانة تشبه الرجال.

أين يمكن أن نتعلم الحريـة؟

إذا لم يكن الإنسان متمدناً تظهر غرائزه في سلوكه بشكل جلي وفاضح.

إن أســـوأ ما قد تعانيه امرأة في مجتمعنا هو عندما لا تدرك أن نظامهـــا الحياتي يحتاج إلى إصلاح. ولا ترى أن في وضعها القائم أي تعـــد على آدميتها. لقد وصلت كثير من النساء إلى حدّ عدم القدرة علـــىً نقد الواقع وبالتالي فقد وصلن بهذا إلى مستوى غير طبيعي – فيما أرى – من عدم الشعور بالظلم. وكل ما تعيشه النساء من تعد علـــى حقـــوقهن وكرامتهن يدخل في اعتقادهن فيما قدره الله تعالى عليهن. وأرى أن تلك مسؤولية رجال الدين الذين لم ينشغلوا كثيراً بتوضـــيح الأمور التي يكون فيها الإنسان مسيراً. وأنها محدودة جداً. وبين الأمور التي يكون فيها الإنسان مخيراً كل التخيير. ومسؤوليتهم أيضاً أن لا يسمحوا باستمرار اللبس عند الناس بين المكروه والحرام. أو تحريم الحلال.

وإذا فهـــم الإنـــسان – أنثى وذكر – معنى الحرية وتمكن من التخلص من هيمنة ظلام الحتمية والجبرية. وإذا خلص نفسه من حب التـــسلط. وإذا تدرب على تبني المواقف الحيادية قبل أن يحكم على المواقـــف والأفكـــار والأشـــخاص، إذا تمكن من الوصول إلى هذه الحـــالات الثلاث أدرك أن وجوده في الأرض مع آخرين غيره وهذا الإدراك يجعلـــه كائـــناً مسؤولاً يفهم ما حوله ويعرف إلى أين تمتد حـــدوده وأيـــن تقـــف. متمكناً من الحكم على المواقف والأشياء بموضوعية وتجرد.

إن تعلـــم معـــنى الحرية يتداخل مع جذور تشكيل الأخلاق في داخـــل الإنسان منذ طفولته. ذلك التشكيل الذي تسهم الممارسات التـــربوية في إحداثه. ويسهم المنـــزل والمجتمع بكل تراثه وتاريخه فيه أيضاً وبقوة قد تفوق قوة المدرسة أضعافاً مضاعفة.

ومـــشكلتنا الكـــبرى - كما أراها - أن التعدي على الآخر، وعلى المرأة بشكل خاص وتجاوز الحدود معها سواء من قبل الرجل أو مـــن قـــبل امرأة أخرى يأتي باسم الدين. وذلك برفع الخلافي في الدين إلى مستوى القطعي ثم التأكيد على أن بعض الناس وكلاء عن الله في الأرض. أو مـــسؤولون معـــه سبحانه وتعالى في محاسبة الناس على أفعالهم. وهذا غلو في الدين. مع أن الاعتدال والوسطية هي ما يـــردده المغالون. فليتهم إن كانوا وسطيين كما يدعون في كل محفل أن يخبرونا، من هو المغالي إذاً وبماذا يقول؟ أين هم المغالون؟ وأين هو المجتمع المغالي في الدين إن كنا وسطيين؟

لو أن الطالبة في المدرسة شريكة في العملية التعليمية. لا متلقية للمعلومات والتعليمات والأوامر. فإنها تتعلم - بشكل غير مباشر - شـــيئاً عـــن معنى الحرية. وكثير من الاستقلال بالرأي والقدرة على الـــتعلم والرقـــي بالفكر والثقافة. إذ إن لها أن تبحث[1] وتبني ذاتها بنفسها.

لو أن آراءها لا ترفض بشكل فج وقامع. ولو أن حواراتها تأخذ علـــى محمـــل الجـــد مهمـــا كانت وتستقبل بصدر رحب وتناقش بموضـــوعية لشعرت بالحرية واستمرت في المشاركة الفاعلة. ولعرفت أنها كائن يمارس فاعليته. وله حدود تحترم من قبل الآخرين، حتى وإن كـــان هؤلاء الآخرون أكبر منها سناً أو مقاماً. وبهذا تصبح الطالبة

(1) المكتبات المدرسية - فيما أرى - تحتاج إلى هدم وإعادة بناء.

قادرة على إعادة تكوين وتشكيل أفكارها. وهذا ما سينعكس على شخـــصيتها كإنسانة مستقلة وعلى فكرها كمتعلمة تساهم في تطور وعيها وثقافتها.

لـــو أن الطالبة تحاسب على التقصير الفعلي أو التعدي الحقيقي وفـــق نظـــام مكتوب وواضح بشكل جلي ومعلن. بشرط أن يكتبه المهتمون بالتربية والمتخصصون فيها فسوف تدرك معنى "حرك يدك كيفما تشاء ولكن لا تفقأ عين أحد".

إحدى مشاكلنا في تعليم البنات – كما أراها بوضوح – تكمن في أن من كتب التعاميم القديمة السارية المفعول حتى اليوم ليس تربوياً يعي ولو بعض نظريات التربية، إنما هو متعد على التربية. يحفظ جيداً العبارة الشهيرة – لكم اللحم ولنا العظام – فأقحم ذاته في مجال تعليم وتـــربية الطالبات وشرّع القوانين وفرضها. فأدت النتيجة إلى وجود تشوهات عديدة وكبيرة في نفسيات الكثيرات وحياتهن.

عندما تكتشف كل طالبة منذ اليوم الأول لها في الدراسة أن من حـــق أي مـــوظفة في مدرستها أن تجر الرباط الملون الذي جمعت به أطـــراف شـــعرها جراً، لمجرد أن ألوانه لا تروق لتلك الموظفة. وأنها كطالبة يجب أن تصمت أمام هذه التصرفات مهما تعددت وتنوعت، فإنهـــا لا تعـــود تميز بين ما لها وما عليها. وقد تكتشف مع تكرار الـــتجارب معها ومع زميلاتها أن ما لها يوازي صفر وأن عليها كل شيء. بالمقابل، تفعل المعلمة ما تفعله بطريقة انتقامية أو تسلطية. أو لإثـــبات الحضور الذي تمّ إلغاؤه لسنوات وسنوات. وربما كان هذا الحـــضور الذي تريد إثباته مغيباً في المنـــزل. أي أنها تعاني من القمع والاضطهاد خلف أسوار المنـــزل الذي تسكن فيه. وعندما تخرج إلى العمل تطبق المقولة الشهيرة: من ظُلِم يظلم.

إن جــــرّ الشريط الملون الذي تربط به الطالبة شعرها لا يحدث لأن هـــذا اللون قد يقف حاجزاً بينها وبين فهم مادة ما. إذ لم يثبت علمياً علاقة ألوان ربطات الشعر بتدني القدرة على الاستيعاب. هذا الـــشريط مجرد مثال على صرامة المدرسة مع الطالبات. تلك الصرامة التي أتساءل بسببها كل يوم في الطابور الصباحي. هل أنا في مدرسة لتعليم البنات أم أني في ثكنة عسكرية!

هـــذا جانب يتعلق بتكوين الشخصية وما تنطوي عليه من قيم تسهم المدرسة كمؤسسة في تشكيلها. إضافة إلى ما تؤدي إليه طريقة الـــتدريس ذاتهـــا لدى الطالبة من حالة ركود وسكون وتوقف عن المشاركة الفعلية في العملية التعليمية مكتفية بالتلقي.

خاتمة

عندما تكون في نهاية الحبل، اربط عقدة وتعلق بها.

منذ عشرين عاماً مضت داعب خيالي حلم المساهمة في النهوض بالمجتمع النسائي، المشاركة في العمل على الإصلاح، ترسيخ مفهوم الحرية، تمجيد العلم، تحطيم الأغلال التي كبلت المرأة وحرمتها من القدرة على إثبات الوجود.. من القدرة على التفكير بوضوح.. من القدرة على اتخاذ القرار.. حرمتها من القدرة على إدراك واقعها الذي تعيشه. فما أكثر اللواتي يؤكدن لي بأن حياتهن طبيعية برغم ما فيها من اضطهاد أوشك أن ينفيهن إن لم يكن قد فعل.

وكنت حينها على يقين أن المدرسة هي المكان الأمثل لصنع الشخصية المتوازنة المستقلة ذات الاطلاع الواسع والثقة العالية بالنفس. وبعد انقضاء كل تلك الأعوام وما مررت به من تجارب ومواجهات واتهامات. أدركت أن حماس الشباب هو ما كان يصور لي أن بإمكاني مواجهة الطوفان. طوفان الأدلجة التي تجعل العقل غير قادر على التفكير إلا من خلال تلك الأيديولوجيا.

كل صباح يجتاحني حزن عميق لم أتمكن من الاعتياد عليه. لأني كل صباح أرى الكثير من الانتهاكات التي تدل على عدم احترام الطالبة بمجرد دخولها بوابة المدرسة. ولا أحد يتفق معي في محيط عملي بأن ما أراه يعد انتهاكاً لحرية الطالبة. بل لا أحد يرى معي في محيط عملي بأن للطالبة حرية يجب أن نقف عند حدودها وأن لا نتجاوزها.

أدركـــت الآن أن أجـــيالاً بعد أجيال ستأتي وتذهب قبل أن يتحقق ذلك الحلم القديم. لهذا أقدمت على تسجيل بعض ما أرى أن علـــي تـــسجيله في كتابي هذا على أمل أن تسهم كتاباتي في إضاءة المواقع المعتمة في مجتمعنا.